يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات

كتاب

من أخلاق العلماء

للشيخ محمد سليمان

نائب المحكمة العليا الشرعية بمصر

دار الشعب

يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

كتاب

مِنْ أخلاقِ العُلماءِ

لِلشيخ محمد سُليمان
نائب المحكمة العُليا الشّرعيّة بمصْر

دار الشعب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدىَ لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد علم الهدى . ومطمح القدوة . وعلى آله وأصحابه المصطفين الأخيار .

الى روح أبى

بعض فضلك علىَّ يا أبت يرحمك الله ، كتابٌ فى أخلاق العلماء جمعته للخير ، وأذعته للنفع ، ثواب علمه الجارى إلى روحك الطيب فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ابنك الداعى

أى ولدى البار

انبته الله نباتا حسنا

يقولون « العلم نور » وصدقوا ، ولكن فاعلم أن مصباح هذا النور فى زجاجة ، والزجاجة كأنها كوكب درى ، وهو روح العالم الذى تتلبسه فتضيئه ، وتضىء به . ومنه أقبس لك هذا القبس « على عجل » لعلك تجد عليه الهدى .

واعلم يا بنى أن نور العلم إن تستقبله نفس مستعدة فهى التى تستنير به وتُشعه على الناس . إنه يصفيها فتصفى ، وتكون به نورانية من ومض الله « نور السموات والأرض » ، كالمنار يهدى الضال وينير الدلج فيسلخ الظلام ، وهذه وظيفة العلم . إنه يطهر النفس كالبوتقة تصهر الذهب فيذهب ما به من خبث ، ثم يكرم حتى يتعامل به الناس ، وحتى يكون الثمن الذى يوازن به كل عرض في الدنيا .

إنك إن بلغت هذه الرتبة فذلك فضل الله ، إذ تتخلص من ظلمة المادة فتكون صورة للفضيلة وللخير ، وتحمل النفس المطمئنة ، والعلم وسيلة إلى هذه الغاية غاية الخير والسعادة بالخير ، وأن ترى اللذة والسرور فى الخير ، الخير الذى يعم العزة والعدل والإيثار ، الخير الذى هو الخير وكفى . وإذا عدوت هذا الشوط فقد أدركت الفوز وجلّيت فى الحلبة لدنياك ولآخرتك .

أما العلم الذى تستقبله النفوس الصلـــدة المظلمة فهو الذى يضرّ ولا ينفع ، ومثله يا بنىّ مثل ما ترى من لعب الصبيان بالمرآة إذا عكسوها على الشمس . ألا ترى الشعاع المنعكس منها يُعشى ويُحرق ؟؟ ذلك أن وجه المرآة صلد لا ينفذ منه النور وقلبها أسود لا يقبله فارتد لذلك على الآخرين ناراً ونقمة . أو كمثل الماء يرتدّ عن الجلمود لا يرويه ولا يتروى به فينحدر عنه إلى حيث لا يملك الصخر تصريفه ، ولذلك كان العالم بصلاحه وبفساده أداة الإصلاح والإفساد فى الناس كما فى الأثر .

ليست الغاية من العلم أن تعلم فحسب ، بل الغاية أن تعمل بمـــا تعلم من الخير . وأن تكون بعلمك قدوة الخير لقومك ، القدوة التى تؤثّر فى الناس بالتأسّى ، فإن النفوس يا بنى حساسة كأنها تتناجى بالأثير فمـــا يكون فى قرارة جلجلانك يعرفه جيرانك ، فاصدر عن خير ليصدر عنك الخير ، وكن كما تحبّ أن يعرف عنك بالحقيقة الواقعة ، لا بالقول الموضوع ، ولا بالعمل المصنوع ، بل بالاخلاص فى صفاء النفس وتربية الضمير ، فإن النفس بماهيتها تؤثر بحقيقتها ، إن خيّرة فخيرٌ أو شريرة فشرّ وما هذه الأدهان والأصباغ اللاتى يتراءى فيها العُمى عن أنفسهم إلا نهانيه أشبه بالطلّ يذوب فى الصباح إذا تنفس . وأبوك يا بنىّ رجل مسلم معجب بشرع الإسلام ، ويرى فيه الكفاية فى العلم والعمل ، والحكمة والمثل ، ولكن تحفز على لسانى كلمة علّمنيها أستاذى : محمد عاطف بك بركات كأنه نقشها على قلبى ، فأنا أرويها لك فى هذا المعنى عنه رحمه الله عن صاحبها أرسطو ، قال أرسطو : إنا لا نعلّم بأقوالنا ولا بأعمالنا إنمـــا نعلّم بحقائق نفوسنا . إن فى النفس أشعة تنفذ منهـــا إلى مجاوريها فتريها لهم : اه فخلّ نفسك يراها الناس على ما يسرّك وهم لا بدّ راءوك وإن

راعيتهم ، فدع الرياء إلى الحقيقة ، فإن الحصول عليها لا يكلفك أكثر مما تظنه فى الرياء ، فالمرء ابن عادته التى اعتادها ، وأصل التعود فى يد المريد وقد هداه الله النجدين . فطوبى لمن رام الاستقامة فإنّ على الله قصد السبيل ، وكفى علماء الهدى أن أسماءهم هى الباقية على الدهور ، سطوراً من نور .

فتح الله عليك وأقرّ عينى بك وبإخوتك وبارك وأسعد .

وتفهم يا بنىّ ما أنا ممليه عليك من أخلاق هذا الصنف من العلماء علماء البقاء بعد الفناء . فإنهم استحقوا بفضلهم شرف الإملاء . ثم ليزدادوا خيراً بهداهم فى جنات النعيم .

مدينة أسيوط :

أبوك الناصح

الفاتحـة

يقول (جامع هذا الكتاب) بدأت أجمع نقوله من خمس عشرة سنة وأنا قاضي دمياط . ثم لما عينت نائب أسيوط منذ ست سنين أعدت النظر فيها ورتبتها ووسمتها باسمها وكتبت كلمة « أى ولدى » بها .

وبدا لى هذه الأيام أن أطبعه فراجعت أبوابه ونسقت ترتيبه وزدته مما وقفت عليه أو سمعته . والكتاب مادته تربو وتزيد وتقبل — كلما طبع — أن ينمو ويكبر . فلما فرغت من هــذا أخبرني أحد الأصحاب عن كتاب اسمه : (أخلاق العلماء) اطلعت عليه فألفيته رسالة لطيفة فى تسعين صفحة صغيرة لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجرّى المحدث المتوفى بمكة سنة ٣٦٠ هـ نحا فيه نحوا غير نحوى فى هذا الكتاب ، فقد ذكر رحمه الله الصفات والأخلاق التي ينبغى أن تكون لأهل العلم أو يكونوا عليها . وذكرت أنا آثار تلك الصفات والأخلاق فيما وقع من علمائها أو صدر عنهم . فكتــابه دستور لهم ، وكتابي زهور من بستانهم أو جنا ثمرات مما بذر ، وكان العلماء — الذين نعنى بهم — زرع تلك الفضائل والأخلاق .

وقد رأيت أن أجعل خلاصته فاتحة لكتابى زيادة فى النفع ، وذكرى لأولى الألباب ، وإنما اخترت تلخيصه لما فى اسمه من توافق وإلا فللإمام أبي عبد الله شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ كتاب حافل

فى جزءين كبيرين نحو ستمائة صفحة بالقطع الكبير والحرف الصغير اسمه : (مفتاح دار السعادة ، ومنشور ولاية العلم والإرادة) أوسع المجال وصال وطال ، فى ميدان أبي بكر الآجرى رحمهما الله وجزاهما عن العلم وأهله خير الجزاء .

وما فى هذه الخلاصة من أحاديث وآثار أوردها الآجرى من روايته ورأيت أكثرها منشوراً فى كتاب ابن القيم ، وفي بعضها اختلاف يسير ، وقد خرجها الشيخ وذكر طرقها ومنازلها .

والعنوان الآتى من كتاب مفتاح دار السعادة ، أنعم الله علينا بهـا وعلى المؤمنين .

فى العلم وفضله وشرفه
وبيان عموم الحاجة اليه

وتوقف كمال العبد ونجاته فى معاشه ومعاده عليه .

قال أبو بكر محمد بن الحسين رحمه الله ، بعد أن ذكر فضل العلماء وحاجة المجتمع إليهم .

فهم ـ أى العلماء ـ سراج العبـاد ، ومنار البلاد ، وقوام الأمة ، وينابيع الحكمة ، هم غيظ الشيطان بهم تحيا قلوب أهل الحق ، وتموت قلوب أهل الزيغ ، مثلهم فى الأرض كمثل النجوم فى السماء . يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر . إذا انطمست النجوم تحيروا . وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا .

فإن قال قائل ما دل على ما قلت ؟ قيل له الكتاب ثم السنة . فإن قال

فاذكر منه ما إذا سمعه المؤمن سارع فى طلب العلم ورغب فيما رغبه الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم . قيل له أما دليل القرآن فإن الله عز وجل قال .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) فوعد الله عزَّ وجلَّ المؤمنين أن يرفعهم ثم خص العلماء منهم بفضل الدرجات .

وقال عز وجل (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ فأعلم خلقه أنه إنما يخشاه العلماء به .

وقال عز وجل : (يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ومَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وما يذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ)

وقال عز وجل : (ولَقَدْ آتَيْنَا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ)

وقال عز وجل (ولٰكِنْ كُونُوا ربَّانيين بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

وقال عز وجل : (لَوْلَا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ والْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ) الآية . يقال فقهاؤهم وعلماؤهم .

وقال عز وجل : (وجعلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ)

وعن مجاهد في قول الله عز وجل (يُؤْتى الحكمة من يشاء) قال العلم والفقه .

وفى قول الله : (وآتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا) قال الفقه والعقل والعلم

وفى وله (ولَقَدْ آتَيْنَا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ) قال الفقة والعقل وإصابة القول فى غير نَبْوة

وفى قوله عز وجل (وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ) قال الفقهاءُ والعلماءُ

ذكر ما جاءت به السنة والآثار
عن فضل العلماء فى الدنيا والآخرة

عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولَفَضْلُ الْعالِمِ على الْعابِدِ كَفَضْلِ الْقَمرِ لَيْلَةَ الْبدْرِ علَى سائرِ الْكَواكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دينارًا وَلادرهمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »

عن عثمان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم الشهداء ثم العلماء » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما عبد الله بشيء أفضل من فقه فى دين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه » .

عن أبي حفص أنه سمع أنس بن مالك يقول قال النبى صلى الله عليه

وسلم : « إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَإِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ يُوشِكُ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ »

عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما سلك عبد طريقاً يقتبس فيه علما إلا سلك به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا عنه ، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف البحر » .

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

عن صفوان بن عسال المرادى قال « أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ إِنِّى جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ ، فَقَالَ مَرْحَبًا يَاطَالِبَ الْعِلْمِ ، إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا سَمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ »

ومن حديث أبى أمامة : « العالم والمتعلم شريكان في الأجر » .

عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تَتَعَلَّمَ ثُمَّ تُعَلِّمَهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَزَّ وجلَّ »

عن أَبى أمامة أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَرْبعةٌ تَجْرِى علَيْهِمْ أُجورُهُمْ بعْد الْموْت : المُرابطُ فِي سبيل الله ، ومنْ علَّم علْماً أُجْرِى لَهُ ماعُمِلَ بِهِ ، ورجُلٌ تَصدَّقَ بِصدقَةٍ فَأَجْرُهُ يجْرِى ماجرتْ ، ورجلٌ تَركَ أَولاداً صِغاراً فَهُمْ يدْعُونَ لَهُ »

عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول : إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً إنما يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينزع العلم من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ولكنه يذهب بالعلماء فكلما ذهب بعالم ذهب بما معه من العلم حتي يبقى من لا يعلم فيضلون .

قال محمد بن الحسين : وروي عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلم صدقه ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، والأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الأخلاء ، والقرب عند الغرباء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخلق قادة يقتدي بهم ، وأئمة فى الخلق تقتص آثارهم ، وينتهى إلى رأيهم ، وترغب الملائكة في حبهم ، بأجنحتها تمسحهم . حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر . حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأحرار ومجالسة الملوك ، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، والفكر به يعدل بالصيام . ومدارسته بالقيام . به يطاع الله عز وجل . وبه يعبد الله عز وجل . وبه توصل الأرحام . وبه يعرف الحلال من الحرام . أمام العمل والعمل تابعه . يُلهمه السعداء . ويحرمه الأشقياء .

عن موسى بن يسار قال : بلغنا أن سلمان الفارسى كتب إلى أبى الدرداء أن العلم كالينابيع يغشى الناس فيختلجه هذا وهذا فينفع الله به غير واحد وأن حكمة لايتكلم بها كجسد لاروح فيه ، وإن علماً لايخرج ككنز لاينفق، وإنما مثل المعلم كمثل رجل عمل سراجا فى طريق مظلم يستضىء به من مر به وكل يدعو إلى الخير .

قال كعب : عليكم بالعلم قبل أن يذهب فان ذهاب العلم موت أهله . موت العالم نجم طمس ؛ موت العالم كسر لايجبر ، وثلمة لا تسد ، بأبى وأمى العلماء ، قال احسبه قال ، قبلتى إذا لقيتهم ، وضالتى إذا لم ألقهم ، لاخير فى الناس إلا بهم .

وعن الحسن فى قول الله عز وجل (رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيا حسنَةً وفِى الآخرةِ حسنَةً) قال الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة ، والجنة فى الاخرة

قال محمد بن الحسين : فالعلماء فى كل حال لهم فضل عظيم . فى خروجهم لطلب العلم ، وفى مجالستهم لهم فيه فضل ، وفى مذاكرة بعضهم لبعض لهم فيه فضل ، وفيمن تعلموا منه العلم لهم فيه فضل ، وفيمن علموه العلم لهم فيه فضل ، فقد جمع الله للعلماء الخير من جهات كثيرة ، نفعنا الله وإياهم بالعلم

أوصاف العلماء الذين نفعهم الله بالعلم في الدنيا والآخرة

ذكر صفته فى طلب العلم :

فمن صفته لارادته فى طلب العلم ، أن يعلم أن الله عز وجل فرض عليه عبادته ، والعبادة لاتكون إلا بالعلم . وعلم أن العلم فريضة عليه . وعلم أن المؤمن لا يحسن به الجهل . فطلب العلم لينفى عن نفسه الجهل . وليعبد الله عز وجل كما أمره ليس كما تهوى نفسه . فكان هذا مراده فى السعى فى طلب العلم . معتقدا للإخلاص فى سعيه ، لا يرى لنفسه الفضل فى سعيه . بل يرى الله عز وجل الفضل عليه إذ وفقه لطلب علم ما يعبده به من أداء فرائضه واجتناب محارمه .

ذكر صفته فى مشيه الى العلماء :

قال بعد ذكر صفات فاضلة : فإن بلى بمصاحبة الناس فى طريقه لم يصاحب إلا من يعود عليه نفعه ، قد أقام الأصحاب مقام ثلاثة : إما رجل يتعلم منه خيرا إن كان أعلم منه . أو رجل هو مثله فى العلم فيذاكره العلم لئلا ينسى مالا ينبغى أن ينساه ، أو رجل هو أعلم منه فيعلمه يريد الله عز وجل بتعليمه إياه . لا يمل من أصحابه لكثرة صحبه بل يحب ذلك لما يعود عليه من بركته .

صفة مجالسته للعلماء :

فإذا أحب مجالسة العلماء ، جالسهم بأدب وتواضع فى نفسه وخفض

صوته عند صوتهم . وسألهم بخضوع ؛ ويكون أكثر سؤاله عن علم ما تعبده الله به ، ويخبرهم أنه فقير إلى علم ما يسأل عنه . فإذا استفاد منهم علماً أعلمهم أني قد أفدت خيراً كثيراً ثم شكرهم على ذلك . وإن غضبوا عليه لم يغضب عليهم ، ونظر إلى السبب الذى من أجله غضبوا عليه فرجع عنه واعتذر إليهم . لا يضجرهم فى السؤال . رفيق فى جميع أموره لا يناظرهم مناظرة من يريهم أنى أعلم منكم . وإنما همته البحث لطلب الفائدة منهم مع حسن التلطف لهم . لا يجادل العلماء ، ولا يمارى السفهاء يحسن التأتى للعلماء مع توقيره لهم حتى يتعلم ما يزداد به عند الله فهما فى دينه .

صفته اذا عرف بالعلم :

فإذا نشر الله له الذكر عند المؤمنين أنه من أهل العلم ، واحتاج الناس إلى ما عنده من العلم ألزم نفسه التواضع للعالم وغير العالم ، فأما تواضعه لمن هو مثله فى العلم فإنما محبة تثبت له فى قلوبهم وأحبوا قربه ، وإذا غاب عنهم حنت إليه قلوبهم . وأما تواضعه للعلماء فواجب عليه إذ أراد العلم ذلك وأما تواضعه لمن هو دونه فى العلم فشرف له عند الله وعند أولى الألباب .

ومن صفته فى علمه . صدقه وحسن إرادته ، أن يريد الله بعلمه ؛ ومن صفته أنه لا يطلب بعلمه شرف منزلة عند الملوك ، ولا يحمله إليهم . صائن للعلم إلا عن أهله ، لا يأخذ على العلم ثمناً . ولا يستقضى به الحوائج ولا يقرب أبناء الدنيا ويباعد الفقراء ، وأن يتجافى عن أبناء الدنيا ويتواضع للفقراء والصالحين ليفيدهم العلم . وإن كان له مجلس قد عرف

بالعلم ألزم نفسه حسن المداراة لمن جالسه . والرفق بمن ساءله . واستعمال الأخلاق الجميلة ، ويتجافى عن الأخلاق الدنيئة .

المناظرة

لا يرى أبو بكر « المناظرة » إلا على جهة الاضطرار إليها ، كما إذا احتيج فى وقت من الأوقات إلى مناظرة أحد من أهل الزيغ ليدفع بحقه باطل من خالف الحق وخرج عن جماعة المسلمين فتكون غلبته لأهل الزيغ عائدة بالبركة على المسلمين .

أما ما يصنع العالم فى علم قد أشكل عليه ، وأراد أن يستنبط الحق فيه ، فعليه أن يقصد إلى عالم يرتضى عقله وفهمه وعلمه ممن يعلم أنه يريد بعلمه الله ، فيذاكره مذاكرة من يطلب الفائدة ، ويخبره أنه يطلب الحق لا الغلب ، وأن يظهر الحق ، وينكشف على لسان أحدهما حباً يستوى فيـه أن يكون ظهوره على لسانه أو لسان مذاكره ، من غير أن يكون للشيطان فيما نحن فيه نصيب .

وما عدا هذا فمنعه الشيخ ، وحذر من هوى النفس أن يدخل عليها بحجة طلب الحق فتقع فى المراء المنهى عنه ، وروى عن النبى ﷺ قوله : « من ترك المراء وهو صادق بنى الله له بيتاً فى وسط الجنة » وقوله عليه السلام « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » .

ذكر اخلاق العالم ومعاشرته للخلق :

أن يأمن شره من خالطه ، ويأمل خيره من صاحبه ، لا يؤاخذ

بالعثرات ، ولا يشيع الذنوب عن غيره ، ولا يقطع بالبلاغات ، ولا يفشى سر من عاداه ، ولا ينتصر منه بغير حق ، ويعفو ويصفح عنه ، ذليل للحق ، عزيز على الباطل ، كاظم للغيظ عمن آذاه ، شديد البغض لمن عصى مولاه ، يجيب السفيه بالصمت عنه والعالم بالقبول منه ، لامداهن ، ولامشاحن ، ولا مختال ، ولا حسود ، ولا حقود ولاسفيه ، ولا جاف ، ولا فظ ، ولا غليظ ، ولا طعان ، ولا لعان ، ولا مغتاب ، ولا سباب ، يخالط من الاخوان من عاونه على طاعة ربه ونهاه عما يكره مولاه ، ويخالق بالجميل من لايأمن شره إبقاء على دينه ، سليم القلب للعباد من الغل والحسد ، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين فى كل ما أمكن فيه العذر ، لايحب زوال النعم عن أحد من العباد ، يداوى جهل من عامله برفقه ، إذا تعجب من جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل ، لايتوقع له بائقة ، ولا يخاف منه غائلة ، الناس منه فى راحة ونفسه منه فى جهد .

ذكر اخلاق وأوصافه فيما بينه وبين ربه عز وجل :

قال محمد بن الحسين : جميع ما تقدم ذكرنا له مما ينبغى للعالم أن يستعمل من الأخلاق الشريفة ، كلها تجرى له بتوفيق من مولاه الكريم ، ومن جرى له التوفيق بما ذكرنا كان استعماله للأخلاق الشريفة فيما بينه وبين ربه عز وجل أعظم شأناً مما ذكرت لأن مولاه الكريم قد أوصلها إلى قلبه ليتمتع بها تشريفاً له بما خصه من علمه ، إذ جعله وارث علم الأنبياء ، وقرة عين الأولياء ، وطبيباً لقلوب أهل الجفاء .

فمن صفته أن يكون لله شاكراً ، وله ذاكراً ، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور ، منعم القلب بمناجاة الرحمن ، يعد نفسه مع شدة اجتهاده خاطئاً مذنباً ، ومع الدءوب على حسن العمل مقصراً ، لجأ إلى الله عز وجل فقوى ظهره ، ووثق بالله فلم يخف غيره ، مستغن بالله عن كل شيء ، ومفتقر إلى الله في كل شيء ، أنسه بالله وحده ، ووحشته ممن يشغله عن ربه ، إن ازداد علماً خاف توكيد الحجة ، مشفق على ما مضى من صالح عمله أن لايقبل منه ، همه فى تلاوة كلام الله الفهم عن مولاه ، وفى سنن الرسول صلى الله عليه وسلم الفقه لئلا يضيع ما أمر به ، متأدب بالقرآن والسنة ، لاينافس أهل الدنيا في عزها ، ولا يجزع من ذلها ، يمشى على الأرض هونا بالسكينة والوقار ، وقلبه مشتغل بالفهم والاعتبار ، إن فرغ قلبه عن ذكر الله فمصيبة عنده عظيمة ، وإن أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم فخسران عنده مبين ، ويذكر الله مع الذاكرين ، ويعتبر بلسان الغافلين ، عالم بداء نفسه ومتهم لها في كل حال ، اتّسع فى العلوم فتراكمت على قلبه الفهوم فاستحى من الحى القيوم ، وشغله بالله فى جميع سعيه متصل وعن غيره منفصل .

فإن قال قائل : فهل لهذا النعت الذى نعت به العلماء ووصفهم به أصل في القرآن أو السنة أو أثر عمن تقدم ؟ قيل له نعم ، وسنذكر منه ما يدل على ما قلنا إن شاء الله .

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ

يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ويقولُونَ سُبْحانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً)

أفلا ترى — رحمك الله — كيف وصف العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتذلل فيما بينه وبينهم .

عن مسعر قال : سمعت عبد الأعلى التيمى يقول : من أوتي من العلم مالا يبكيه فخليق أن لا يكون أوتى علماً ينفعه لأن الله عز وجل نعت العلماء وقرأ (إِنَّ الذينَ أوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ — إلى قوله — يبْكُونَ وَيَزِيدُهُم خُشُوعاً)

عن مطر الوراق في قول الله تعالى : (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) قال فيها : إن الحكمة خشية الله والعلم به .

وعن مسروق : « بحسب امرىء من العلم أن يخشى الله وبحسب امرىء من الجهل أن يعجب بعلمه .

وقال حماد بن زيد سمعت أيوب يقول « ينبغى للعالم أن يضع الرماد على رأسه تواضعاً لله عز وجل » .

وقال ابن عيينة « إذا كان نهارى نهار سفيه وليلى ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذى كتبتُ » .

وقال الفضيل « العلماء كثير ، والحكماء قليل ، وإنما يراد من العلم الحكمة فمن أوتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً »

وقال حبيب بن عبيد « تعلموا العلم واعقلوه وانتفعوا به ، ولا تعلموه

لتجملوا به ، إنه يوشك إذا طال بك العمر أن تتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه » .

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه من لم يقنّط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله ، ولم يؤمنهم مكر الله ، ولم يترك القرآن إلى غيره ، ولا خير فى عبادة ليس فيها تفقه ولا خير فى تفقه ليس فيه تفهم ولا خير فى قراءة ليس فيها تدبر » .

سؤال أهل العلم عن العمل به

عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تَزولُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصالٍ ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ، وَعَنْ مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ ، عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فيهِ »

اخلاق العالم الجاهل المفتتن بعلمه

قال محمد بن الحسين : قد تقدمت الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن صحابته رضى الله عنهم وعن أئمة المسلمين رحمهم الله بصفة علماء فى الظاهر لم ينفعهم الله بالعلم ، ممن طلبه للفخر والرياء والجدال والمراء وتأكل به الأغنياء ، وجالس به الملوك وأبناء الملوك لينال به الدنيا فهو ينسب نفسه إلى أنه من العلماء ، وأخلاقه أخلاق أهل الجهل والجفاء ، فتنة لكل مفتون ، لسانه لسان العلماء ، وعمله عمل السفهاء . فان قال قائل :

فاذكر الأخبار في ذلك لنحذر ما حذرتنا ، قيل نعم إن شاء الله .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَعلَّمَ عِلماً لِغيْرِ اللهِ أَوْ أَرادَ بهِ غيرَ اللهِ فَلْيَتبوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لَا تَتَعلَّمُوا العِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلَا لِتَجْتَرُّوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فعَلَ ذلِكَ فالنارَ النَّارَ » .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَشَدَّ الناسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ »

عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يكون في آخرِ الزَّمانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ وَعُلَمَاءُ فُسَّاقٌ » .

قال سفيان الثوري : يقال : تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل ، وفتنة العالم الفاجر ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

عن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : قال الله عز وجل فيما يعاتب به أحبار بني إسرائيل : « تَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ وَتَعْلَمُونَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ وَتَبْتَاعُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ ، تَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ وَتُخْفُونَ أَنْفُسَ الذِّئَابِ وتَتَّقُونَ الْقَذَا مِنْ شَرَابِكُمْ وَتَبْتَلِعُونَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ مِنَ الْحَرَامِ ، وَتُثَقِّلُونَ الدِّينَ على النَّاسِ أمثالَ الجبالِ ، تُطِيلُونَ الصَّلَاةَ وَتُبَيِّضُونَ الثِّيَابَ تَنْتَقِصُونَ مَالَ الْيَتِيمِ وَالأَرْمَلَةِ ، فَبِعِزَّتِي حَلَفْتُ لأَضْرِبَنَّكُمْ بِفِتْنَةٍ يَضِلُّ فِيهَا رَأْيُ ذِي الرَّأْيِ وَحِكْمَةُ الْحَكِيمِ » .

أخبرنا الفضل بن زياد قال : سمعت الفضيل يقول : إنما هما عالمان عالم دنيا وعالم آخرة ، فعالم الدنيا علمه منشور ، وعالم الآخرة علمه مستور فاتبعوا عالم الآخرة ، واحذروا عالم الدنيا لا يصدنكم بشكره ثم تلا هذه الآية : « إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ، الأحبار والرهبان العباد ، ثم قال : لكثير من علمائكم زيه أشبه بزى كسرى وقيصر منه بمحمد صلى الله عليه وسلم ، إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه.

قال عبد الله بن مسعود : لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا من دنياهم فهانوا على أهلها . سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ هُمُومُ أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ » .

عن عيسى بن سنان قال : سمعت وهب بن منبه يقول لعطاء الخراساني كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم فكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة فى علمهم ، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة فى دنياهم فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم ، فإياك وأبواب السلاطين فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك الإبل ، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله » .

عن هشام صاحب الدستوائي قال : قرأت في كتاب : بلغني أن من كلام عيسى بن مريم عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه واحتقر منزلته وقد علم أن ذلك من علم الله وقدرته ، وكيف يكون من أهل العلم من اتهم الله فيما قضاه وليس يرضى شيئاً أصابه ، وكيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه ، وكيف يكون من أهل العلم من دنياه آثر عنده من آخرته وهو في دنياه أفضل رغبة ، وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليحدث به ولا يطلبه ليعمل به .

قال الفضيل بن عياض : إن الله عز وجل يحب العالم المتواضع ويبغض العالم الجبار ، ومن تواضع لله ورثه الله الحكمة .

النهي عن الأغلوطات وتطويح السؤال :

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَعْظَمَ المُسْلِمِينَ فِي المُسْلِمِينَ جُرْمًا رَجُلٌ سَأَلَ عَلى أَمْرٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ » .

عن وارد مولى المغيرة بن شعبة عن مولاه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال وكثرة السؤال .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سَيَكُونُ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَتَغَلَّطُونَ فُقَهَاءَهُمْ بِعُضَلِ المَسَائِلِ ، أُولَئِكَ شِرَارُ أُمَّتِي » .

عن معاوية بن أبى سفيان : أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الأغلوطات ، قال عيسى والأغلوطات مالا يُحتاج إليه من كيف وكيف .

العالم لا يعلم ، يقول لا أعلم

وأما الحجة للعالم يُسأل عن الشيء لا يعلمه ، فلا يستنكف أن يقول لا أعلم إذا كان لا يعلم ، وهذا طريق أئمة المسلمين من الصحابة ومن بعدهم اتبعوا فى ذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان إذا سئل عن الشيء مما لم يتقدم له فيه علم الوحى من الله عز وجل يقول لاأدرى ، وهكذا يجب على كل من سئل عن شيء لم يتقدم فيه علم أن يقول الله أعلم به ولا علم لى به ، ولا يتكلف مالا يعلمه فهو أعذر له عند الله وعند ذوى الألباب .

عن ابن عمر قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أى البقاع خير ؟ قال : لا أدرى أو سكت ، قال : فأى البقاع شر ؟ قال : لا أدرى أو سكت ، فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فقال : لا أدرى ، فقال : سل ربك ، قال ما أسأله عن شيء ، وانتفض انتفاضة كاد يصعق منها محمد صلى الله عليه وسلم ، قال فلما صعد جبريل عليه السلام قال الله تعالى : سألك محمد عن أى البقاع خير قلت لاأدرى ، وسألك عن أى البقاع شر قلت لاأدرى ، قال : فخبره أن خير البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق .

عن زاذان أبى ميسرة قال : خرج علينا على بن أبى طالب رضى الله عنه يوماً وهو يمسح بطنه ويقول : يابردها على الكبد سئلت عما لا أعلم فقلت لا أعلم والله أعلم .

عن مسروق قال : قال عبد الله : أيها الناس من علم منكم علما فليقل به، ومن لم يعلم فيقول لا أعلم والله أعلم ، فإن من علم المرء أن يقول لما لا يعلم الله أعلم وقد قال الله تعالى : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » .

* * *

أخبرنا أبو بكر أخبرنا الفريابي أخبرنا قتيبة بن سعيد أخبرنا الليث ابن سعد عن سعيد بن أبي سعيد عن أخيه عباد بن أبي سعيد سمع أبا هريرة يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللَّهُمْ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ الأَرْبَع ؛ مِنْ عِلْمٍ لايَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْس لاتَشْبَع وَمِنْ دُعَاءٍ لايُسْمَعُ » .

أخبرنا أبو بكر أخبرنا أبو بكر بن أبي داود أخبرنا أحمد بن صالح المصرى أخبرنا عبد الله بن وهب أخبرنى أسامة بن زيد أن محمد بن المنكدر حدثه أنه سمع جابر بن عبد الله الأنصارى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «اللهم إنى أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع » . قال جابر فأسرعت إلى أهلى فقلت لهم إنى قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهؤلاء الكلمات فادع وابهن .

من أخلاق العلماء

تكارمهم :

نبدأ الباب بصفحة من نور يملها أدب علماء الصحابة فيا بينهم يتداولون الكرامة ويتبادلون الإجلال وهم من هم فى عزة الحق والتروى من هطل الوحى على منهل العلم الأكمل .

١ ــ كان عبد الله بن مسعود ــ وهو الذى شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بأنه « غلام معلم » كان يقول : لو سلك الناس وادياً وشعباً ، وسلك عمر وادياً وشعباً ، لسلكت وادى عمر وشعبه .

٢ ــ وقال : لو أن علم عمر وضع فى كفة الميزان ، ووضع علم أهل الأرض فى كفة ، لرجع علم عمر .

٣ ــ قال ابن سيرين : كان الصحابة يرون أن أعلمهم بالمناسك عثمان بن عفان ثم ابن عمر بعده .

٤ ــ قال سعيد بن المسيب : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن أى سيدنا علىّ .

٥ ــ قال عقبة بن عمرو : ما أرى أحداً أعلم بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عبد الله بن مسعود ، فقال أبو موسى

الأشعرى : إن تقل ذلك فانه كان يسمع حين لانسمع ، ويدخل حين لا ندخل(١) .

٦ – قال أبو موسى الأشعرى : لمجلس كنت أجالسه عبد الله (ابن مسعود) أوثق فى نفسى من عمل سنة .

٧ – قال ابن حَوْشب : كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له .

٨ – قال ابن عباس وهو قائم على قبر زيد بن ثابت : هكذا يذهب العلم ٥

٩ – قال ابن مسعود : لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عشَرَه منا رجل .

١٠ – كان عمر بن الخطاب يقول لابن عباس : قد طرأت علينا عُضل أقضية أنت لها ولأمثالها .

١١ – قال الأعمش : كان ابن عباس إذا رأيته قلت أجمل الناس ، فإذا تكلم قلت أفصح الناس ، فإذا حدث قلت أعلم الناس .

١٢ – لما مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية : مات ربَّانى هذه الأمة .

١٣ – ومما حدث به على عن أصحاب رسول الله ﷺ قال : أبو موسى صبغ فى العلم صبغة .

---

(١) ابن مسعود سادس ستة فى الاسلام ، كان وصف فى الصحابة « بصاحب السواد والسواك » والسواد المسارة والسواك السير الضعيف ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل أذنه عليه (أن يسمع سواده ويرفع الحجاب) كان يلج عليه ، ويلبسه نعليه ، ويمشى معه وأمامه ، ويستره اذا اغتسل ، ويوقظه اذا نام . قال أبو موسى الاشعرى لقد قدمت أنا وأخى من اليمن وما نرى الا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبى صلى الله عليه وسلم (٣٥٧ – ٣٥٨ جـ ٣ أسد الغابة) .

١٤ـ وقال كرم الله وجهه : سلمان (الفارسى) علم العلم الأول والآخر ، بحر لا ينزح ، منا أهل البيت .

١٥ـ لما قدم العز بن عبد السلام إلى الديار المصرية بالغ الشيخ زكىّ الدين المنذرى (محدث مصر وصاحب كتاب الترغيب والترهيب) فى الأدب معه وامتنع من الافتاء لأجله وقال : كنا نفتى قبل حضوره وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه .

(ص ١٢٧ ج ١ حسن المحاضرة)

١٦ـ وفى ص ٢٦٨ ج ١ ابن خلكان(١) أن سهل بن عبد الله التسترى جاء لأبى داود المحدث فقيل له يا أبا داود : هذا سهل بن عبد الله قد أتاك زائراً ، فرحب به وأجله ، فقال سهل يا أبا داود ، لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قال حتى تقول قضيتها مع الإمكان ، قال قد قضيتها مع الإمكان . قال : أخرج لسانك الذى حدّثت به عن رسول الله ﷺ حتى أقبّله . قال فأخرج لسانه فقبّله .

١٧ـ وفى « ص ٣٤٦ منه » أن سفيان الثورى بلغه مقـدم الأوزاعى (عالم أهل الشام) فخرج حتى لقيه بذى طوى (موضع قرب مكة) فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه على رقبته ، فكان إذا مر بجماعة قال : الطريق للشيخ .

١٨ـ وطلب عبد الحميد بن يحي الكاتب وكان صديقاً لابن المقفع ففاجأهما الطلب وهما فى بيت . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما

---

(١) سنرمز لهذا الكتاب بالحرف « كَ » .

عبد الحميد ؟ فقال واحد منهما أنا خوفاً من أن ينال صاحبه مكروه وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقنع فقال : ترفقوا بنا فإن كلا منا له علامات فوكلوا بنا بعضكم ويمضى البعض الآخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ، ففعلوا . وأخذ عبد الحميد .

« ٢٧٧ ك »

١٩ — عن أبي حمزة قال : قال لى إبراهيم ، والله يا أبا حمزة لقد تكلمت ، ولو أجد بدًّا ما تكلمت ، وإن زمناً أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء .

« من كتاب الاجرى ص ٧٥ »

أقول إن كلمة إبراهيم هذه الكريمة يوضحها قول عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : لما مات العبادلة عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله ابن عمرو بن العاص صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى ، فكان فقيه أهل مكة عطاء بن أبي رباح وفقيه أهل اليمن طاوس وفقيه أهل اليمامة يحيي ابن أبي كثير وفقيه أهل الكوفة إبراهيم وفقيه أهل البصرة الحسن وفقيه أهل الشام مكحول وفقيه أهل خراسان عطاء الخراسانى إلا المدينة فإن الله خصها بقرشى فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب ، غير مدافع . وقد ذكر ابن القيم أسماء عظيمة كان أصحابها يفتون بالكوفة قبل إبراهيم هذا .

« ص ٢٤ ، ٢٨ ج ١ أعلام الموقعين »

٢٠ — فى سنة أربع وخمسمائة تولى أبو بكر الشاشى فخر الإسلام رئيس الشافعية فى زمن المستظهر بالله التدريس بالمدرسة النظامية فى بغداد وهو هو ، وكان قد وليها قبله أبو إسحاق الشيرازى ، وأبو نصر ابن الصباغ صاحب الشامل ، وأبو سعيد المتولى صاحب تتمة الإبانة ،

وأبو حامد الغزالى ، فلما انقرضوا تولاها هو . فحكى أنه يوم ذكر الدرس وضع منديله على عينيه وبكى كثيراً وهو جالس على السدة التى جرت عادة المدرسين بالجلوس عليها وأنشد :

خلت الديار فسدتُ غير مسوّد * ومن البلاء تفردى بالسؤدد

وجعل يردد هذا البيت ويبكى . وهـذا إنصاف منه واعتراف لمن تقدمه بالفضل والرجحان عليه .

« ص ٥٨٨ ك »

٢١ — دخل الفراء على سعيد بن سالم فقال سعيد لآله : قد جاءكم سيد أهل اللغة وسيد أهل العربية ، فقال الفراء : أما ما دام الأخفش (اللغوى) يعيش فلا .

« ص ٢٦١ ك »

٢٢ — وسئل الحسن البصرى عن عمرو بن عبيد ، فقال للسائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشىء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شىء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ولا باطناً أشبه بظاهر منه .

٢٣ — قال أبو زيد الأنصارى : وقد ذكر عنده شعبة (الأزدى محدث البصرة) وهل العلماء إلا شعبة من شعبة .

« تذكرة الحفاظ للذهبى »

٢٤ — وقال أبو جعفر : سمعت الشيخ أبا إسحاق الشيرازى يقول لإمام الحرمين : يا مفيد أهل المشرق والمغرب أنت اليوم إمام الأئمة اهـ .

٢٥ — وتوجه أبو إسحاق هذا إلى خراسان فى رسالة الخليفة فلم يدخل بلدة ولا قرية إلا وجد خطيبها وقاضيها تلميذه ومن جملة أصحابه ،

وكان بها إذ ذاك إمام الحرمين وهو من هو ، فلما هم الشيخ يعود ، كان من تكارمهم أن أمسك الإمام له بركاب الدابة .

٢٦ — وتغير خاطر السيوطى على القسطلانى وقال : إنه ينقل عن كتبه ولا ينسب إليهـا ، فمشى القسطلانى من القاهرة إلى الروضة وكان السيوطى بها منعزلا عن الناس . فدق عليه الباب قال من أنت ؟ قال : أنا القسطلانى جئت إليك حافياً مكشوف الرأس ليطيب خاطرك على ، قال قد طاب خاطرى عليك .

« النور السافر ص ١١٥ »

٢٧ — عن سعيد بن المسيب قال : مررت بعبد الله بن عمر فسلمت عليه ومضيت ، فالتفت إلى أصحابه فقال : لو رأى رسول الله ﷺ هذا لسرّه .

٢٨ — وكان سعيد هذا صهر أبى هريرة ، زوجه أبو هريرة ابنته ، وكان إذا رآه قال : أسأل الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة . ولهذا أكثر من الرواية عنه .

« ص ٢٥ ج ١ اعلام الموقعين »

٢٩ — وقيل للحسن البصرى : إن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير ، فقال : اللهم ائت على فاسق ثقيف ، والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا فى قتله لكبهم الله عز وجل فى النار .

٣٠ — قال الشافعى : الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة .

« تذكرة الحفاظ »

٣١ — قال عبد الله بن سنان : قدم ابن المبارك مكة وأنا بها ، فلما خرج شيعة سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وودعاه ، فقال أحدهما هذا فقيه أهل المشرق فقال الآخر وفقيه أهل المغرب .

« ص ٢٥٦ ج ١ تذكرة الحفاظ »

٣٢ ـ قال يحيى الأندلسى : كنا فى مجلس مالك فاستؤذن لابن المبارك ، فأذن له ، فرأينا مالكا تزحزح له فى مجلسه ثم أقعده بلصقه ، ولم أره يتزحزح لأحد فى مجلسه غيره .

« الفرائد البهية ص ١٠٤ »

٣٣ ـ كان أحمد بن حنبل من أصحاب الإمام الشافعى وخواصه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر وقال فى حقه (خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل) .

« ص ٢٠ ك »

٣٤ ـ قال أحمد بن حنبل : ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعى وأستغفر له .

٣٥ ـ قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبى أى رجل كان الشافعى ؟ فإنى سمعتك تكثر من الدعاء له . فقال يا بنى : كان الشافعى كالشمس للدنيا ، وكالعافية للبدن ، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض ؟

٣٦ ـ كان سفيان بن عيينة إذا جاء شيء من التفسير أو الفتيا ، التفت إلى الشافعى فقال : سلوا هذا الغلام .

٣٧ ـ قال أبو حسان الزيادى : ما رأيت محمد بن الحسن (صاحب أبى حنيفة) يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه للشافعى ، ولقد جاءه يوماً وقد ركب محمد بن الحسن فرجع محمد إلى منزله وخلا به يومه إلى الليل ، ولم يأذن لأحد عليه .

٣٨ ـ قال الشافعى (وكان قد دخل بغداد ومحمد بن الحسن بها وجرت بينهما مجالس ومسائل بحضرة هارون الرشيد) : ما رأيت أحداً

يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبينت الكراهة فى وجهه إلا محمد بن الحسن ، وقال : حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير .

٣٩ — قال ابن كرامة : كنا عند وكيع (الفقيه) يوماً فقال رجل : أخطأ أبو حنيفة ، فقال وكيع كيف يقدر أبو حنيفة يخطىء ومعه مثل أبى يوسف وزفر فى قياسهما ، ومثل يحيى بن أبى زائدة وحفص بن غياث وحبان ومندل فى حفظهم الحديث ، والقاسم بن معن فى معرفته باللغة العربية . وداود الطائى وفضيل بن عياض فى زهدهما وورعهما ؟ من كان هؤلاء جلساؤه لم يكد يخطىء لأنه إن أخطأ ردوه .

« تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٢٤٧ »

٤٠ — عن محمد بن الحسن يقول : مرض أبو يوسف (صاحب أبي حنيفة الأول) فى زمن أبى حنيفة مرضاً خيف عليه منه ، قال : فعاده أبو حنيفة ونحن معه فلما خرج من عنده وضع يديه على عتبة بابه وقال : إن يمت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها ، وأومأ إلى الأرض .

« ص ٢٤٦ منه »

٤١ — قال عمر بن حماد سمعت أبا يوسف يقول : ما كان فى الدنيا أحب إلى من مجلس أجلسه مع أبى حنيفة وابن أبى ليلى فإنى ما رأيت فقيهاً أفقه من أبى حنيفة ولا قاضياً خيراً من ابن أبى ليلى .

« ص ٢٤٥ منه »

٤٢ — قال جعفر بن يس : كنت عند المزنى (الشافعى) فوقف عليه رجل فسأله عن أهل العراق فقال له : ما تقول فى أبى حنيفة ؟ فقال : سيدهم قال : فأبو يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث قال : فمحمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريعاً قال : فَزُفَر ؟ قال : أحدّهم قياساً .

« ص ٢٤٦ منه »

٤٣ — ومما نذكره فى باب تلاقى العلماء بالإكرام أن العالم الشهير شيخ الشافعية أحمد بن حجر الهيتمى المكى المتوفى سنة ٩٧٣ ﻫ ألف كتاباً خاصاً فى مناقب أبى حنيفة سماه (الخيرات الحسان فى مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان) انتدب نفسه لتأليفه رداً على جاهل ينتسب للشافعية كان قد طعن فى الإمام أبى حنيفة .

٤٤ — فمنه : وقال أبو حنيفة : ما صليت صلاة منذ مات حماد (بن مسلم ، وهو شيخه) إلا استغفرت له مع والدى ، وما مددت رجلى نحو داره وإن بينى وبينه سبع سكك ، وإنى لأستغفر لمن تعلمت منه أو علمنى .

« ص ٥٩ »

٤٥ — وقال ابن المبارك ، دخل أبو حنيفة على مالك فرفعه ، ثم قال بعد خروجه : أتدرون من هذا ؟ قالوا لا ، قال : هذا النعمان ، لو قال هذه الاسطوانة من ذهب لخرجت كما قال .

« ص ٣١ »

٤٦ — وقال النضر بن شميل : كان الناس نياما عن الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة بما فتقه وبينه ولخصه .

« ص ٣٢ »

٤٧ — وقال ابن المبارك : رأيت الحسن بن عمارة آخذاً بركاب أبى حنيفة قائلا : والله ما رأيت أحداً يتكلم فى الفقه أبلغ ولا أصبر ولا أحضر جواباً منك وإنك لسيد من يتكلم فى الفقه فى وقتك غير مدافع وما يتكلمون فيك إلا حسداً .

« ص ٣٤ »

٤٨ — وقال شريك القاضى : كان أبو حنيفة طويل الصمت كثير التفكر دقيق النظر فى الفقه لطيف الاستخراج فى العلم والعمل والبحث

إن كان الطالب فقيرا أغناه ، فإذا تعلم قال له : وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام .

« ص ٣٥ »

٤٩ - وقال حماد بن يزيد : كنا نأتي عمرو بن دينار فإذا جاء أبو حنيفة أقبل عليه وتركنا نسأل أبا حنيفة ، فنسأله فيحدثنا .

« ص ٣٥ »

٥٠ - قال مسعر : كان أبو حنيفة لا يشترى لنفسه وعياله كسوة أو فاكهة أو غيرهما إلا اشترى قبل ذلك لشيوخ العلماء مثل ذلك .

« ص ٤١ »

٥١ - وترجم القاضى ابن خلكان وهو شافعى لحماد عجرد ، فلما وصل إلى ذكر أبيات ماجنة قالها هذا الشاعر فى أحد الأئمة (ذكر اسمه صاحب الأغانى) لم يرض ابن خلكان أن يصرح باسم الإمام وقال رحمه الله فى سرد الواقعة : يحكى أنه كانت بينه وبين أحد الأئمة الكبار وما يليق التصريح بذكر اسمه ...الخ . وهذا من سمو الأدب فى التأليف ورعاية حرمة العالم للعالم بمنار ينبغى أن يسترشد بنوره .

٥٢ - وقد سبق ابن حجر العسقلانى الشافعى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ فألف رسالة سماها : « الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية » فى مناقب الإمام الليث بن سعد وهو الإمام الذى لم يدون أصحابه عنه فدثر مذهبه على حين أنه كان رافع منار مصر فى عهده ، يقارع مالكا بالمدينة فى علمه ويقابل أبا حنيفة فى العراق بثرائه واستخدامه غناه للعلم وأهله .

٥٣ - فمنها : قال عمرو بن خالد : قلت لليث بلغنى أنك أخذت بركاب ابن شهاب الزهرى ؟ قال : نعم ، للعلم ، فأما لغير ذلك فلا ، والله مافعلته بأحد قط .

٥٤ ــ قال أبو صالح كاتب الليث : كنا على باب مالك بن أنس وجرى ذكر صاحبنا ، فسمع مالك كلامنا ، فأمر بادخالنا وقال من صاحبكم ؟ قلنا الليث بن سعد ، قال تشبهوننى برجل كتبت إليه فى قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا وبعنا الفضل بألف (١) .

٥٥ ــ لما احترقت دار ابن لهيعة وصله الليث بألف دينار (ابن لهيعة المحدث ولى القضاء بمصر وحج مع الليث) .

٥٦ ــ قال سعيد بن أبى مريم : ما رأيت أحداً من خلق الله أفضل من الليث ، وما كانت خصلة يتقرب بها إلى الله إلا كانت تلك الخصلة فى الليث .

٥٧ ــ وبعد أن ذكر ابن خلكان ما قيل فى إيراد الإمام الليث بن سعد وأنه يصرفه فى الصلات قال : كان يتخذ لأصحابه الفالوذج ويعمل فيه الدنانير ليحصل لمن يأكل كثيراً أكثر من صاحبه .

٥٨ ــ قال منصور بن عمار : أتيت الليث فأعطانى ألف دينار وقال : صن بها الحكمة التى آتاك الله .

« ص ٥٥٤ ك »

٥٩ ــ ويروى أن الشافعى رضى الله عنه وقف على قبر الليث وقال :

---

(١) كان الليث واسع الغنى ، كانت له قرية الفرما واقطاع الجيزة ، وايراده يصل أربعين ألف جنيه فى العام ، قال قتيبه بن سعيد : قفلنا مع الليث من الاسكندرية ومعه ثلاث سفائن ، سفينة فيها مطبخه وسفينة فيها عياله وسفينة فيها أضيافه ا هـ من ترجمتــه ومن الخطط التوفيقيــة .

لله درك يا إمام ، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم ، العلم والعمل والزهد والورع .

« ص ١٠٩ ج ١٤ الخطط التوفيقية »

٦٠ ــ أم علي « تقية » العالمة المصرية الفاضلة أبوها الثقة أبو الفرج غيث بن علي ، وولدها النحوي القارىء أبوالحسن علي بن فضل ، صحبت الحافظ المحدث أبا طاهر السلفي بثغر الإسكندرية زماناً فذكرها في بعض تعاليقه وأثنى عليها ، وعثر هو يوماً في منزله فانجرح أخمصه ، فشقت وليدة في الدار خرقة من خمارها وعصبته ، فأنشدت تقية المذكورة في الحال لنفسها تقول :

لو وجدت السبيل جدت بخدّي عوضاً عن خمار تلك الوليده
كيف لي أن أقبل اليوم رجلا سكت دهرها الطريق الحميده

وقد كتب الشيخ السلفي هذه الواقعة بخطه .

ومما يذكر لهذه الفاضلة أنها مدحت الملك المظفر بقصيدة خمرية ووصفت فيها مجالس الشراب وما يتعلق به ، فلما قرأها الملك قال : الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها ؟ فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت فيها الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ثم سيرتها إليه وهي تقول : علمي بهذا كعلمي بهذا ، تقصد براءة ساحتها مما نسبه إليها .

٦١ ــ حكى من رأى الأصمعي وقد جاء إلى حلقة أبي زيد الأنصاري فقبل رأسه بين يديه ، وقال : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة .

٦٢ ــ أقول وحدثني من رأى الشيخ عبد الرحمن الشربيني الذي

ولى مشيخة الأزهر وقد جاء إلى الشيخ الأشمونى وهو العالم المشهور فرآه مضطجعاً على جنبه فوضع الشيخ الشربينى حذاءه بعيداً ثم أقبل متخضعاً حتى جثا ولثم يد الشيخ الأشمونى . قال محدثى : وكان الأشمونى ربما قال له المرة بعد المرة (ازيك يا عبد الرحمن) فيكون الشيخ كأنما حيته الملائكة .

٦٣ – وسمعنا شيوخنا فى الأزهر يتداولون هذه القصة ويلقونها على طلبتهم فى الدروس : إن ابن مالك رحمه الله صاحب الألفية فى النحو لما وصل إلى قوله فى وصفها (فائقة ألفية ابن معطى) نام فرأى ابن معطى ، وهو صاحب ألفية أخرى سبق بها ابن مالك ، يقول له فى المنام تكملة لشطرته : (والحى قد يفضل ألف ميت) قالوا فلما صحا ابن مالك أخذ يثنى على ابن معطى ويدعو له ، وكمل قوله بما ختم به مقدمة الألفية .

وهـــو بسبق حائز تفضيلا   مستوجب ثنائى الجميـــلا
والله يقضى بهبـــات وافرة   لى وله فى درجات الآخــره

٦٤ – وحدثنى كثير من الفضلاء : أن المرحوم الشيخ حسونة النواوى كان يدرس الفقه بمدرسة الحقوق فاحتد يوماً على طالب وقذفه بشىء من أشيائه نفذ من الشباك إلى الفناء ، وكان ناظر المدرسة إذ ذاك من أجلاء العلماء الفرنسيين ، فحمل المقذوف بيده وصعد فوضعه تحت قدم الشيخ .

٦٥ – وحدثنى أستاذنا الشيخ عبد المجيد اللبان : أن الشيخ الباجورى شيخ الجامع الأزهر كان يجلس بعد المغرب فى صحن المسجد

فيقبل الطلبة والعلماء عليه يقبلون بابه ، وكان الشيخ مصطفى المبلط وهو أكبر منه ناظره فى طلب المشيخة ولم ينلها فكان إذا رآهم اندس بينهم وقبل يد الشيخ ، فانتبه الشيخ الباجورى مرة فعرفه ، فأمسك بيده وبكى ، وقال له : حتى أنت ياشيخ مصطفى ؟ لا ، لا ، فقال الشيخ مصطفى نعم ، وأنا . لقد خصك الله بفضل وجب أن نقره ، وصرت شيخنا فعلينا أن نوقرك .

٦٦ — وحدثنى : أن الشيخ الأمير والشيخ القويسنى كانت بينهما جفوة بلغت الحاكم ، وكان الشيخ الأمير عنده يوما فسأله الحاكم عنها وأخبره أن الشيخ القويسنى أنبأه بها ، وكان يقصد الوقوف على الحقيقة ليوفق بينهما ، فقال الشيخ الأمير ليس بيننا إلا الخير . وما أظن الشيخ القويسنى حدثك بشىء من هذا . وأثنى على القويسنى ومدح ، ونزل من عنده فمر بدار الشيخ القويسنى على ما كان بينهما وأنبأه بما دار ، فقال الشيخ القويسنى ، صدقت فى ظنك ، ما قلت للحاكم شيئاً ، فقال الشيخ الأمير هكذا أهل العلم ، يسوون ما بينهم فى خاصتهم ، وأما مظهرهم فيجب أن يكون قدوة فى التآلف والخير ، إمساكا على عروة الإسلام وحفظاً لكرامة العلم ، وزال بهذا ما بينهما .

٦٧ — ونختم الباب بدرة التاج فى تكارم العلماء . حكى الشعبى قال : ركب زيد بن ثابت ، فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه ، فقال لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ ، فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فقال زيد أرنى يدك ، فأخذها وقبلها وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

« غرر الخصائص الواضحة ص ٣٧ »

أقول : إن العلماء الذين استحقوا هذا الوصف قد استنوا بسنة الصحابة رضوان الله عليهم حتى قال قائلهم : العلم رحم ، فوصلوا رحمهم، وتواصوا بها ، وجعلوا العلم دم قرابتهم وطنب نسبتهم فصار الإكرام منهم لهم سجيتهم ، والدفاع منهم عنهم غريزتهم ، والتوقير فيهم لهم شنشنتهم ، وسترى فى هذا الكتاب أى فضل تقاسمه العلماء من ميراث النبوة فأوتوا به حظاً عظيما .

صبرهم على طلب العلم

٦٨ – فى صحيح البخارى من كتاب العلم « باب الاغتباط فى العلم والحكمة » وقال عمر : تفقهوا قبل أن تسودوا . وقد تعلم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى كبر سنهم .

٦٩ – فى ترجمة يحيى النحوى بكتاب إخبار العلماء ص ٢٣٤ : أنه كان ملاحا يعبر الناس فى سفينته ، وكان يحب العلم كثيراً ، فإذا عبر معه قوم من دار العلم والدرس التى كانت بجزيرة الاسكندرية يتحاورون فيما مضى لهم من النظر ويتفاوضونه ، يسمعه فتهش نفسه للعلم ، فلما قوى رأيه فى طلب العلم فكر فى نفسه وقال قد بلغت نيفاً وأربعين سنة وما ارتضت بشىء ولا عرفت غير صناعة المـــــلاحة فكيف يمكننى أن أتعرض لشىء من العلوم ؟ وفيما هو يفكر إذ رأى نملة قد حملت نواة تمرة وهى دائبة تصعد بها ، فوقعت منها فعادت وأخذتها ، ولم تزل تجاهد مراراً حتى بلغت بالمجاهدة غرضها فقال : إذا كان هذا الحيوان الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهدة والمناصبة فبالحرى أن أبلغ غرضى بالمجاهدة فخرج من وقته وباع سفينته ولزم دار العلم وبدأ يتعلم النحو

واللغة والمنطق ، فبرع فى هذه الأمور لأنه أول ما ابتدأ بها ، فنسب إليها واشتهر بها ، ووضع كتباً كثيرة ويحي هذا لقى عمرو بن العاص وأعجب عمرو به .

٧٠ — قال فى تذكرة الحفاظ : كان الشافعى من أحذق قريش بالرمى ، كان يصيب من العشرة عشرة ، وكان أولا قد برع فى ذلك وفى الشعر واللغة وأيام العرب (يقول ابن خلكان إن الأصمعى مع جلالة قدره فى هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهذليين) ثم أقبل على الفقه والحديث وجود القرآن على إسماعيل بن قسطنطين مقرىء مكة ، وكان يختم فى رمضان ستين مرة ، ثم حفظ الموطأ وعرضه على مالك اه . ويقول ابن خلكان الحميدى ، سمعت الزنجى بن خالد يقول للشافعى : أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتي ، وهو ابن خمس عشرة سنة .

٧١ — قال شعبة المحدث : من طلب الحديث أفلس ، بعت طست أمى بستة دنانير .

« تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٨٢ »

٧٢ — كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام — الذى ملأ الأرض علماً وعظمة نفس — فى أول أمره فقيراً جداً ولم يشتغل إلا على كبر .

« طبقات الشافعية ج ٥ ص ٨٢ »

٧٣ — كان ابتداء اشتغال القفال المروزى بالعلم على كبر السن بعدما أفنى شبيبته فى عمل الأقفال ، ولذلك قيل له القفال ، لأنه كان ماهراً فى عملها ويقال إنه لما شرع فى التفقه كان عمره ثلاثين سنة .

« ك ج ١ ص ٣١٦ »

وفي كتاب شذرات الذهب : أبو بكر القفال المروزى عبد الله بن

أحمد شيخ الشافعية بخراسان صار إمام الخراسانيين ، كما كان القفال الكبير الشاشي شيخ طريقة العراقيين ، لكن المروزى أكثر ذكراً في كتب الفقة ، ويذكر مطلقاً ، وإذا ذكر الكبير قيد بالشاشي ، وإنما قيل له القفال لأنه كان يعمل الأقفال في ابتداء أمره ، وبرع فى صناعتها حتى صنع قفلا بآلاته ومفتاحه وزن أربع حبات ، فلما كان ابن ثلاثين سنة أحس من نفسه ذكاء فأقبل على الفقه ، واشتغل حتى صار إماماً يقتدى به وتفقه عليه خلق من أهل خراسان ، وسمع الحديث ، وحدّث وأملى . قال الفقيه ناصر العمرى : لم يكن فى زمان أبى بكر القفال أفقه منه ولا يكون بعده مثله ، وله فى المذهب آثار ليس لغيره من أهل عصره ، وطريقته المهذبة فى مذهب الشافعى التى حملها أصحابه أحسن طريقة وأكثر تحقيقاً . رحل إليه الفقهاء من البلاد وتخرج به أئمة . توفى فى سنة ٤١٧ هـ .

« من شذرات الذهب ص ٢٠٧ ج ٣ »

٧٤ – وأبو بكر الرازى رئيس الأطباء فى أيام المكتفى ، كان فى أول أمره يضرب على العود ويغنى ؛ فلما التحى وجهه قال : كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف ، ورغب فى الطب وقد جاوز الأربعين فمهر فيه وبرع حتى صار رئيس أهل الشأن فى ذلك .

٧٥ – قال الإمام أسعد المهينى ، سمعت الغزالى يقول : قطعت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا ، فتبعتهم فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت ، فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه ، أن ترد على تعليقتى فقط ، فما هي بشيء تنتفعون به ، فقال لى : وما هى

تعليقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها . فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة قال الغزالى : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى . فلما وافيت طوس، أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي .

« طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٠٣ »

* * *

٧٦ — وروي : أنه اجتمع فى الديار المصرية محمد بن نصر ، ومحمد ابن جرير ، ومحمد بن المنذر ، فجلسوا فى بيت يكتبون الحديث ولم يكن عندهم فى ذلك اليوم شيء يقتاتونه . فاقترعوا فيما بينهم من يسعي لهم في شيء يأكلونه ليدفعوا عنهم ضرورتهم ؟ فجاءت القرعة على أحدهم فنهض إلى الصلاة ، وجعل يصلّي ويدعو الله ، وذلك وقت القيلولة ، فرأي نائب مصر وهو نائم وقت القيلولة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أنت نائم ههنا والمحمدون ليس عندهم شيء يقتاتونه ! فانتبه الأمير من منامه ، فسأل من ههنا من المحمدين؟ فذكر له هؤلاء الثلاثة ، فأرسل إليهم فى الساعة بألف دينار .

٧٧ — ويشبه هذا ما حكاه ابن كثير أيضاً فى ترجمة الحسن بن سفيان محدث خراسان قال : من غريب ما اتفق له أنه كان هو وجماعة من أصحابه بمصر في رحلتهم للحديث ، منهم محمد بن خزيمة ، ومحمد بن جرير ، ومحمد بن هارون الروياني فضاق عليهم الحال حتى مكثوا ثلاثة أيام

لا يأكلون شيئاً ، واضطرهم الحال إلى السؤال ، فأنفت نفوسهم من ذلك ، ثم ألجأتهم الضرورة إلى تعاطيه ، فاقترعوا فيما بينهم فوقعت القرعة على الحسن ابن سفيان ، فقام مختلياً فى زاوية المسجد وصلى ركعتين أطـال فيهما واستغاث بالله فوقعت لهم قصة شبيهة بسابقتها مع أحمد بن طولون ، حتي بعث لهم بالنفقة في الحال ، وجاء لزيارتهم ، واشتري ما حول مسجدهم ووقفه على الواردين .

« حسن المحاضرة »

٨٧ — وقد عقد السيوطى فى كتابه : « حسن المحاضرة » فصلا للحديث الذي رحل فيه جابر بن عبد الله إلى مصر (١) فذكر عنه : أنه بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهني الأنصاري المصرى أن عنـده حديثاً في القصاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال جابر : فخرجت إلى السوق فاشتريت بعيراً ، ثم شددت عليه رحلا ، ثم سرت إليه « من المدينة » شهراً ، فلما قدمت مصر ، سألت عنه ، حتي وقفت على بابه ، فسلّمت ، فخرج على غلام أسود ، فقال : من أنت ؟ قلت : جابر بن عبد الله ، فدخل عليه فذكر ذلك ، فقال قل له : أصاحب رسول الله ﷺ ؟ فخرج الغلام فقال ذلك ، فقلت : نعم ، فخرج إلى والتزمني والتزمته ، فقال ما جاء بك يا أخي ؟ قلت : حديث تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك ، أردت أن أسمعه منك ، قبل أن تموت أو أموت الخ . ويطول

---

(١) ورد فى صحيح البخارى من كتاب العلم « باب الخروج فى طلب العلم » ورحل جابر ابن عبد الله مسيرة شهر الى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد . ا هـ .

بنا الحديث لو ذكرنا ما تحمله علماء السلف من المشاق في طلب العلم ، وتطويفهم في الآفاق لبلغته ، حتى ذكروا عن السمعاني مثلا أن عـدة شيوخه تزيد عن أربعة آلاف شيخ ، وقبله ذكروا مثل هذا العدد لشيوخ أبي حنيفة ، ولشيوخ ابن المبارك ، وغيرهم كثيراً جداً خصوصاً المحدثين منهم ، فقد أفنوا الأعمار فى الأسفار وطلب الرواية ، ويندر أن تخلو ترجمة محدث عن الرحل والنقل وما تكبدوه ولاقوه من جمع الحديث ونقد وتتبع رجاله واستيعاب أسانيده . رحم الله الجميع .

٧٩ – قيل إن واضع جدول اللوغاريتم مكث ثلاث سنين يشتغل فيه . فلما أتمه بيضه ومزق مسوداته ، وخرج بعد الفراغ يستنشق الهواء فرحاً مسروراً ، وعاد بعد فسحته فرأي كلبه قد قفز على المكتب فكب الحبر من الدواية على المبيضة فذهب بها والكلب واقف يلهو ويلعب ، فلم يسع المؤلف إلا أن نظر إليه طويلا وقال : آه لو تعلم ما صنعت ! وعاد فبدأ العمل من جديد .

٨٠ – حدثنى أبي رحمه الله قال : أدركت الأزهر وهو يوقـد بالسرج لا تضيء إلا أن يرى الشخص الشخص ، فكان المجاورون يشترك الجمع منهم في فتيلة يطالعون عليها فتراهم وضعوها على الأرض وتراصوّا حولها وقد تمددوا على جنوبهم فلا يحيط بها إلا رءوسهم ، وكثيراً ما حدثنى رحمه الله عن أهوال ومشاق كان يلقاها طلبة العلم فى تلك الأزمان .

٨١ – وحدثنى صديقنا الشيخ محمود زناتي وهو من تلميذى المرحوم سيد بن على المرصفي العالم اللغوى المشهور قال : كان الشيخ دائم الدأب والصبر على العلم ، دخلنا عليه يوماً ، وقد سكن داراً بالية في حي قديم

فرأيناه قد جلس فى غرفة فرش حصيراً وسطها وقعد يكتب ويطالع ، ومن حوله خيط من عسل القصب مرشوش على البلاط يحيط به ، فسألناه عنه ، فقال هذا خندق من هجوم البق .

شغفهم بالعلم وأداء واجبه

٨٢ — عقد البخارى فى صحيحه من كتاب العلم « باب التناوب فى العلم » عن عمر قال : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد وهي من عوالى المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول ﷺ ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك .

٨٣ — ومنه « باب حفظ العلم » عن أبى هريرة قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ، ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثاً ، ثم يتلو « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى — إلى قوله : الرحيم » إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم ، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون .

٨٤ — ومنه : عن أبي هريرة قال : قلت يارسول الله ، إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه قال : أبسط رداءك ، فبسطته ، قال : فغرف بيديه ، ثم قال ضمه ، فضممته ، فما نسيت شيئاً بعده .

٨٥ — ومنه : « باب الحرص على الحديث » عن أبي هريرة قال :

قيل يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أوّل منك، لمـا رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه .

٨٦ — ومنه : عن أبي سعيد الخدرى قال : قالت النساء للنبي صلى صلى الله عليه وسلم : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك . فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن ، وأمرهن ، وفى رواية لابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم خرج ومعه بلال . فظن أنه لم يسمع النساء فوعظهن وأمرهنّ بالصدقة ، فكانت المرأة تلقي القرط والخاتم ، وبلال يأخـذ فى طرف ثوبه .

٨٧ — ومنه: عن عائشة رضى الله عنها : نِعْمَ النساءنساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين(١) .

٨٨ — قال زيد بن عمير : لمـا حضر معاذ بن جبل الموت ، قيل يا أبا عبد الرحمن أوصنا ، قال : أجلسونى ، إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما ، يقول ذلك ثلاث مرات . التمسوا العلم عند أربعة ، عند عويمر أبي الدرداء ، وعند سلمان الفارسى ، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند عبد الله بن سلام .

٨٩ — وقال مالك بن يخامر : لما حضرت معاذا الوفاة بكيت ، فقال :

---

(١) وبهذه المناسبة نذكر أن مسلما الفراهيدى المحدث كتب عن سبعين امراة — خلاصة تذهيب الكمال .

ما يبكيك ؟ قلت : والله ما أبكي على دنيا كنت أصيبها منك ، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك فقال : إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما ، اطلب العلم عند أربعة ، ثم ذكر هؤلاء .

(ص ١٦ حـ ١ أعلام الموقعين)

٩٠ — وعن عمرو بن ميمون الأودى أنه لقي معاذ بن جبل وصحبه وأخذ عنه ، فلما حضر الموت معاذاً أوصي عمراً أن يلحق ابن مسعود فيصحبه ويطلب العلم عنده ففعل اه — فشغف معاذ بالعلم لازمه حتي الموت ، ولم يذكر فى حشرجته إلا العلم لمّا طلبوا إليه أن يوصي ، ولم ينس تلميذه أن يلحقه بمن يراه أهلا للعلم حتى لا يضيع ، وكفكف آخر عن البكاء يطمئنه على أن العلم والإيمان مكانهما إن هو ابتغاهما وجدهما لا يفقدان بموته وإنما يذهبان بذهاب الرغبة والطلب ، وهذا مثال فى حب العلم كريم يليق بسيدنا معاذ « رديف » رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٩١ — قال المزني : قيل للشافعي كيف شهوتك للعلم ؟ قال : أسمع بالحرف مما لم أسمعه فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به مثل ما تنعمت به الآذان ، فقيل له : فكيف حرصك عليه ؟ قال حرص الجموع المنوع فى بلوغ لذته للمال ، قيل له : فكيف طلبك له ؟ قال طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره .

٩٢ — قال الربيع : سمعت الشافعي وهو مريض وذكر ما جمع من الكتب فقال : وددت لو أن الخلق تعلموه ولا ينسب إلى منه شيء .

٩٣ — وقال حرملة : سمعت الشافعي يقول : وددت أن كل علم أعلمه يعلمه الناس ، أوجر عليه ولا يحمدوني .

٩٤ — قال الربيع : لما قدم الشافعي مصر كان يجالسه أرباب الحلق عبد الله بن الحكم ونظراؤه ، وكان حسن الوجه والخلق فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان ، وكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن فيسألونه ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة ، فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار ثم ينصرف إلى منزله .

« توالي التأسيس للعسقلاني ص ٦٢ »

٩٥ — قال علي بن الحسن بن شقيق : قمت مع ابن المبارك ليلة باردة ليخرج من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث ، وذاكرته ، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذن فأذن للفجر .

« تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٠٠ »

٩٦ — وبقي ابن جرير الطبري أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة ، ووزعوا ما كتبه على أيام عمره منذ احتلم إلى أن مات فخص اليوم أربع عشرة ورقة .

٩٧ — قال ابن جرير لأصحابه : هل تنشطون إلى أخبار العالم ؟ قالوا : كم يجيء ؟ قال ثلاثين ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فقال : إنا لله ماتت الهمم ؟ فأملاه ثلاثة آلاف ورقة ، وكذلك قالوا وقال لهم في كتابة تفسيره للقرآن اه . وهما كتاباه في التاريخ والتفسير اللذان يكر الملوان ولا يبليان جدة وغزارة في العلم والفائدة والدلالة على مبلغ خدمة هذا العالم للعلم وما أنتج شغفه به لأبنائه على ممر الزمان .

« تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٢٥٢ »

٩٨ – وممن شغف بالعلم حباً وتيّمه جمع الكتب والتأليف جمال الدين بن القفطى صاحب كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » الذي جمع فيه (٤١٤) ترجمة لعلماء اليونان والعرب ، وقد خصّص السنيور (كرلو نلينو) الأستاذ بجامعتي مصر وبلرم محاضرتين له من محاضراته في علم الفلك التى ألقاها بالجامعة المصرية سنة ١٩٠٩ – ١٩١٠ وجمعت فى كتاب طبع بروما سنة ١٩١١ قال فيها بعد أن ذكر أصله وتاريخه ، إنه استوطن حلب مدة اجتمع فيها بالعلماء الواردين والمقيمين واستفاد بمحاضراتهم إلى أن ألزمه صاحبها الخدمة فى الديوان فتولاه كارها لما فيها من المقاساة وشغله عن مطالعة الكتب والتأليف ، ولذلك استعفى منها لما مات الملك الظاهر غياث الذى ولاه ، ولكن خلفه عاد فأعاده إليها بعد ثلاث سنين . فمكث ١٢ سنة بالديوان ، قال أخوه محيي الدين « ثم انقطع في داره مستريحاً من معاناة الديوان ، مجتمع الخاطر على شأنه من المطالعة والفكر وتأليف ما ألف من الكتب ، منقبضاً عن الناس ، محباً للتفرد والخلوة ، لا يكاد يظهر لمخلوق حتي قلّده الملك العزيز وزارته سنة ٦٣٣ هـ الخ .

قال السنيور كرلونلينو : كان جمال الدين بن القفطي من أشد الناس شغفا بالكتب ، وجمع ما لا يحصي منها من كل النواحي والآفاق حتي صارت قيمتها خمسين ألف دينار ، أي نحو خمسة وعشرين ألف جنيه مصرية ، وكان لا يحب من الدنيـــا سواها ، ولم يكن له دار ملكه ولا زوجة ، ولما مات أوصى بكتبه للملك الناصر صاحب حلب ، ومما يحكي فى غرامه بالكتب أنه قد اقتنى نسخة جميلة من كتاب الأنساب للسمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢ – ١١٦٧) حررت بيد المؤلف ، إلا أن

فيها نقصا ، وبعد الاطلاب المديد والافتقاد الطويل حصل على الناقص إلا على أوراق بلغه أن ڤلانسيا قد استعملها فى شغله وجعلها قوالب للقلانس فضاعت ، فتأسف غاية التأسف على هذا الضياع حتى كاد يمرض وامتنع أياما عن خدمة الأمير فى قصره فصارت عدة من الأفاضل والأعيان يزورونه تعزية له كأنه قد مات أحد أقاربه المحبوبين ، ومما يدل على اهتمامه بلم الأخبار المفيدة من أى جهة كانت وعلى وفرة ما اطلع عليه من الكتب أنه صنف كتابا سماه « نهزة الخاطر ونزهة الناظر فى أحاسن ما نقل من ظهور الكتب (والدفاتر) » فلا ريب أن فحواه كانت على منوال هذه الفائدة الواردة فى كتابه المشهور تاريخ الحكماء ، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب (الإمتاع والمؤانسة تأليف أبى حيان) بخط أهل جزيرة صقلية وهو « ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيا وتوسطه محدثا وختمه سائلا ملحفا » .

ولجمال الدين مصنفات متعددة نعرف أسماء عشرين منها إلخ .

٩٩ - وفى ص ٨٤ من كتاب أخبار العلماء لابن القفطى أن ثابت ابن قرة اجتاز يوما ماضيا إلى دار الخليفة فسمع صياحا وعويلا فقال : مات القصاب الذى كان فى هذا الدكان ؟ فقالوا : إى والله يا سيدنا البارحة فجأة فقال : ما مات خذوا بنا إليه . فعدل الناس وحملوه إلى دار القصاب ، فتقدم إلى النساء بالإمساك عن اللطم والصياح ، وأمرهن بأن يعملن مزورة ، وأومأ إلى بعض غلمانه بأن يضرب القصاب على كعبه بالعصا ، وجعل يده فى مجسه . وما زال ذلك يضرب كعبه إلى أن قال حسبك ، واستدعى قدحا وأخرج من شكة فى كمه دواء فدافه فى القدح بقليل من ماء ، وفتح فم

القصاب وسقاه إياه فأساغه ، ووقعت الصيحة والزعقة فى الدار والشارع بأن الطبيب قد أحيى الميت .. فتقدم ثابت يغلق الباب ، وفتح القصاب عينيه ، وأطعمه مزورة ، وأجلسه وقعد عنده ساعة ، فإذا بأصحاب الخليفة قد جاءوه يدعونه فخرج معهم ، والدنيا قد انقلبت ، والعامة حوله يتعادون ، إلى أن دخل دار الخلافة ، ولما مثل بين يدى الخليفة قال له : يا ثابت ما هذه المسيحية التى بلغتنا عنك ؟ قال : يا مولاى كنت أجتاز على هذا القصاب وألحظه يشرح الكبد ويطرح عليها الملح ويأكلها ، فكنت أستقذر فعله ، أولا ثم قدرت أن سكتة ستلحقه فصرت أراعيه ؛ وإذ علمت عاقبته انصرفت وركبت للسكتة دواء استصحبه معى فى كل يوم ، فلما اجتزت اليوم وسمعت الصياح ، قلت مات القصاب ؟ قالوا نعم مات فجأة البارحة . فعلمت أن السكتة قد لحقته ، فدخلت إليه ولم أجد له نبضا ، فضربت كعبه إلى أن عادت حركة نبضه ، وسقيته الدواء ففتح عينيه وأطعمته مزورة ، والليلة يأكل رغيفاً بدراج ، وفى غد يخرج من بيته اهـ . وهذا منتهي مايصل إليه الغرام بالعلم والتلذذ بأداء واجبه ، لأنه واجب تلبس نفس هذا الطبيب الحكيم الذى نضربه مثلا لحقيقة العالم ، والعالم على الحقيقة ، وفيها لا ينظر إلا لوجهها العف الكريم .

* * *

١٠٠ — وأبناء هذا العصر يذكرون المرحوم على مبارك باشا وشغفه بالعلم وحبه لأهله واشتغاله بالتأليف والترجمة وطبع الكتب ويعدونه بذلك فى السابقين ، وحدثنى غير واحد ممن شهده أنه كان يجلس فى داره للعلم والعلماء والمتعلمين جلسة أشبه بجلسة المعلم فى مدرسته ، الحضور صفوف

وهو على منصته يتداولون المسائل وكل حر فيما يقول ، قالوا ولم ينقطع عن هذه العادة سواء أيام عطله ووزارته وبابه يكون من غير بواب .

١٠١ – وأدركت المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ورأيناه في خدمة العلم وأهله والعمل على نفع الأزهر ورجاله وفتح المدارس ونشرها ، وكان شغوفا بالعلم متيما بحبه مقرباً لذوى الفطنة معظما للمبرزين من العلماء مقدراً لحقوقهم . قيل لى إن الشيخ الشنقيطى العالم اللغوى المشهور كان لا يباليه في خطابه والشيخ يلين له ويخضع ، ولما ألف الشيخ رسالته في التوحيد عرضها على الشنقيطى وامتثل لتصحيحه .

١٠٢ – والشيخ الشنقيطي هذا جبل من العلم في اللغة والحديث وأظهر الأمثال في العصر الأخير على عزة العلم وعظمة العلماء . رحل من المغرب إلى اسطنبول وأوفده السلطان عبد الحميد إلى لستكهلم واتى الملك أوسكار ، وكان معه طاه مسلم ، ومؤذن يقيم الصلاة ، ثم وفد إلى مصر فاحتل منها الذروة والسنام ، ووطأ له علمه وعزة نفسه أعلى مقام بين العلماء الأعلام .

١٠٣ – وكان المرحوم أحمد زكى باشا العالم المشهور من الصبر على طلب العلم والدأب فيه في المنزلة التي لا تدرك ، عرفته في مشيبه وداره بالجيزة قريب منى ، فرأيته يقوم ويقعد بالعلم ، ويروح ويغدو في البحث والتنقيب ، وما رأيته حتى ظننته تلميذ مدرسة في جده واشتغاله ، وكان رحمه الله أكرم من عرفت من العلماء بعلمه وبزاده ، ترده الأسئلة من الأقطار عن وقائع التاريخ وحوادث الأدب وأسماء البلاد ، فيعكف على الدرس والبحث ، وربما سافر وانتقل لمشاهدة ما يسأل عنه وبحثه حتى يجيب سائله . مررت به يوما وكنت أحتاج صورة أضعها في كتابي (رسائل سائر)

فقام من المائدة وقال عندى طلبك ولكن تدفع الثمن ، قلت : وجب . فما هو ؟ قال : تتغدى معي ، قلت : إذن يا أكثر ما نشتري منك وندفع هذا الثمن ، وقد ترك مكتبة نادرة وقفها على الطلبة ، وتسلمتها وزارة الأوقاف وهى التي تسمى بالخزانة الزكية .

١٠٤ – والمرحوم أحمد تيمور باشا كان مثلا في طاب العلم وجمع الكتب ،والعكوف على الدرس،وبحث ما غمض فى التاريخ والكشف عنه وله مكتبة لا نظير لها ،حملها أولاده بعد موته إلى دار كتب الحكومة فأفردت لها جناحاً مستقلا . وقد ترجم له أخونا الثبت الأستاذ محب الدين أفندى الخطيب ترجمة حافلة تبين عن علمه وعن شغفه بالعلم وخدمته إياه ، نشرتها مجلته الزهراء فى شهر وفاته .

١٠٥ – كانت أروقه الأزهر مكسوة الجدران بخزائن الخشب ،وعلى جدر صحنه كذلك ، فكان للمجاور أو للمجاورين والثلاثة خزانة يضع فيها أشياءه ، ورأينا كثيراً من الطلاب عكفوا فى الجامع مستغنين بخزائنهم ، وقد حوت كتبهم وثيابهم ، وفرغوا للعلم وأداء المكتوبة فلا يخرجون منه إلا يوم الخميس ظهراً يقصدون النهر والرياض ، فمنهم من يغسل ثيابه بيده ، ومنهم من ينزه في االروض نظره ، حتى إذا غربت الشمس عادوا وقد ملئوا نشاطا ونظافة . فيعكفون في الأزهر إلى نهاية الأسبوع .

وكنت ورفاقى وجمهرة الطلبة في ذلك الوقت لا نفتر عن الاشتغال بالعلم من مطلع الفجر إلى الهزيع الأول من الليل ، بعد الفجر درس ، وبعد الشمس درس ، وبعد الظهر درس ، وبعد العصر درس ، وبعد المغرب درس ، وربما بعد العشاء درس ، وفيما بين هذه الأوقات لا عمل لنا إلا المطالعة والتهيوء للدرس .

ومن يدخل الأزهر بعد صلاة العشاء يرى جموعه حاشدة كأنها زرع طلبة متلاصقين ، فنهم المذاكر وحده والمشارك غيره ، والعجب ألا يحس أحدهم صوت جاره لاشتغال كل بنفسه ، وكثيراً ماتأملت فى هذا العجيج الصاعد من أصوات هذه الجموع وأنا أسبح الله القادر على أن يميز سمعه كل صوت .

وكان باعة الشراب يمرون علينا وقد نشفت حلوقنا ، وعلى ظهورهم القرب ملأى بشراب العرقسوس أو الخرنوب فتروج سوقهم ، ومنهم بائع كان قد حضر فى صغره ، فهو يملأ كوبه للطالب ويحدثه على الشرب بقول ينسبه للإمام الشافعى : عجبت من بلدة بها داء وفيها العرقسوس ، إنى لا أزال أذكره ، وكان المجاورون يساكنون طلبة المدارس فى ذلك الزمن ، فكان الفريقان فرسان رهان فى شغفهم بالعلم واجتهادهم فى التحصيل .

وتخرج الجيل فى تلك المعاهد بخير النتيجة ، ملك العلم عليهم ألبابهم فبقيت دور ومنازل وأحياء بالقاهرة لا أعرفها إلى اليوم ولم تطأها قدمى ، وصرف أمثالى همهم للطلب فعنوا بالمطلوب ، فاستغرق قواهم واستولى على تفكيرهم ، فحظهم كان من المطعم والمسكن والكسوة حظ الحاجة والكفاف مع القصد والنظافة ، وانصرفوا عن القشور قانعين باللب ، لا يعرفون أبواب الترف والتبذل ، وسبيلهم إلى العلم لا سبيل لهم غيره ، فجهلوا فى أيامنا تصفيف الشعر ، وحك الوجه ، وحبك الثوب ، وغشيان السينما والمقهى والملهى ، وماهو لغير طلبة العلم وأبناء الدرس ، مما لو عرفه الطالب لعاقه عن المطلوب ، ويكاد يكون اليوم أقوى سبب من أسباب الرسوب ، وقد حدثنى أخونا الفاضل الشيخ محمد الحداوى نائب محكمة المنصورة

الشرعية قال: مررت على الحلاق وأنا مجاور، فأدار الموسى على جوانب شعرى ممايلى الوجه وتلك عملية كانت تعرف «بالعباسية» لا أعرفها، وإنما صنعها الحلاق من تلقاء نفسه، فضلا فى عمله، فلما جلست فى الحلقة سألت الشيخ فالتفت يجيبنى فرأى هذه الحلاقة، فما كان منه إلا أن ألقى الكراسة من يده وترك جوانبى واحتد وأخذ يقول لى: أفترانا ياولدى نفلح؟ لقد حلقنا عباسية؟ لقد التفتنا إلى الهلس وتعلقنا بأسباب الخيبة الخ الخ قال: فدهشت وقلت ياسى الشيخ ماذا جرى؟ فكأنى زدته غضباً إلى أن فسر لى السبب فرجعت إلى الحلاق وأفرغت له ما سمعته، ولم أعد إلى الدرس ثانية إلا بعد أن أدار الموسى على شعرى خطا واحدا، قال الشيخ الحداوى: ومن ذلك الدرس لم أعرف حلاقة العباسية إلى اليوم. ومثل هذا التأثر بالشيخ واستماع نصحه والنزول على رأيه، كان يملأ قلوب طلبة العلم، فالمعلم عندهم ملء السمع والبصر. الظن فيه خير، والرأى فيه حسن، وإكرامه وإكباره مستبق الطلاب، وحيلة أولى الألباب، كنا إذا انقضى الدرس تكوف الطلبة على الشيخ وانكبوا على يده يقبلونها فرداً فردا، لا ينصرف أحدهم حتى يؤدى هذا الواجب، كأنه منسك لا يتم التعلم إلا به. فإن نزلت بطالب مساءة من معلم تحملها صابراً، وشكر له عنايته به وعرف أنه إنما يصنع الجميل له، وسلواه مثل التربية الحكيم الناطق على ألسنة أهله (عصا الفقيه من الجنة). فبقيت روح العلم بهذا الأدب وهذا الشغف فى حبها تغذى الحياة بين المعلم والمتعلم، وتمدها بأسباب العناية فى العلم وأسباب الاستزادة فى التعلم، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب محبى النفع والراغبين فى إصلاح النشء والتسامى بمستوى الاجتماع.

أقول : وقد أوجد شغف العلماء بالعلم طبقة منهم ، لذتها العلم وفناؤها فى العلم وإعجابها بالعلم ، والعلم عندهم ما تعلموه ، فكانوا فى القبيلة القديمة بالأزهر كسدنة المعبد ، حظهم رعاية ما علموا ، وأن يعمل الناس به وينزلوا عليه . فكانت الأمة كلما انزلقت إلى جديد وأخذت فى بدع سمعت من هؤلاء العلماء أصوات الإنكار وأحكام التكفير ، ودوى صوتهم فى أرجاء القطر يهزه ويكاد يعصف بالجديد إبقاء على القديم واعتصاما بعروته والتمسك به ، وكان هؤلاء العلماء فيما يسميه المتطرفون « بالجمود » أشبه برمانة الميزان ، توازن على صغر حجمها ما يحمل عليه من القناطير المقنطرة ، والناس فى تفلتهم من القيود وانحدارهم إلى مهاوى الإباحة أحوج فى صلاحهم، ونفع المجتمع بهم ، إلى هؤلاء الذين يسمونهم ظلماً بالجامدين، وهم فى شرعة الانصاف وحكم العدل، هم الحافظون الممسكون بالمجتمع أن يميد ، وإنه لخير للمجتمع أن يكون به علماء يقال فيهم « جامدون»، من أن يفقد العلماء قاطبة أو يصاب بالفجرة منهم ، خل إنكارهم المدوى ،واعتراضهم العجاج ،يصل إلى آذانالمغترين المفتونين لوماً أو عتاباً ؛ فإنه واق أو واعظ ،أو لافت أو منبه ، إلى انحدارهم وتهاونهم ، فهم إن أشاحوا عنه ففى أنفسهم قارع به ومذكر ،ربما عاد بها وعصم ، فأما إذا عدم إلا « النذير العريان » وجذب الهوى وأغرى التقليد الأعمى ، فإن التردى كثير ، والمتردين هووا حيث لا مقيل لعثارهم ولا وازع منهم لهم ، ويوشك المجتمع أن يهوى وهو على شفا جرف هار والأمر لله الواحد القهار .

تضحيتهم

١٠٦ – كان ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات (صاحب جامع الأصول والنهاية فى غريب الحديث) من أكابر الرؤساء محظيّاً عند الملوك وتولّى لهم المناصب الجليلة ، فعرض له مرض كفّ يديه ورجليه فانقطع فى منزله وترك المناصب والاختلاط بالناس . وكان الرؤساء يغشونه فى منزله . فحضر إليه بعض الأطباء والتزم بعلاجه ، فلما طببه وقارب البرء وأشرف على الصحة ، دفع للطبيب شيئاً من الذهب وقال : امض لسبيلك ، فلامه أصحابه على ذلك وقالوا : هلا أبقيته إلى حصول الشفاء ؟ فقال لهم : إننى متى عرفيت طلبت للمناصب ودخلت فيها وكلفت قبولها أما مادمت على هذه الحالة فإنى لا أصلح لذلك فأصرف أوقاتى فى تكميل نفسي ومطالعة كتب العلم ، ولا أدخل معهم فيما يغضب الله ويرضيهم ، والرزق لابد منه ، فاختار رحمه الله تعالى عطلة جسمه لتحصل له بذلك الإقامة على العطلة عن المناصب ، وفى تلك المدة ألف كتاب جامع الأصول والنهاية وغيرهما من الكتب المفيدة والله أعلم .

١٠٧ – وقد ترك السيوطى جميع مناصبه ، وكانت له مشيخة مواضع متعددة بالقاهرة ، وانقطع في داره بالروضة إلى العام يكتب ويؤلف (ورأيت فى كتابه حسن المحاضرة أنه يسميها دار الإملاء) وكان السيوطي يلقب (ابن الكتب) طلب أبوه إلى أمه أن تأتيه بكتاب من المكتبة فأجاءها المخاض فيها فولدته بين الكتب فلذلك لقب ولقد صدق عليه ذلك اللقب حتى صار أبا الكتب ، فقد وصلت مصنفاته نحو ستمائة غير ما رجع عنه ومحاه .

« النود الساخر »

١٠٨ – وابن الدهان النحوى البغدادى ألّف كتباً جمّة فى اللغة والنحو منها شرح الإيضاح والتكملة ٤٣ مجلداً وغيره كثير – لما انتقل ابن الدهان إلى الموصل ترك كتبه ببغداد ، فاستولى الغرق تلك السنة على البلد ، فسيّر الشيخ من يحضرها إليه إن كانت سالمة فرجدها قد غرقت ، وكان خلف داره مدبغة فغرقت أيضاً وفاض الماء منها إلى داره فتلفت الكتب بهذا السبب زيادة على إتلاف الغرق ، وكان قد أفنى فى تحصيلها عمره ، فلما حملت إليه عل تلك الصورة أشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلح منها ما يمكن ، فبخرها باللاذن ، ولازم ذلك إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلا لاذناً ، فطلع ذلك إلى رأسه وعينه فأحدث له العمي وكفّ بصره . واشتغل أهل تلك الديار بهذه الكتب .

« ص ٢٦٢ ك »

١٠٩ – قال فى تذكرة الحفاظ : كان الشافعى مع فرط ذكائه وسيلان ذهنه يستعمل اللبان ليقوى حفظه فأعقبه رمى الدم سنه .

« ج ١ ص ٣٢٩ »

١١٠ – قال الربيع : أقام الشافعى ههنا (مصر) أربع سنين فأملى ألفاً وخمسين ورقة ، وخرّج كتاب الأم ألفي ورقة ، وكتاب السنن وأشياء كثيرة كلها في مدة أربع سنين ، وكان عليلا شديد العلّة وربما خرج الدم وهو راكب حتى يملأ سراويله وخفه ، يعنى من البواسير ص ٨٣ توالى التأسيس – وقد استفحل معه المرض حتى مات رحمه الله .

١١١ – وفي ترجمة الجاحظ أنه أصيب بالفالج وظل به ثماني سنين لم ينقطع فيها عن العلم والتأليف حتي سقطت عليه كتبه فقضت عليه .

« السندوبى »

صراحتهم

١١٢ ـ خطب عمر الناس بالجابية فقال : من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ ابن جبل ، ومن أراد المال فليأتني .

١١٣ ـ قيل لمسروق : كانت عائشة تحسن الفرائض ؟ قال والله لقد رأيت الأحبار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يسألونها عن الفرائض .

١١٤ ـ قال أبو موسى : ما أشكل علينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما .

١١٥ ـ قال عروة بن الزبير : ما جالست أحداً قط كان أعلم بقضاء ولا بحديث بالجاهليّة ولا أروى للشعر ولا أعرف بفريضة ولا طبّ من عائشة .

١١٦ ـ قيل لطاوس : أدركت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثم انقطعت إلى ابن عباس ؟ فقال : أدركت سبعين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا تدارءوا في شيء انتهوا إلى قول ابن عباس .

١١٧ ـ عن الأعمش عن إبراهيم : أنه كان لا يعدل بقول عمر وعبدالله إذا اجتمعا ، فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب إليه لأنه كان ألطف .

١١٨ ـ كان ميمون بن مهران : إذا ذكر ابن عباس وابن عمر عنده يقول : ابن عمر أورعهما ، وابن عباس أعلمهما ، وقال أيضاً : ما رأيت أفقه من ابن عمر ولا أعلم من ابن عباس .

« من أعلام الموقعين »

١١٩ ــ وفى الصحيحين من حديث عروة بن الزبير . قال : قالت عائشة يا ابن أختى بلغني أن عبد الله بن عمرو مارٌّ بنا إلى الحج فالقه فاسأله فإنه قد حمل عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم علماً كثيراً . قال فلقيته فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال عروة فكان فيما ذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعاً ، ولكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم ، ويبقى في الناس رءوس جهّال يفتونهم بغير علم فيضلون ويضلون ، قال عروة : فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك وأنكرته ، قالت أحدثك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هذا ؟ قال عروة نعم ، حتى إذا كان عام قابل ، قالت لى : إن ابن عمرو قد قدم فالقه ، ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذى ذكره لك في العلم ، قال فلقيته ، فذكره لى نحو ما حدثنى به في المرة الأولى ، قال عروة فلما أخبرتها بذلك ، قالت ما أحسبه إلا قد صدق ، أراه لم يزد فيه شيئا ولم ينقص ، وقال البخارى في بعض طرقه : فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون ، وقال : فقالت عائشة : والله لقد حفظ عبد الله .

« ٥٩ جـ ١ أعلام »

١٢٠ ــ عن مجاهد قال : بينا نحن أصحاب ابن عبّاس حلق في المسجد ، طاوس وسعيد بن جبير وعكرمة ، وابن عباس قائم يصلى ، إذ وقف علينا رجل فقال هل من مفت ؟ فقلنا سل ، فقال : إني كلما بلت تبعه الماء الدافق ، قلنا الذي يكون منه الولد ؟ قال نعم قلنا عليك الغسل ، قال فولّى الرجل وهو يرجّع ، قال : وعجل ابن عباس في صلاته ثم قال اعكرمة علىّ بالرجل ، وأقبل علينا فقال أرأيتم ما أفتيتم به هذا

الرجل عن كتاب الله ؟ قلنا لا ، قال فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا لا ، قال فعن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا لا ، قال فعمه ؟ قلنا عن رأينا ، قال فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ » قال وجاء الرجل فأقبل عليه ابن عباس فقال ، أرأيت إذا كان ذلك منك أتجد شهوة في قبلك ؟ قال لا ، قال فهل تجد خدرا في جسدك ؟ قال لا ، قال إنما هذه إبردة يجزيك منها الوضوء قال محمد بن الحسين : كيف لا يكون العلماء كذلك وقد قال النبي ﷺ « من يرد الله به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين » .

« من الاجرى ص ١٣ »

١٢١ – قال أبو حنيفة : أخطأت في خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلَّمنيها حجام ، وذلك أني أردت أن أحلق رأسى فقال لى : أعربي أنت ؟ قلت نعم وكنت قد قلت له بكم تحلق رأسي ؟ فقال النسك لا يشارط فيه إجلس ، فجلست منحرفاً عن القبلة ، فأومأ إليَّ باستقبال القبلة ، وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر ، فقال أدر شقك الأيمن من رأسك . فأدرته ، وجعل يحلق رأسى وأنا ساكت فقال لى كبر فجعلت أكبر ، حتى قمت لأذهب ، فقال أين تريد ؟ قلت رحلى ، فقال صلّ ركعتين ثم امض ، فقلت ما ينبغي أن يكون هذا من مثل هذا الحجام إلا ومعه علم ، فقلت له : من أين لك ما رأيتك أمرتنى به ؟ فقال رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا .

« ك ٤٠١ »

١٢٢ – قال حماد بن زيد : إذا خالفني شعبة تبعته ، لأنه كان لا يرضي أن يسمع الحديث عشرين مرة ، وأنا أرضى أن أسمعه مرة .

« تذكرة الحفاظ »

١٢٣ — وقال الزهري : أدركت أربعة بحور ، فذكر فيهم عبيد الله (أحد الفقهاء السبعة) وقال سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أني قد اكتفيت حتى لقيت عبيد الله فإذا كأني ليس في يدى شيء .

١٢٤ — وقال الزهرى : كنت أطلب العلم من ثلاثة : سعيد بن المسيّب وكان أفقه الناس ، وعروة بن الزبير وكان بحراً لا تكدره الدلاء ، وكنت لا تشاء أن تجد عند عبيد الله طريقة من علم لا تجدها عند غيره إلا وجدت .

« ص ١٤ ج ١ أعلام الموقعين »

١٢٥ — قال الحرانى : سمعت عيسى بن يونس المحدث يقول لم يكن في أسنانى أبصر بالنحو مني ، فدخلني منه نخوة فتركته .

« تذكرة الحفاظ ص ٢٥٧ ج ١ »

١٢٦ — قال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة : أقمت بباب مالك ثلاث سنين وسمعت نيفاً وسبعمائة حديث لفظاً .

« ص ١٦٢ الفوائد البهية »

١٢٧ — قال أحمد بن حنبل : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى .

١٢٨ — قال يحيي بن معين : كان أحمد بن حنبل ينهانى عن الشافعى ثم استقبلته يوماً والشافعى راكب بغلته وهو يمشى خلفه ، فقلت : يا أبا عبد الله تنهاني عنه وتمشي خلفه ؟ قال اسكت لو لزمت البغلة لانتفعت .

١٢٩ — قال العباس بن محمد : سمعت أحمد بن حنبل يقول : أول ما طلبت الحديث ذهبت إلى أبي يوسف القاضى ثم طلبنا بعد فكتبنا عن الناس .

« ص ٢٥٥ ج ١٤ تاريخ بغداد »

١٣٠ — قال يحيي بن معين : كان أبو يوسف القاضى يحبّ أصحاب الحديث ويميل إليهم وقد كتبت عنه أحاديث — أقول وهذه الشهادة من

يحي بن معين أفضل شهادة لأبي يوسف فان يحي هذا علم الإسلام في السنة وما كان أصرح منه في المشايخ .

١٣١ — قال القاسم بن محمد البجلى : سمعت إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة يقول ، قال أبو حنيفة يوماً : أصحابنا هؤلاء ستة وثلاثون رجلا ، منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، ومنهم ستة يصلحون للفتوى ، ومنهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار إلى أبي يوسف وزفر .

« ص ٢٤٧ ج ١٤ تاريخ بغداد »

١٣٢ — حدثنا اليزيدى قال : حدثني عمى عبد الله قال : حدثني أخي أحمد قال : سمعت جدى أبا محمد يقول : كنت ألقي الخليل بن أحمد فيقول لى ، أحب أن يجمع بيني وبين عبد الله بن المقفع ، وألقي ابن المقفع فيقول ، أحب أن يجمع بيني وبين الخليل بن أحمد ، فجمعت بينهما ، فمر لنا أحسن مجلس وأكثره علماً ، ثم افترقنا ، فلقيت الخليل فقلت له يا أبا عبد الرحمن كيف رأيت صاحبك ؟ قال ما شئت من علم وأدب إلا أنى رأيت كلامه أكثر من علمه ، ثم لقيت ابن المقفع فقلت كيف رأيت صاحبك ؟ فقال ما شئت من علم وأدب إلا أن عقلـه أكثر من علمه .

« ص ٧٦ ج ١٨ اغانى »

١٣٣ — جاء أصحاب الحديث إلى الأعمش يوماً ليسمعوا عليه ، فخرج إليهم وقال : لولا أن في منزلى من هو أبغض إلى منكم ما خرجت إليكم .

١٣٤ — خرج سفيان بن عيينة المحدث الورع يوما إلى من جاءه يسمع منه ، وهو ضجر ، فقال ، أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد ، وجالس هو أبا سعيد الخدرى ، وجالست عمرو بن

دينار وجالس هو ابن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزهرى وجالس هو أنس بن مالك ، حتى عد جماعة ثم أنا أجالسكم ؟ فقال له حدث في المجلس أتنصف يا أبا محمد ؟ قال إن شاء الله تعالى ، فقال ، والله لشقاء أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ بك أشد من شقائك بنا ، فأطرق وأنشد قول أبي نواس

خل جنبيك لرامٍ   وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير   لك من داء الكلام
إنما المسلم من ألـــجم   فاه بلجام

فتفرق الناس وهم يتحدثون برجاحة الحدث ، وكان ذلك الحدث يحيى ابن أكثم التميمي ، فقال سفيان ، هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء يعني السلاطين .

« ص ٢٦٤ ك »

وقد صدقت فراسته ، فتولى يحيى قضاء البصرة وهو ابن عشرين سنة ثم ترقي حتي ولاه المأمون قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته .

١٣٥ — حدثني الدكتور عبد الفتاح سلامة أنه كان يطلب العلم بجامعة جنيف ، وكان بالمستشفي مريض بصدره مدة رأي الطبيب الباطني أن تعمل له عملية وحوله على الجراح فلم يعملها خوفاً عليه من الموت ، فقام طبيب الباطن بإجرائها فمات الرجل بعد أربع وعشرين ساعة ، قال محدثي إن أستاذنا الطبيب الأول وكان قد أعلمنا بسير المرض وبرأيه أخبرنا في صراحة تامة أنه مخطيء وأن الرأى كان مع الطبيب الجراح .

١٣٦ — ولد أبو حنيفة بالكوفة ونشأ بها ، ولم يجد في حال ترعرعه من يرشده إلى الأخذ عمن أدركه من الصحابة فاشتغل بالبيع والشراء ،

إلى أن قيض الله له الإمام الشعبى فأيقظه إلى النظر فى العلم ومجالسة العلماء لما رأى فيه من اليقظة والنجابة ، فوقع فى قلبه قوله فترك السوق وأخذ فى العلم فنظر فى علم الكلام وبلغ فيه مبلغاً يشار إليه فيه بالأصابع ، وأعطى فيه جدلا فمضى عليه زمن به يخاصم وعنه يناضل ، حتى دخل البصرة لأن أكثر الفرق كان بها « نيفاً وعشرين فرقة » يقيم فى بعض المرات سنة أو أكثر ينازع أولئك الفرق ، لأنه كان يعد الكلام أرفع العلوم وأفضلها لكونه فى أصول الدين ، ثم ألهم أن الصحابة والتابعين لم يكونوا كذلك مع أنهم عليه أقدر وبه أعرف ، بل نهوا عنه أشد النهى ولم يخوضوا إلا فى الشرائع وأبواب الفقه وتعليم الناس ، فكره طرائق الجدل وأكد ذلك عنده أنه كان يجلس بالقرب من حماد فجاءته امرأة فسألته عن رجل يريد أن يطلق امرأته للسنة كيف يقول ؟ فلم يجد جواباً ، فأمرها أن تسأل حماداً ثم تعلمه بجوابه ففعلت فترك الكلام وجلس فى حلقة حماد ، فكان يحفظ جميع ما يقوله ويخطِّىء فيه أصحابه ، فأجلسه بحذائه فى صدر الحلقة عشر سنين ، فنازعته نفسه أن ينفرد عنه ويشتغل بحلقة لنفسه ، فليلةَ عزمه على فعل ذلك جاء لحماد نعى قريب له لاوارث له غيره ، فاحتاج للسفر لأخذ ماله ، فاستخلفه فى حلقته ، وغاب شهرين ثم قدم وقد سُئل أبو حنيفة عن ستين مسألة لم يكن سمعها منه فأجاب فيها ثم عرضها عليه فوافقه فى أربعين وخالفه فى عشرين فآلى أبو حنيفة على نفسه ألا يفارقه حتى يموت .

« ص ٢٦ - ٢٧ الخيرات الحسان »

١٣٧ - على بن حرملة التيمى عن أبى يوسف ، قال : كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل ورثُّ الحال ، فجاء أبى يوما وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه ، فقال يا بنىَّ لاتمدَّن رجلك مع أبى حنيفة فإنَّ أبا حنيفة

خبزه مشوىّ ، وأنت تحتاج إلى المعاش ، فقصّرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبى : فتفقدنى أبو حنيفة وسأل عنى . فجعلت أتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه ، قال لى ، ماشغلك عنا ؟ قلت ، الشغل بالمعاش وطاعة والدى فجلست فلما انصرف الناس دفع إلىّ صرّة وقال استمتع بهذه فنظرت فإذا فيها مائة درهم فقال لى الزم الحلقة وإذا نفدت هذه فاعلمنى ، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلىّ مائة أخرى ، ثم كان يتعاهدنى ، وما أعلمته بخلّة قط ولا أخبرته بنفاد شىء ما وكان كأنه يخبر بنفادها حتى استغنيت وتموّلت .

« ص ٢٤٤ ج ١٤ تاريخ بغداد »

١٣٨ — نظر أبو حنيفة لابن المبارك وسأله أن يحدثه عن بدء أموره فقال : كنت جالساً مع إخوانى فى البستان فأكلنا وشربنا إلى الليل ، وكنت مولعا بضرب العود والطنبور ، ونمت سحراً فرأيت فى منامى طائراً فوق رأسى على شجرة يقول (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) قلت بلى ، فانتبهت وكسرت عودى وحرقت ماكان عندى فكان هذا أول زهدى — وهذا هو عبد الله بن المبارك الذى روى أنه اجتمع جماعة من أصحابه وأخذوا يعددون خصاله فقالوا ، جمع العلم والفقه والأدب واللغة والشعر والنحو والزهد والفصاحة والورع وقيام الليل والعبادة والسداد فى الروايه وقلة الكلام فى مالا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه ، وروى له الجماعة ، وكان ثقة حجّة .

« ص ١٠٣ الفوائد البهية »

أمانتهم

١٣٩ – كان ابن عباس يقول : إذا أخطأ العالِمَ أن يقول لا أدرى فقد أصيبت مقاتله .

١٤٠ – عن يحيي بن سعيد قال : سئل ابن لعبد الله بن عبد الله بن عمر عن شىء فلم يكن عنده جواب ، فقلت إنّى لأعظم أن يكون مثلك ابن إمام هدًى يسأل عن شىء لايكون عندك منه علم ، فقال أعظم والله من ذلك عند الله وعند من عقل عن الله عز وجل أن أقول بغير علم ، أو أحدّث عن غير ثقة .

١٤١ – جاء رجل إلى مالك بن أنس يسأله عن شىء ، فقال مالك لاأدرى ، قال الرجل أفأذكر عنك أنك لا تدرى؟ قال نعم احك عنى أنّى لاأدرى .

« ص ٨٥ آجرى »

١٤٢ – سأل سائل أبا العباس ثعلب فقال لاأدرى ، فقال له أتقول لا أدرى وإليك تضرب أكباد الإبل ، وإليك الرحلة من كل بلد ؟ فقال له أبو العباس ، لو كان لأمك بعدد مالا أدرى بَعْرًا لاستغنت .

« ص ٣٦ ك »

١٤٣ – كان ابن حنبل يُسأل عن كثير من المسائل فيقول لا أدرى قال ابنه : كان يقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف العلماء ويقول سل غيرى ، فإن قيل له مَن نسأل ؟ قال سلوا العلماء ، ولا يكاد يسمي رجلا بعينه .

١٤٤ – قال أبو داود : ما أحصى ما سمعت أحمد بن حنبل ، سئل عن كثير مما فيه الاختلاف فى العلم فيقول لا أدرى ، وسمعته يقول :

ما رأيت مثل ابن عيينة في الفتوى أحسن فتيا منه كان أهون عليه أن يقول لا أدري .

« ص ٣٦ ج ١ أعلام الموقعين »

١٤٥ — وحكي أبو الحسن الدارقطني أنه حضر في مجلس إملاء أبي بكر الأنباري يوم جمعة فصحف الأنباري اسما أورده في إسناد حديث ، إمّا كان حيان فقال حبان ، أو حبان فقال حيان ، قال الدارقطني ، فأعظمت أن يحمل عن مثله في فضله وجلالته وهم ، وهبت أن أقفه على ذلك ، فلما انقضى الإملاء ، تقدمت إلى المستملي فذكرت له وهمه ، وعرفته صواب القول فيه وانصرفت ، ثم حضرت الجمعة الثانية مجلسه ، فقال أبو بكر ، عرف جماعة الحاضرين أنا صحفنا الاسم الفلاني لما أملينا حديث كذا في الجمعة الماضية ، ونبهنا ذلك الشاب على الصواب وهو كذا ، وعرف ذلك الشاب أنا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال .

« ص ٦٣٧ ك »

١٤٦ — عن ابن عساكر يقول : سمعت سعيد بن المبارك بن الدهان يقول : رأيت في النوم شخصاً أعرفه وهو ينشد شخصاً آخر كأنه حبيب له :

أيها الماطل ديني　　أملّ وتماطل ؟
علّل القلب فإني　　قانع منك بباطل

قال السمعاني ، فرأيت ابن الدهان ، وعرضت عليه الحكاية ، فقال ما أعرفها فلعل ابن الدهان (يعني نفسه) نسي ، فإن ابن عساكر من أوثق الرواة . ثم استملى ابن الدهان من السمعاني هذه الحكاية وقال : أخبرني السمعاني عن ابن عساكر عني ، فروي عن شخصين عن نفسه — ونعيما هذه أمانة العلم .

١٤٧ — منع والي الكوفة أبا حنيفة أن يفتي ، إذ رفع إليه قاضيها أنه انتقد حكما له ، ويظهر من سياق القصة أن هذا وقع في شبيبة الإمام ، فيقال إنه كان في بيته يوما وعنده زوجته وابنه حمّاد وابنته ، فقالت له ابنته : إني صائمة وقد خرج من بين أسناني دم وبصقته حتى عاد الريق أبيض لا يظهر عليه أثر الدم ، فهل أفطر إذا بلعت الآن الريق ؟ فقال لها أبو حنيفة : سلي أخاك حمّاداً فإن الأمير منعني من الفتيا اهـ .

١٤٨ — « في ص ١٢١ من أخبار العلماء بأخبار الحكماء » أن حنين ابن اسحق الطبيب الشهير اتّصَلَ خبره بالخليفة ، فأمر بإحضاره وأقطعه إقطاعاً سنيّا ، وقرر له جارٍ جيد ، وكان الخليفة يسمع علمه ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتي يشاور غيره ، وأحب امتحانه ليزيل مافي نفسه عليه ، إذ ظن أن ملك الروم ربما كان قد عمل شيئا من الحيلة ، فاستدعاه وأمر بأن يخلع عليه ، وأخرج توقيعاً له فيه إقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم ، فشكر حنين هذا الفعل ، ثم قال له بعد أشياء جرت ، أريد أن تصف لى دواء يقتل عدواً نريد قتله ، وليس يمكن إشهار هذا ونريده سراً ، فقال حنين ما تعلمت غير الأدوية النافعة ، ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها ، فإن أحب أن أمضي وأتعلّم فعلت ، فقال هذا شيء يطول ، ورغّبه وهدّده ، وهو لا يزيد على ما قال ، إلى أن أمر بحبسه فى بعض القلاع ، ووكل به من يرفع خبره إليه وقتاً بوقت ، فحبس سنة ، وكان في حبسه ينقل ويفسر ويُصَنّف ، وهو غير مكترث بما هوفيه ، فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره وإحضار أموال يرغّبه فيها ، وإحضار سيف ونطع وسائر آلات العقوبة ، ولما حضر قال هذا شيء قد طال ولابد لى مما قلته لك ، فإن أنعمت فزت بهذا المال ، وكان لك عندي أضعافه ، وإن

امتنعت عاقبتك وقتلتك ، فقال حنين قد قلت لأمير المؤمنين إنّي ما أحسن غير الشيء النافع ، ولا تعلّمت غيره ، قال الخليفة فإني أقتلك ، فقال حنين إلى رب يأخذ بحقي غداً في الموقف الأعظم ، فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه ؟ فتبسم الخليفة وقال له : ياحنين طب نفساً ، وثق بنا ، فهذا الفعل منا كان لامتحانك ، لأننا حذرنا من كيد الملوك ، فأردنا الطمأنينة إليك ، والثقة بك ، لننتفع بعلمك ، فقبّل حنين الأرض وشكر له ، فقال الخليفة له : ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق الأمر منّا في الحالين ؟ قال حنين شيئان يا أمير المؤمنين ، قال وما هما ؟ قال الدين والصناعة ، قال وكيف ؟ قال الدين يأمرنا باستعمال الخير والجميل مع أعدائنا ، فكيف ظنك بالأصدقاء ؟ والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس ، لأنها موضوعة لنفعهم ،ومقصورة على معالجتهم ، ومع هذا فقد جُعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بالأيمان مُغلّظة ألاّ يعطوا دواء قتّالا ، فلم أر أن أخالف هذين الأمرين الشريفين ، ووطّنت نفسي على القتل ، فإن الله تعالى ما كان يضيع لي بذل نفسي في طاعته ، فقال الخليفة إنهما شرعان جليلان . وأمر بالخلع فأفيضت عليه ، وحمل المال معه ، فخرج وهو أحسن الناس حالا وجاها . قال ابن القفطي عقب هذه القصة ، فانظر إلى ثمرة الدين والعلم ما أحلاهما ، وأحسن منظرهما وفخرهما ، جعلنا الله وإياك من الشاكرين بهما والثابتين عليهما اهـ .

أقول : وحنين هذا من فرقة العباد المقيمين بظاهر الحيرة ، كان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه فحرد عليه يوماً وأخرجه من داره وقال له : ما لأهل الحيرة والطب ؟ عليك ببيع الفلوس في الطريق ، فخرج حنين وقال لبعض من لقيه : أنا بريء من دين النصرانية إن رضيت أن أتعلم

الطب حتى أحكم اللسان اليوناني ودخل بلاد اليونان وكان قد أحكم العربية على الخليل بن أحمد وهو يجيد السريانية فلما رجع وظهر فضله اختاره المتوكل للترجمة وعين له الكتّاب المهرة تحت أمره وخدمه بطبه بعد أن وثق به ، فلعل ماكان في نفس الخليفة أتي من جهة تغيبه المدة الطويلة في بلاد الروم ومجيئه منها بهذه البراعة التي تستدعى أن يكون قد توغل في الخلطة وتمكن من الأسباب ، وهذا حذر لإيلام المتوكل عليه بيّن فضل الأمانة في هذا العالم يتخذ مثلا يروى ويتداول .

١٤٩ — وأفتى الشيخ العزّ بن عبد السلام مرة بشيء ثم ظهر له أنه أخطأ ، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ . وهذا الشيخ عز الدين صاحب الكرامة المشهورة في الحرب الدمياطية ، لما هجمت الأفرنج عليها فهرب من كان بها ، واستحوذوا عليها ، والملك الصالح أيوب مقيم بالمنصورة ومات ، وأخفت جاريته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه طوران شاه فملكوه وقاتل الإفرنج وكسرهم، وقتل منهم ثلاثين ألفـًا ، وكان في المعسكر الشيخ العز ، وكانت النصرة أولا للإفرنج . وقويت الريح على المسلمين ، وقال الشيخ عز الدين بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح : ياريح خذيهم عدة مرار ، فعادت الريح على مراكب الإفرنج فكسرتها وكان الفتح ، وغرق أكثر الافرنج ، وصرخ من المسلمين صارخ ، الحمد لله الذى أرانا فى أمـّة محمد رجلا سخّر له الريح .

اشفاقهم من حمل أمانة العلم

١٥٠ — عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال ، أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلا ودّ أن أخاه كفاه ولا يحدِّث حديثاً إلا ودّ أن أخاه كفاه .

١٥١ — وعن معاوية بن أبي عياش أنه كان جالساً عند عبد الله بن الزبير وعاصم بن عمر فجاءهما محمد بن إياس بن البكير فقال ، إنّ رجلا من أهل البادية طلق امرأته ثلاثاً ، فماذا تريان ؟ فقال عبد الله بن الزبير ، إن هذا الأمر مالنا فيه قول ، فاذهب إلى عبد الله بن عباس وأبي هريرة ، فإني تركتهما عند عائشة زوج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم ائتنا فأخبرنا ، فذهبت فسألتهما ، فقال ابن عباس لأبي هريرة : أفته يا أبا هريرة فقد جاءتك معضلة فقال أبوهريرة : الواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجاً غيره .

« ص ٣٠ ج ١ أعلام الموقعين »

١٥٢ — وعن سفيان قال : أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا ، ولا يفتون حتى لايجدوا بدًّا من أن يفتوا . وقال المعافى : سألت سفيان فقال ، أدركت الناس ممن أدركت من العلماء والفقهاء وهم يترادون المسائل يكرهون أن يجيبوا فيها ، فإذا أعفوا منها كان ذلك أحبّ اليهم .

١٥٣ — عن عمير بن سعيد قال ، سألت علقمة عن مسألة ، فقال ائت عبيدة فاسأله ، فأتيت عبيدة فقال ائت علقمة ، فقلت علقمة

أرسلني إليك ، فقال ائت مسروقاً فاسأله ، فأتيت مسروقاً فسألته ، فقال : ائت علقمة فاسأله ، فقلت علقمة أرسلني إلى عبيدة وعبيدة أرسلني اليك ؟ فقال انت عبد الرحمن بن أبي ليلى ، فأتيت عبد الرحمن ابن أبي ليلى فسألته فكرهه ، ثم رجعت إلى علقمة فأخبرته ، قال : كان يقال أجرأ القوم على الفتيا أدناهم علما .

١٥٤ — قال سفيان : من أحبّ أن يُسأل فليس بأهل أن يُسأل .

١٥٥ — عن خارجة بن زيد بن ثابت قال كان زيد إذا سئل عن شيء قال ، هل وقع ؟ فإن قالوا له لم يقع ، لم يخبرهم ، وإن قالوا قد وقع أخبرهم .

١٥٦ — عن مسروق قال : كنت أمشي مع أُبيّ بن كعب فقال له رجل ياعمّاه كذا وكذا ، فقال يا ابن أخي أكان هذا ؟ قال لا ، قال فاعفنا حتى يكون .

« ص ٧٦ آجرى »

١٥٧ — قال ابن قيم الجوزية : كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرعّ فى الفتوى ، ويودّ كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره ، فإذا رأى أنّها قد تعينت عليه ، بذل اجتهاده فى معرفة حكمها من الكتاب والسنّة أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتي .

« ص ٣٧ ج ١ أعلام الموقعين »

١٥٨ — عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبي بكر رضى الله عنه ، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب بما لا يعلم من عمر ، وإن أبا بكر نزلت به قضيّة فلم يجد فى كتاب الله منها أصلا ولا فى السنة أثراً فاجتهد برأيه ثم قال ، هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله .

(ص ٦١ ج ١ أعلام الموقعين)

وفى خبر آخر أنه كان يجمع الناس ويستشيرهم ويأخذ بقولهم .

١٥٩ — قال سحنون بن سعيد : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أنّ الحق كله فيه !!

وقال سحنون إنى لأحفظ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال من ثمانية أئمة من العلماء ، فكيف ينبغى أن أعجل بالجواب قبل الخبر ؟ فلم ألام على حبس الجواب ؟

« ص ٣٨ ج ١ أعلام الموقعين »

١٦٠ — وقال اسماعيل بن عبد الملك : كان سعيد بن جبير يؤمّنا فى شهر رمضان ، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود ، وليلة بقراءة زيد ابن ثابت ، وليلة بقراءة غيره هكذا أبدا ، وسأله رجل أن يكتب له تفسير القرآن ، فغضب ، وقال : لأن يسقط شقى أحبّ إلىّ من ذلك .

١٦١ — قال شعبة بن الحجاج : لأن أقع من السماء فأتقطع ، أحب إلىّ من أن أدلس .

وقال : وددت أنى وقاد حمّام ولم أعْرف بالحديث .

وقال : ما شيء أخوف عندى أن يُدخلني النار من الحديث .

« تذكرة الذهبى »

١٦٢ — وحكى بعضهم أنه كان فى حلقة شعبة فضجر من إملاء الحديث ، فرمى بطرفه فرأى أبا زيد الأنصارى اللغوى فى أخريات الناس فقال يا أبا زيد :

أستعجمت دار ميّ ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

إلى يا أبا زيد ، فجاءه ، فجعلا يتحدثان ويتناشدان الأشعار ، فقا له بعض أصحاب الحديث ، يا أبا بسطام ، نقطع إليك ظهور الإبل لنسمع منك حديث النبي صلى الله عليه وسلم فتدعنا وتقبل على الأشعار ؟ فغضب شعبة غضباً شديداً ، ثم قال ياهؤلاء أنا أعلم بالأصلح لى ، أنا والله الذى لا إله إلا هو ، فى هذا أسلم منى فى ذاك .

٣٦١ — حدث القعنبي قال دخلت على مالك بن أنس فى مرضه الذى مات فيه . فسلمت عليه ثم جلست ، فرأيته يبكى ، فقلت يا أبا عبد الله ما الذى يبكيك فقال لى ، ياابن قعنب ومالى لا أبكي ؟ وَمَنْ أحق بالبكاء منى ، والله لوددت أنى ضُربت بكل مسألة أفتيت فيها برأيي بسوط سوطٍ ، وقد كانت لى السعة فيما قد سبقت إليه ، وليتنى لم أفت بالرأى ، أو كما قال .

« ص ٥٥٦ ك »

١٦٤ — قال يحيى بن يحيى : سمعت أبا يوسف القاضى عند وفاته يقول : كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه إلا ما وافق كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٦٥ — قال أحمد بن عطيّة : سمعت محمد بن سماعة يقول : سمعت أبا يوسف فى اليوم الذى مات فيه يقول اللهم إنك تعلم أنى لم أجُر فى حكم حكمت به بين عبادك متعمداً ، ولقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ، وكل ما أشكل على جعلت أبا حنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه .

« ص ٢٥٤ ج ١٤ تاريخ بغداد »

صدقهم

١٦٦ — دخل هشام بن عروة على المنصور ، فقال له المنصور يا أبا المنذر ،أتذكر حيث دخلتُ عليك أنا وأخي مع أبي الخلائف ، وأنت تشرب سويقاً بقصبة يراع ، فلما خرجنا من عندك قال أبي استوصوا بالشيخ خيراً واعرفوا حقه ، فلا يزال في قومكم بقية ما بقي ؟ قال ، ما أثبت ذاك يا أمير المؤمنين ، فلامه بعض أهله ، وقالوا يذكّرك أمير المؤمنين ما يمتّ به إليك ،وتقول له لا أذكره ؟ فقال ، لم أذكره ، ولم يعودني الله في الصدق إلا خيراً

« ص ٦١ ج ٢ المحاسن والمساوىء للبيهقى »

١٦٧ — قال أبو يوسف : كان أبو حنيفة يحمل والدته على حماره إلى مجلس عمر بن ذرّ كراهية أن يردّ قولها ، وقال أبو حنيفة ربما ذهبت بها إلى مجلسه ، وربما أمرتنى أن أذهب إليه وأسأله عن مسألة ، فآتيه وأذكرها له ، وأقول له إن أمى أمرتنى أن أسألك عنها ، فيقول وأنت تسألني عن هذا ؟ فأقول هى أمرتنى ؟ فيقول ، قل لى كيف هو حتى أخبرك ، فأخبره بالجواب ثم يخبرني به ، فآتيها وأخبرها عنه بما قال ، ونظير ذلك أنها استفتت عن شيء فأفتيتها فلم تقبله ، وقالت لا أقبل إلا قول زراعة القاص ، أى الواعظ ، فجاء بها إليه ، وقال له إن أمى تستفتيك في كذا فقال أنت أعلم وأفقه فأفتها ، قال أفتيتها بكذا ، فقال زراعة : القول ما قال أبو حنيفة فرضيت وانصرفت .

« ص ٥٩ الخيرات الحسان »

١٨٨ — قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف يقول : سألني الأعمش

عن مسألة فأجبته فيها ، فقال لى من أين قلت هذا ؟ فقلت لحديثك الذى حدثتناه أنت . ثم ذكرت له الحديث ، فقــال لى يعقوب ، إني لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك فــا عرفت تأويله حتى الآن .

« ص ٢٤٦ ج ١٤ تاريخ بغداد »

١٦٩ – وفي تكملة ابن عابدين : أن الفضل بن الربيع وزير الخليفة الرشيد ، شهد عند أبي يوسف فردّ شهادته ، فعاتبه الخليفة ، وقال : لم رددت شهادته ؟ قال لأنى سمعته يوماً يقول للخليفة أنا عبدك ، فإن كان صادقاً فلا شهادة للعبد ، وإن كاذباً فكذلك ، لأنه إذا لم يبال فى مجلسك بالكذب فلا يبالى فى مجلسي ، فعذره الخليفة . وإنما ردّه القاضي أبو يوسف لما فى كلام هذا الوزير من إذلال نفسه وطاعته لأجل الدنيا .

« ص ١٢٩ ج ١ »

١٧٠ – وفي ترجمة العالم أبي غالب ، أن الأمير أبا الجيش وجّه إليه أيام غلبته على مرسينه ، وأبو غالب بها ، وقد ألف كتاباً فى اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً ، فوجه إليه ألف دينار على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب « مما ألفه أبو غالب لأبى الجيش مجاهد » . فردّ الدنانير ، وقال والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك لم أفعله ولا استجزت الكذب ، فإني لم أؤلفه لك خاصة ولكن للناس عامة . فاعجب بهمة هذا الرئيس وعلوها ، وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها ؟ ؟

١٧١ – كان أستاذنا العالم المرحوم محمد عاطف بركات بك ناظر مدرسة القضاء الشرعي يحافظ على الصدق ويبالغ في التمسك به ، خلت درجة في المدرسة رأي أن يطلب معها درجة أخري ليعطى كل واحدة

منهما لأستاذ من المشايخ وأستاذ من الأفندية ، حتى يجبر خاطر الجميع ، فسعى أحد الأستاذين لنيل الدرجة التى خلت قبل أن تجيء الأخرى له ، وساعده فى سعيه رئيس الحكومة وقتذاك ، فأقرّ مجلس إدارة المدرسة إعطاءها له رغم البك ، فلما صدر القرار جاء الأستاذ يشكر عاطف بك عليها ، فقال له عاطف بك كلا يا أستاذ لا تشكرنى ، لأنه لا يد لى في ذلك ، ولو كان الأمر فى يدى ما أخذت . قال لى المرحوم الشيخ إسماعيل خليل : كنت حاضر هذه الواقعة وعجبت من صراحة عاطف بك وتمسكه بأهداب الصدق لهذا الحد ، فالتفت إلى الأستاذ وقلت له إذن فاشكر الله يا فلان .

تحرزهم من الشبهة

١٧٢ — قال وهب بن منبه : إن ملكا كان يحمل الناس على أكل لحم الخنزير ، فأُتى بأفضل أهل زمانه ليأكله ، ورق له صاحب الطعام فوضع له جدياً مكانه فأبى العالم أن يأكله مع هذا . ولما أمر الملك بقتله قال له الشرطي ما منعك أن تأكل منه وهو لحم جدى ؟ قال خفت أن يفتن الناس بى ، فإن أكرهوا على أكل الخنزير قالوا قد أكله فلان فيستنون بى ، وأكون فتنة لهم . فقتل رحمه الله .

« المخـزون »

١٧٣ — لما حضرت الوفاة عبد الله بن عمر قال انظروا فلاناً ، لرجل من قريش ، فأنّى كنت قلت له فى ابنتى قولا كشبه العدة ، وما أحب أن ألقي الله بثلث النفاق وأشهدكم أنى قد زوجته .

« ص ٢٥٧ ج ١ تذكرة الحفاظ »

١٧٤ — في كتاب قضـاة مصر للكندى ، أن الوليد بن رفاعة أرسل إلى توبة بن نمر ليوليه القضاء ، فدخل عليه هو وامرأته عفيرة الأشجعية ، وكانت امرأة برْزَة ، فولاه القضاء ، فقالت له عفيرة أما والله يا توبة ما حباك ابن رفاعة بهذه الولاية ، ولو أنه وجد في قيس كلها من يسدّ مسدّك ، أو يتضلّع بهذا الأمر ، لأمّره عليك وقدمه وأخرك ، فلما ولى القضاء دعا امرأته عفيرة فقال : يا أم محمد أىّ صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب وأكرمه ، قال فاسمعى ، لا تعرضن لى في شيء من القضاء ، ولا تذكرنّى بخصم ، ولا تسألينى عن حكومة ، فإن فعلت شيئاً من هذا فأنت طالق ، فإما أن تقيمى مكرمة وإما أن تذهبى ذميمة ، فانتقلت عنه فلم تكن تأتيه إلا فى الشهر والشهرين ، وفى رواية أنه قال لها كيف علمت محبتى لك ؟ قالت جزاك الله من عشير خيراً ، قال قد علمت ما قد بلينا من أمر الناس كلهم ، فأنت طالق « فصاحت » فقال إن كلمتنى فى خصم ، أو ذكرتنى به ، قال فإن كانت لتري دواته قد احتاجت إلى الماء فلا تأمر بها أن تـمد خوفاً من أن يدخل عليه فى يمينه شيء .

« ص ٣٤٣ ولاة وقضاة مصر »

١٧٥ — نقل ، أن عاقبة بن يزيد القاضي كان يلى القضاء ببغداد للمهدى ، فجاء فى بعض الأيام وقت الظهر للمهدى وهو خال ، فاستأذن عليه ، فلما دخل استأذنه فيمن يسلم إليه القمطر الذي فيه قضايا مجالس الحكم ، واستعفاه من القضاء ، وطلب منه أن يقيله من ولايته ، فظن المهدى أن بعض الأولياء قد عارضه فى حكمه ، فقال له فى ذلك إنه إن كان عارضك أحد لننكرن عليه ، فقال القاضي : لم يكن شيء من ذلك ،

قال : فما سبب استعفائك من القضاء ؟ قال يا أمير المؤمنين كان تقدم إلى خصمان منذ شهر فى قضية مشكلة ، وكل يدعى بينة وشهوداً ، ويدلى بحجج تحتاج إلى تأمل وتثبت . فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفصل بينهما ، فسمع أحدهما أنى أحب الرطب ، فعمد فى وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب ، فجمع رطبا لا يتهيأ فى وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنين . وما رأيت أحسن منه ، ورشا بوابى بدراهم على أن يدخل الطبق علىّ ، ولا يبالى أن يُردّ عليه ، فلما أدخله علىّ أنكرت ذلك ، وطردت بوّابى ، وأمرت برد الطبق ، فردّ عليه ، فلما كان اليوم تقدم الخصمان إلى فما تساويا فى عيني ولا قلبى ، فهذا يا أمير المؤمنين ولم أقبل فكيف يكون حالى لو قبلت ، ولا آمن أن تقع على حيلة فى دينى فأهلك وقد فسد الناس ، فأقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله ، واعفني عفا الله عنك . فأقاله .

« ص ١٧٠ العقد الفريد للملك السعيد »

١٧٦ — قال الحسن بن زياد : ما قبل أبو حنيفة لأحد منهم أى الأمراء ونحوهم هدية ولا جائزة ، وأرسل لشريكه متاعا فيه ثوبٌ مَعيبٌ يبيعه ، وبيّن مافيه من العيب ، فباعه ولم يبين نسيانا ، وَجُهِلَ المشترى ، فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع ، وكان ثلاثين ألف درهم وفاصل شريكَه .

« ص ٤٣ الخيرات الحسان »

قناعتهم واستهانتهم بالدنيا

١٧٧ — مرض عبد الله بن مسعود فعاده عثمان بن عفّان فقال ، ماتشتكى ؟ قال ذنوبى ، قال فما تشتّهى ؟ قال رحمة ربى ، قال ألا آمر لك بطبيب ؟ قال الطبيب أمرضنى ، قال ألا آمر لك بعطاء؟ قال لاحاجة لى فيه ، قال يكون لبناتك ، قال أتخشى على بناتى الفقر ؟ إنى أمرت بناتى أن تقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً — وتوفى عبد الله وأوصى إلى الزبير بن العوّام . فدفع عثمان عطاء سنتين بعده ، كان قد تركه عبد الله استغناء عنه ، وأرسله إلى الزبير ، فدفعه إلى ورثته .

« ص ٣٦ ج ١ اسد الغابة »

١٧٨ — أرسل سليمان بن حبيب ، والى فارس والأهواز ، إلى الخليل ابن أحمد يستدعي حضوره وكان له راتب عليه ، فكتب الخليل إليه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنًى غير أنّى لستُ ذا مال
شحاً بنفسيَ إنى لا أرى أحداً ... يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس لا فى المال تعرفه ... ومثل ذاك الغنى ، فى النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل :

إنّ الذى شقّ فمى ضامن ... لى الرزق حتى يتوفانى
حرمتنى مالا قليلا فما ... زادك فى مالك حرمانى

فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته واعتذر الى الخليل وأضعف راتبه .

١٧٩ — وقال تلميذه النضر بن شميل : أقام الخليل فى خصّ من

أخصاص البصرة لايقدر على فلسين وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال ، ولقد سمعته يوماً يقول : إنى لأغلق علىّ بابى فما يجاوزنى همّى .

١٨٠ — وكان أبو نصر الفارابى أزهد الناس فى الدنيا ، لايحتفل بأمر مكسب ولا مسكن ، وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم ، وهو الذى اقتصر عليها لقناعته ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى .

١٨١ — وروى المسعودى فى كتاب مروج الذهب أن الواقدى قال : كان لى صديقان أحدهما هاشمىّ ، وكنّا كنفس واحدة ، فنالتنى ضائقة شديدة ، وحضر العيد فقالت امرأتي ، أما نحن فى أنفسنا فنصبر على البؤس والشدّة ، وأمّا صبياننا هؤلاء فقد قطّعوا قلبى رحمة لهم ، لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا فى عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثّة ، فلو احتلت فى شيء فصرفته فى كسوتهم ؟ قال فكتبت إلى صديقى الهاشميّ أسأله التوسعة علىّ بما حضر ، فوجه إلىّ كيساً مختوماً ذكر أنّ فيه ألف درهم ، فما استقرّ قرارى حتى كتب إلىّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبى الهاشمىّ ، فوجّهت إليه الكيس بختمه ، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتى مستحيياً من امرأتى ؛ فلما دخلت عليها استحسنتْ ما كان منى ولم تعنفنى عليه ، فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقى الهاشمىّ ومعه الكيس كهيئته ؛ فقال لى أصدقنى عمّا فعلته فيما وجهتُ به إليك ؟ فعرّفته الخبر على وجهه ، فقال لى إنك وجّهت إلىّ وما أملك على الأرض إلاّ ما بعثت به إليك ، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجّه الكيس بخاتمى ، قال الواقدى فتواسينا الألف الدرهم فيما بيننا ،

ثم إنَّا أخرجنا للمرأة مائة درهم قبل ذلك ، ونمـا الخبر إلى المـأمون ، فدعاني وسألني ، فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ، لكل واحد منا ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار .

« ص ٦٤١ ك »

١٨٢ ـ وكان عروة بن أذينة كثير القناعة ، وله فى ذلك أشعار سائرة ، وكان قد وفد من الحجاز على هشام بن عبد الملك بالشام فى جماعة من الشعراء ، فلمَّا دخلوا عليه ، عرف عروة ، فقال له ألست القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقى أنَّ الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليـــه فيعيينى تطلّبـــه ولو قعـــدت أتانى لا يعنّينى

وما أراك فعلت كما قلت ، فإنَّك أتيت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ؟ فقال . لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت فى الوعظ وأذكرت ما أنسانيه الدهر ، وخرج من فوره إلى راحلته فركبها ، وتوجّه راجعا إلى الحجاز ، فمكث هشام يومه غافلا عنه ، فلمَّا كان الليل استيقظ من منامه وذكره ، وقال هذا رجل من قريش قال حكمة ووفد إلىَّ فجبهته ورددته عن حاجته ، وهو مع هذا شاعر لا آمن لسانه ، فلما أصبح سأل عنه ، فأخبر بانصرافه ، فقال لاجرم ليعلمنّ أنّ الرزق سيأتيه ، ثم دعا بمولى له وأعطاه ألفى دينار وقال الحق بهذا عروة بن أذينة فأعطه إياها ، قال فلم أدركه إلا وقد دخل بيته ، فقرعت عليه الباب فخرج ، فأعطيته المال ، فقال أبلغ أمير المؤمنين السلام ، وقل له كيف رأيت قولى ؟ سعيت فأكديت ، ورجعت إلى بيتى فأتانى فيه الرزق .

١٨٣ ـ وذكر السمعانى فى الذيل فى ترجمة أبى إسحاق على بن أحمد ابن الحسين بن أحمد بن الحسين بن محمويه البزى ، أنه كان له عمامة وقميص

بينه وبين أخيه ، إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت ، وإذا خرج هذا احتاج ذاك أن يقعد ، قال السمعاني : وسمعته يقول يوما وقد دخلت عليه مع علي بن الحسين الغزنوي الواعظ مسلّماً داره فوجدناه عريان متأزّراً بمئزر ، فاعتذر من العرى وقال نحن اذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري :

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل

١٨٤ — كان ابن بابشاذ النحوي في ديوان الإنشاء بمصر ، لا يخرج منه كتاب إلا عرض عليه ينظره في نحوه ولغته ، وله راتب من الخزانة يتناوله كل شهر وأقام على ذاك زمانا . ويحكي أنه كان يوما في سطح جامع مصر وهو يأكل شيئا وعنده ناس ، فحضرهم قِطٌ فقدموا له لقمة فأخذها في فيه وغاب عنهم ثم عاد إليهم ، فرموا له شيئاً آخر ففعل كذلك وتردد مراراً كثيرة وهم يرمون له وهو يأخذه ويغيب ثم يعود من فوره حتى عجبوا منه وعلموا أن مثل هذا الطعام لا يأكله وحده لكثرته ، فلما استرابوا حاله تبعوه ، فوجدوه يرقي إلى حائط في سطح الجامع ثم ينزل إلى موضع خال صرب بيت خراب وفيه قط آخر أعمي وكل ما يأخذه من الطعام يحمله إلى ذلك القط ويضعه بين يديه وهو يأكله ، فعجبوا من تلك الحال ، فقال ابن بابشاذ : إذا كان هذا حيواناً أخرس قد سخّر الله له هذا القط وهو يقوم بكفايته ولم يحرمه الرزق ، فكيف يضيع مثلي ؟ ثم قطع الشيخ علائقه واستغنى من الخدمة ، ونزل عن راتبه ولازم بيته واشتغاله ، متوكلا على الله تعالى .

* * *

١٨٥ — وكان سعيد بن المسيّب يقول : ما أعزّت العباد نفسها بمثل طاعة الله ، ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله ، ودعي إلى نيّف وثلاثين

ألفاً ليأخذها فقال : لا حاجة لى فيها ولا في بنى مروان حتي ألتقي الله فيحكم بيني وبينهم[1] .

١٨٦ ـ كان أبو حنيفة يجمع ربح تجارته فيشترى به لشيوخ المحدثين ثم يدفع الباقي إليهم ، ويقول أنفقوا ولا تحمدوا إلا الله فإنى ما أعطيتكم من مالي شيئاً ولكن من فضل الله يجريه على يدى .

١٨٧ ـ وقال أبو يوسف : كان أبو حنيفة لا يكاد يُسأل عن حاجة إلا قضاها .

١٨٨ ـ وقال سفيان بن عيينة : كان أبو حنيفة كثير الصدقة ، وكان كل ما يستفيده لا يدع منه شيئاً إلا أخرجه ، ولقد وجّه إلىّ هدايا استوحشت من كثرتها ، فشكوت ذلك لبعض أصحابه فقال : لو رأيت هدايا بعث بها إلى سعيد بن أبي عروبة ؟ وما كان يدع أحداً من المحدثين إلا بره براً واسعاً[٢] .

١٨٩ ـ كان دخل الليث في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه درهما قط بزكاة (لأنه كان يفرقها)[٢] .

١٩٠ ـ قال يحي القطّان : كان شعبة (ابن الحجاج المحدث) رقيقاً ، يعطي السائل ما أمكنه وقال أبو قطن : كانت ثيابه لونها كالتراب .

١٩١ ـ وهب المهدي له ثلاثين ألف درهم فقسمها ، وأقطعه ألف جريب بالبصرة ، فقدمها فلم يجد شيئاً يطيب له فتركها .

١٩٢ ـ وجاءه سليمان بن المغيرة يبكي وقال : مات حمارى وذهبت منّى الجمعة وذهبت حوائجي ، قال بكم أخذته ؟ قال : بثلاثة دنانير ، قال : عندي ثلاثة دنانير ما أملك غيرها ، ثم قام ودفعها إليه .

---

(١) « ص ٢٥٨ ك »

(٢) « ص ٤١ الخيرات الحسان »

(٣) « ص ١٦٠ الرحمة الغيثية »

١٩٣ — قال أحمد بن حنبل : كنا نُخبر أن عيسى بن يونس سنة في الغزو وسنة فى الحج ، فقدم بغداد في شيء من أمر الحصون ، فأمر له بمال فأبى أن يقبل .

١٩٤ — قال ابن معين : رأيت على عيسى قباء محشراً ، وخفّين أحمرين ، كان يلبس ذلك للغزو(١) .

١٩٥ — قال عبدالله بن الحكم (من أصحاب الدروس) للشافعى لما قدم مصر : إذا أردت أن تسكن نبلد (يعني مصر) فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزّز به ، فقال له الشافعي : يا أبا محمد من لم تعزّه التقوى فلا عزّ له ، ولقد ولدت بغزّة وربيت بالحجاز وماعندنا قوت ليلة وما بتنا جياعا قطّ (٢) .

١٩٦ — وقال : أفلست ثلاث مرّات فكنت أبيع قليلي وكثيرى حتي حلى ابنتى وزوجتى ، ولم أستدن قطّ .

١٩٧ — وكثيراً ماروي عن الشافعي أنه فرّق هبات ضخمة في مجالس ورودها ، ومدّ يده يمينا وشمالا بما يرده من العطاء لا يبالى الدنيا بالة .

١٩٨ — فى ترجمة أبي عبد الله القرطبي صاحب التفسير المشهور أنه كان مطرّحاً للتكلف ، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية(٣) .

١٩٩ — ومحمد بن عبد الراحد المطرّز المعروف (بغلام ثعلب) كان اشتغاله بالعلوم واكتسابها ، قد منعه من اكتساب الرزق والتحيل له فلم يزل مضيّقاً عليه — وكانت صناعته التطريز ونسب إليها .

---

(١) « ص ٢٥٨ ج ١ تذكرة الحفاظ »

(٢) « ص ٦٧ توالى التاسيس »

(٣) « مقدمة التفسير »

٢٠٠ – حدثني أبي قال : ظللت منتسباً في الأزهر سنين كثيرة وأنا مجاور ، ثم كان أوّل ما رتب لى من الجراية نصف رغيف في اليوم ، فكنت أتناول منها رغيفاً كاملا يوما بعد يوم ، ولما أجزت بالتدريس بقيت كذلك سنين أعلم بالمجان حتى انحلّ راتب عن عالم كبير فناله الذي يليه إلى أن وصل الدور إلىّ فأخذت أربعين قرشاً صاغاً في الشهر كان يتناولها الذى أمامى ورفع إلى ما فوقها ، وبقيت هكذا وأنا أحسب ما أتناوله بركة تدرّ الخير والغنى حتى وصلت إلى ثلاثة جنيهات في الشهر اه . وهى آخر مربوط كان يتناوله العالم بعد أن ينال كسوة الشرف وهم علماء معدودون وأقول : إن راتب علماء الأزهر إلى زمن قريب كان ١٥٠ قرشا فى الشهر للعالم من الدرجة الأولى و ١٠٠ قرش للدرجة الثانية و ٧٥ قرشاً للثالثة ، وهم غير علماء الشرف السابق ذكرهم فأولئك كانوا يبلغون الجنيهات الثلاثة بعد إفناء العمر وبعد الذكر .

٢٠١ – وأقول : أوّل مانلت من الأزهر وأنا مجاور بعد سنين من انتسابى كان خمسة وعشرين مليما في كل عام ، وأول سنة قبضت هذه الملاليم فى ختامها خيّل إلىّ أنّ كنوز كسرى فتحت علىّ ، فما أن تناولتها وأنا لا أصدق أن أراها حتى طرت بها فرحا إلى أبى والدنيا لا تسعنى ، فلما دخلت عليه ويدى ممسكة بها صحت به أبتِ أبت هذه ماهيّتي ، وبسطت كفي بقروشي ، فقال رحمه الله : اليوم أسعد أيامى ، أخوك جاءني من قبلك وقد رقّى اليوم في كسوة الضابط ، قم فاشتر لنا من راتبك وأكلنا منه قبل أخيك ، فطرت إلى السوق وأنا أتصوّر أن السوق كلها تحصل لى بملاليمي ، وهكذا كانت سعادة العلم ، يقنع العلماء به فيستغنون عن هذه الدنيا التى أبرقت وبرقها كله خلّب .

وظيفتهم ومحافظتهم عليها بصدق

٢٠٢ – فى كتاب الشقائق النعمانية لعلمـــاء الدولة العثمانية ، أنّ السلطان سليم خان أمر بقتل مائة وخمسين رجلا من حفـّاظ الخزائن ، فتنبه لذلك المولى علاء الدين على بن أحمد بن محمد الجمالى المفتى ، فذهب إلى الديوان العالى ، ولم يكن من عادتهم أن يذهب المفتى إلى الديوان العالى إلا لحادث عظيم ، فتحيّر أهل الديوان ، ولما دخل الديوان سلم على الوزراء فاستقبلوه وأجلسوه فى صدر المجلس ثم قالوا له : أى شىء دعا المولى إلى المجىء إلى الديوان العالى ؟ قال : أريد أن أدخل على السلطان ، ولى معه كلام ، فعرضوه على السلطان سليم خان فأذن له وحده ، فدخل وسلم عليه وجلس ثم قال : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد سمعت أنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلا لا يجوز قتلهم شرعا ، فعليك بالعفو عنهم ، فغضب السلطان ، وكان صاحب حدّة ، وقال : إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك ، قال : لا ، بل أتعرّض لأمر آخرتك وإنّه من وظيفتى ، فإن عفوت فلك النجاة ، وإلا فعليك عقاب عظيم ، فانكسرت عند ذلك ثورة غضبه ، وعفا عن الكل ، ثم تحدث معه ساعة ، ولمّا أراد أن يقوم ، قال له : تكلمتَ فى أمر آخرتك ، وبقى لى كلام متعلق بالمروءة ، قال السلطان : وماهو ؟ قال : إن هؤلاء من عبيد السلطان ، فهل يلق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس ؟ قال : لا ، قال : فقررهم فى مناصبهم ، فقبله السلطان وقال : إلا أنى أعذبهم لتقصيرهم فى خدمتهم ، قال المولى : هذا جائز ، لأن التعزير مفوض إلى رأى السلطان ، ثم سلم عليه وانصرف وهو مشكور .

٢٠٣ — ولهذا المولى حكاية أخرى مع السلطان سليم نفسه أنقذ فيها أربعمائة رجل من القتل بإيثاره الحق وتهالكه على نصرته أداء لواجب وظيفته فى محافظته على آخرة السلطان ابتغاء وجه الله ومصلحة الناس لا لعرض من الدنيا .

٢٠٤ — قال يزيد بن هارون : ما رأيت أورع من أبى حنيفة ، رأيته جالساً يوماً فى الشمس عند باب إنسان ، فقلت له : يا أبا حنيفة لو تحولت إلى الظل ؟ فقال : لى على صاحب هذه الدار دراهم ، ولا أحب أن أجلس فى ظل فناء داره ، قال يزيد : فأى ورع أكثر من هذا ؟ وفى رواية أنه سئل لم امتنع من الظل ؟ فقال : لى على صاحب هـذه الدار شىء فكرهت أن أستظل بظل حائطه فيكون ذلك جر منفعة ، وما أرى ذلك على الناس واجبا ، ولكن العالم يحتاج أن يأخذ لنفسه من عمله بأكثر مما يدعو الخلق إليه[1] .

٢٠٥ — مما يروى عن هبة الله بن صاعد الطبيب النصرانى المعروف بأمين الدولة ابن التلميذ أن السلطان محمد بن محمود خوارزمشاه كان قد حضر بغداد فمرض وهو بعسكره ظاهر البلد ، ومرض الخليفة المقتفي أبو عبد الله محمد بن المستظهر ببغداد ، فأنفذ السلطان يلتمس الرئيس أمين الدولة ابن التلميذ ، فأخرج إلى ظاهر المدينة فكان يداويه بظاهر بغداد ويداوى الخليفة ببغداد ، فقال له وزير السلطان : أيها الرئيس إننى قد كنت عند السلطان ، وذكرت له من فضلك وأدبك ورئاستك ، وقد أمر لك بعشرة آلاف دينار فقال له : يامولانا قد أمر لى من بغداد باثنى عشر ألف دينار ، أفيأذن لى فى قبولها السلطان ؟ يا مولانا أنا رجل طبيب

(١) (ص ٤٤ الخيرات الحسان)

لا أتجاوز وظائف الأطباء وما يلزمهم ولا أعرف إلا ماء الشعير والنقوع وشراب البنفسج والنيلوفر (وهو ضرب من الرياحين ينبت فى الميــاه الراكدة) ومتى أخرجت عن هذا لا أعرف شيئاً . وكان الوزير قد عرّض له فى حديثه بما معناه أن يدبر فى إتلاف الخليفة ، وقدر الله سبحانه برء الخليفة والسلطان ووقع الصلح بينهما على ما اقترحه الخليفة ، وهذا كان من عمل الرئيس أمين الدولة ودينه وأمانته فإنه كان يقول لا ينبغي للطبيب أن يداخل الملوك فى أسرارهم ، ولا يتجاوز ماء الشعير والنقوع والشراب فمتى جاوز هذا تلف وكان سبب هلاكه . وكان ينشد :

لكل امرىء من الناس حد وهلاك الفتى جواز الحد(١)

٢٠٦ — لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاوس التابعى إن أردت أن يكون عملك خيراً كله ، فاستعمل أهل الخير ، فقال عمر : كفى بها موعظة .

٢٠٧ — دخل عمرو بن عبيد على المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله عز وجل يقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة ، وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ؟ ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك ، وإن الله جل وعز لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية . يا أمير المؤمنين ، إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور ، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، قال فبكي المنصور ، فقال سليمان ابن مجالد وهو واقف على رأس المنصور : يا عمرو ، قد شققت على أمير

---

(١) المقطم فى ٥ / ٢ / ١٩٣٥ لطبيب مصرى

المؤمنين ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين من هذا ؟ قال : أخوك سليمان بن مجالد ، قال عمرو : ويلك يا سليمان ، إن أمير المؤمنين يموت ، وإنّ كلّ ما تراه يفقد ، وإنك جيفة غداً بالفناء ، لا ينفعك إلاّ عمل صالح قدّمته ، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك إذا كنت تطوي عنه النصيحة وتنهى من ينصحه ، يا أمير المؤمنين إنّ هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم ، قال المنصور : فأصنع ماذا ؟ أدع لى أصحابك أولهم ، قال : أدعهم أنت بعمل صالح تحدثه ، ومرْ بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس واستعمل في اليوم الواحد عمالا كلّما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره ، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقرّبنّ به إليك من لا نية له فيه(١) .

٢٠٨ — قال الرشيد لليث لما قدم عليه : ما صلاح بلدكم ؟ قال يا أمير المؤمنين ، صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أمره ، ومن رأس العين يأتى الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت العين ، قال صدقت يا أبا الحرث(٢) .

---

(١) « ص ٨ الرحمة الغيثية »

(٢) « ص ٢٨ ج ٢ المحاسن والمساوىء للبيهقى »

إيثارهم الحق

٢٠٩ — قال عمر بن حبيب القاضى : حضرت مجلس الرشيد يوماً فجرت مسألة فتنازعها الخصوم وعلت الأصوات فيها ، فاحتجّ بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ ، فدفع بعضهم الحديث ، وزادت المدافعة والخصام ، حتّى قال قائلون منهم ، أبو هريرة متّهم فيما يرويه وصرّحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم ، فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله ﷺ ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن رسول الله ﷺ ، فنظر إلى الرشيد نظر مغضب ، وانصرفت إلى منزلى فلم ألبث أن جاءنى غلام فقال : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنّط وتكفّن ، فقلت : اللّهم انّك تعلم أنّى دافعت عن صاحب نبيك ، وأجللت نبيّك أن يطعن على أصحابه فسلّمنى منه ، وأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسيّ ، حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف ، وبين يديه النطع ، فلما بصربي قال : يا عمر بن حبيب ما تلقّانى أحــد من الدفع والردّ لقولى بمثل ما تلقّيتني به وتجرّأت علىّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنّ الذى قلته ووافقت عليه وملت إليه وجادلت عنه ازراء على رسول الله ﷺ وعلى ما جاء به فإنه إذا كان أصحابه ورواة حديثه كذّابين ، فالشريعة باطلة والفرائض والأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبوله فالله الله يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصغى إليـه وأنت أولى أن تغار لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس كلّهم ، فلما سمع كلامى رجع إلى نفسه ثم قال : أحييتنى يا عمر بن حبيب أحياك

الله ، أحييتني أحياك الله ، أحييتني أحياك الله . وأمر له بعشرة آلاف درهم[1] .

٢٠٩ – وحدّث الجاحظ أن المعتصم غضب على رجل من أهل الجزيرة الفراتية ، وأحضر السيف والنطع ، وقال له المعتصم : صنعت كيت وكيت ، وأمر بضرب عنقه ، فقال له أحمد بن أبي دؤاد الإيادى القاضى : يا أمير المؤمنين ، سبق السيف العذل ، فتأنّ في أمره فإنّه مظلوم ، قال : فسكن قليلا ، قال ابن أبي دؤاد : وغمزني البول فلم أقدر على حبسه ، وعلمت أنني لو قمت قتل الرجل ، فجعلت ثيابي تحتي وبلت فيها حتى خلّصت الرجل ، قال : فلما قمت نظر المعتصم إلى ثيابي رطبة فقال : يا أبا عبد الله كان تحتك ماء ؟؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنه كان كذا وكذا ، فضحك المعتصم ودعا لى ، وقال : أحسنت بارك الله عليك ، وخلع عليه وأمر له بمائة ألف درهم . وابن أبي دؤاد هذا هو الذى يقول فيه الكابي : ابن أبي دؤاد روح كله من قرنه إلى قدمه .

٢١٠ – وفي « جـ ٢ ص ٢٧ من كتاب حسن المحاضرة » أن الملك الكامل شهد عند القاضى ابن عين الدولة وهو فى دست ملكه ، فقال ابن عين : السلطان يأمر ولا يشهد ، فأعاد عليه القول فلما زاد الأمر وفهم السلطان أنه لا يقبل شهادته قال : أنا أشهد تقبلنى أم لا ؟ فقال القاضى : لا ، ما أقبلك ، وكيف أقبلك و « عجيبة » تطلع إليك بجنكها كل ليلة وتنزل ثانى يوم بكرة وهي تتمايل على أيدى الجواري وابن الشيخ من عندك ؟ أحسن ما نزلت ؟ وكانت عجيبة هذه مغنية أولع بها الملك ؛ فكانت تحضر إليه ليلا وتغنّيه بالجنك على الدفاف فى مجلس يحضره ابن شيخ

---

(١) « ص ١٧٥ العقد الفريد للملك السعيد »

الشيوخ ، فقال له السلطان: يا كيواج ، وهى كلمة شتم بالفارسية ؟؟ فقال القاضى : ما فى الشرع يا كيواج ، اشهدوا علىّ أنى قد عزلت نفسى ، ونهض فقام ابن الشيخ إلى الملك الكامل وقال : المصلحة اعادته ، لئلا يقال لأى شىء عزل القاضى نفسه ؟ وتطير الأخبار إلى بغداد ويشع أمر عجيبة . ونهض إلى القاضى وترضاه وعاد إلى القضاء.

٢١١ — وكان استدار السلطان صالح فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ (المذكور في القصة السالفة) وإليه أمر المملكة ، فبنى على ظهر مسجد « طبلخانة » وبقيت تضرب هناك ، فلما ثبت هذا عند القاضى عز الدين بن عبد السلام ، حكم بهدمها ، وأسقط فخر الدين من منصبه ، وعزل نفسه من القضاء ، وقد ظن فخر الدين أن هذا الحكم لا يؤثر فيه ، ولكن الخليفة أمضاه كما سيجىء .

٢١٢ — ولعزّ الدين هذا جرأة فى الحق تكاد تكون ثورة على السلطة ، فإنّه هو الذى قام القومة الكبرى على أمراء المملكة بالديار المصرية وهم الذين يسمّون بالمماليك وصمم على أن يبيعهم ويصرف ثمنهم فى مصالح المسلمين بحجة أن الملك الصالح الأيوبى اشتراهم من بيت المال ، وشايعه الحق فنفذت كلمته وهزّ بجرأته هذه تاريخ مصر هزّة الحق وسترد هذه القصة .

٢١٣ — وفى « الجزء الثالث من خطط المقريزى ص ٩٥ » أن الدار المعروفة (بالسبع قاعات) فى مصر وقفها الوزير علم الدين بن زنبور ، فلما قبض عليه الأمير صار غمتش ، حلّ أوقافه ووعد بها (نطلونياك) أم السلطان صالح بن محمد قلاوون ، وأراد قاضى القضاة عز الدين بن بدر الدين

ابن جماعة على حلها بحجة أنها ملك السلطان كما جرى فى وقفية كريم الدين ، فأبى عليه القاضى ، بحجة أن ابن زنبور كان يتصرف فى ماله الذى اكتسبه من المتجر ، فما وقفه وحكم قضاة الإسلام بصحته لا سبيل إلى حله وساعده القاضى الحنبلى ، فاحتجّ عليهما الأمير بما لقنه به الشريفان عدوا ابن زنبور ، فقال له القاضى : إن كنت تبحث معنا في هذه المسألة بحثنا معك ، وإن كان قد ذكرها لك أحد فليحضر حتى نباحثه فيها ، فإن ما ذكره لك يقصد به مصادرة الناس وأخذ أموالهم ، ووافقهم على ذلك القضاة الثلاثة ، فشق هذا الأمر على الأمير وبعثت أم السلطان تعرّف القاضى أنها وعدت بها . وتؤكد عليه ألا يعارضها فى حل أوقاف ابن زنبور ، فقبح لها هذا وخوّفها حتى كفت عنه ، ولحق الأمير مرض حتى خيف عليه ، وبقيت (السبع قاعات) وقفاً لذرية ابن زنبور .

٢١٤ — ومثل هذا ما رواه صاحب سراج الملوك ص ٦٤ على مقدمة ابن خلدون : أن المنصور بن أبى عامر ملك الأندلس احتاج أن يأخذ أرضاً محبسة ويعاوض عنها خيراً منها ؛ فاستحضر الفقهاء فى مصره واستفتاهم فأفتوا بأنه لا يجوز ، فغضب السلطان عليهم وأرسل لهم وزيراً مشهوراً بالحدة يوبّخهم ، فردوا عليه بما ردّه وانصرفوا ، فما بلغوا باب القصر حتى نادتهم الرسل وتلقتهم الوزراء بالإعظام ، ورفعوا منازلهم ، واعتذروا إليهم عن أمير المؤمنين أنه يستجير بالله ويندم على ما كان منه وهو مستبصر في تعظيمهم وقضاء حقوقهم .

٢١٥ — وأراد (قطز) أن يأخذ من الناس شيئاً ليستعين به على قتال التتر ، فجمع العلماء ، وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال : لا يجوز أن يؤخذ من الرعية شيء حتى لا يبقى فى بيت المال شيء ، وتبيعون

مالكم من الحوائص فى الآلات ، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ، ويتساوون فى ذلك هم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة ، فلا ؟

أقول : وقطز هذا هو الملقب بالملك المظفّر الثالث فى دولة المماليك وكانت بغداد سقطت فى مدة سلفه على أيدى التتار وزحفوا منها إلى بلاد الإسلام فلقيهم بالجيوش المصرية فى « عين جالوت » فانتصرت عليهم وهزم التتر شرّ هزيمة .

٢١٦ — لمّا كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أميراً على العراق ، أرسل إلى عامله بالبصرة أن يوفد إليه وفداً ، فأرسل إلى جماعة يأمرهم بذلك ، وأرسل إلى عمرو بن عبيد فامتنع ، فأعاد سؤاله ، فقال :

إن أول مايسألنى عنه سيرتك ، فما ترانى قائلا ؟ فكفّ عنه .

٢١٧ — عن المزنى سمعت الشافعى يقول : الناس عيال على أبى حنيفة فى القياس ، ولدقة قياسات مذهبه كان المزنى يكثر من النظر فى كلامه ، حتى حمل ذلك ابن أخته الإمام الطحاوى على القول بأنه انتقل من مذهب الشافعى إلى مذهب أبى حنيفة — ويظهر أن الشافعىّ لاحظ هذا فى المزَنى فقد تنبأ له بأن سيكون أقيس أهل زمانه .

٢١٨ — حدثنى صديقى الكريم محمد فهمى الناضورى باشا عن أحمد أفندى بدوى عن أبيه عن جدّه وكان من الشيوخ بالأزهر فى زمن الخديو إسماعيل قال : لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين قوّاد جيوشها ، ضاق صدر الخديو لذلك ، فركب يوماً مع شريف باشا وهو محرج فأراد أن يفرج عن نفسه فقال لشريف

باشا: ماذا تصنع حينما تلمّ بك ملمّة تريد أن تدفعها ؟ فقال: يا أفنديناإنّ الله عوّدني إذا حاق بي شيء من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخاري يقرؤه لي علماء أطهار الأنفاس فيفرج الله عني ، قال: فكلّم شيخ الجامع الأزهر وكان الشيخ العروسي فجمع له من صلحاء العلماء جمعاً أخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر ، قال: ومع ذلك ظلّت أخبار الهزائم تتوالى ، فذهب الخديو ومعه شريف باشا إلى العلماء وقال لهم محنقاً: إمّا أنّ هذا الذي تقرءُونه ليس صحيح البخاري ، أو أنّكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح ؟ فإن الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئاً ، فوجم العلماء لذلك ، وابتدره شيخ من آخر الصفّ يقول له: (منك يا إسماعيل ، فإنا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) أو كما قال(1) فزاد وجوم المشايخ وانصرف الخديو ومعه شريف باشا ولم ينبسا بكلمة ، وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنّبونه ، فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل أين الشيخ القائل للخديو ما قال ؟ فقال: أنا ، فأخذه وقام ، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ يودّعونه وداع من لا يأملون أن يرجع وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديو في قصره ، فإذا به قاعد في البهو ، وأمامه كرسيّ أجلس عليه الشيخ ، وقال له: أعد يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر ، فأعاد

---

(1) حديث حسن . رواه البزار والطبراني في الأوسط ـ (من الجامع الصغير) وروى ابن ماجد وابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فعرفت في وجهه أن قد حضره شيء . فتوضأ وما كلم أحدا ، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : يأيها الناس ان الله يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل ان تدعوا فلا أستجيب لكم ، وتسألوني فلا أعطيكم ، وتستنصروني فلا أنصركم ، فما زاد عليهن حتى نزل اهـ من كتاب الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٧٧

الشيخ كلمته وردّد الحديث وشرحه ، فقال له الخديو : وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ قال له : يا أفندينا ، أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا ؟ أليس الزنا برخصة ؟ أليس الخمر مباحا ؟ أليس أليس وعدّد له منكرات تجرى بلا إنكار ، وقال : فكيف تنتظر النصر من السماء ؟ فقال الخديو : وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب ، وهذه مدنيتهم ؟ قال : إذن فما ذنب البخارى وما حيلة العلماء ؟ ففكّر الخديو مليّا وأطرق طويلا ثم قال له : صدقت صدقت ، وأمر فرتّبت له فى (الرزنامجة) ثلاثون جنيها ، وعاد الشيخ بعد هذا إلى الأزهر وإخوانه قد يئسوا منه ، فكأنما قد ولد جديداً .

٢١٩ — أقول — وإنى أنقل هنا كتاب سيدنا عمر ففيه تفسير قول الشيخ للخديوى .

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقّاص قائده الذى وجهه لفتح فارس :

أما بعد فإنى آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال . فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصى منكم من عدوّكم ، فإنّ ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوّهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوّهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدّتنا كعدّتهم ، فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوّتنا ، فاعلموا أنّ عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ماتفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم

في سبيل الله ، الخ — فمن هذا الكتاب يظهر السر واضحاً في سقوط المسلمين وتهاوى نجومهم ، لاهم يعملون بعمل أهل الدنيا فيعدوا ما استطاعوا من قوة ويزاحموا أبناءها بالعلم والعمل والكشف عن أبواب العزة والسطوة والأخذ بأسبابها وتولّى هذه الأسباب ولاء من يراها تنتج له العزة والبسطة فهو يمعن فيها ويجدّ للمزيد منها ومسابقة من يسبقه إليها ، ولاهم رجعوا إلى عزّ التقوى واستنزلوا النصر من السماء بأعمال الصالحين وإخلاص المؤمنين ، والله قد وعد أن ينصرهم وكان وعده مفعولا فترانا اليوم في الدنيا ونحن منها على هون بعد أن كان آباؤنا السادة والذادة ترانا كما قال الحق تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا) .

تشددهم فيما يرونه حقاً

٢٢٠ — قال أبو ذر : لو وضعتم الصمصامة على هذه ، وأشار إلى قفاه ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها(١) .

٢٢١ — وكان لسعيد بن المسيّب التابعي العظيم رأى في البيعة لوليّ العهد ، لايرها في وجود الوالى لحديث فهمه على وجه صحّ عنده ، واعتقد أنه مقصود الحديث ، وقد آذاه الولاة في سبيل هذا ، وثبت على رأيه إلى أيام عبد الملك بن مروان أراد أن يبايع لابنه الوليد وكتب لولاة الأمصار بأخذ البيعة له ، قال يحي بن سعيد : كتب هشام بن اسماعيل والى المدينة إلى

(١) « البخارى فى كتاب العلم »

عبد الملك بن مروان : إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد ابن المسيّب ، فكتب أن اعرضه على السيف ، فان مضي ، فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة ، فلما قدم الكتاب على الوالى ، دخل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبدالله على سعيد بن المسيّب وقالوا : جئناك في أمر ، قد قدم كتاب عبد الملك إن لم تبايع ضربت عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثاً فأعطنا إحداهن ، فإن الوالى قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل ، لا ، ولا نعم ، قال : يقول الناس بايع سعيد بن المسيّب ، ما أنا بفاعل وكان إذا قال لا ، لم يستطيعوا أن يقولوا نعم ، قالوا ، فتجلس في بيتك ولاتخرج إلى الصلاة أياما ، فإنه يقبل منك إذا طلبك في مجلس فلم يجدك قال فأنا أسمع الأذان فوق أذني حيّ على الصلاة ، وحيّ على الصلاة ؟ ما أنا بفاعل ، قالوا ، فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى مجلسك فإن لم يجدك أمسك عنك ، قال أفرقاً من مخلوق ؟ ما أنا بمتقدّم شبراً ولا متأخر ، فخرجوا ، وخرج إلى صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه : فلمّا صلّي الوالى ، بعث إليه فأتي به ، فقال ، إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك ، قال ، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين ، فلمّا رآه لم يجب ، أخرجه إلى السدّة ، فمدّت عنقه وسلت السيوف ، فلما رآه قد مضي ، أمر به فجرّد ، فإذا عليه ثياب شعر ، فقال : لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن ، فضربه خمسين سوطاً ثم طاف به أسواق المدينة ، فلمّا ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال ، إنّ هذه الوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة ، ومنعوا الناس أن يجالسوه ، وكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له قم

من عندى ، كراهية أن يضرب بسببه ، قال مالك رضي الله عنه : بلغني أن سعيد بن المسيب كان يلزم مكانا من المسجد لا يصلى من المسجد في غيره ، وأنه ليالى صنع به عبد الملك ماصنع ، قيل له ، أن يترك الصلاة فيه فأبي إلا أن يصلى فيه ، وكان يقول : لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لكيلا تحبط أعمالكم .

٢٢٢ — وقال الفضيل بن عياض وناهيك به جلالة : كان أبو حنيفة معروفاً بالفقه مشهوراً بالورع ، ومن عظيم ورعه ما قال الإمام عبد الله ابن المبارك إنه أراد شراء أمة فمكث عشرين سنة يستخبر ويشاور من أى سبى يشترى ؟

٢٢٣ — ومن ذلك أيضاً أنه ترك لحم الغنم لما فقدت شاة فى الكوفة إلى أن علم موتها ، لأنه سأل عن أكثر ما تعيش ؟ فقيل له سبع سنين ، فترك أكل لحمها سبع سنين تورّعاً منه ، لاحتمال أن تبقى تلك الشاة الحرام فيصادف أكل شيء منها فيظلم قلبه ، إذ هذا هو شأن أكل الحرام وإن انتفى الإثم للجهل بعين الحرام(١) .

٢٢٤ — وفى « ترجمة إمام الحرمين » أنّ أباه (أبا محمد الجوينى) كان في أوّل أمره ينسخ بالأجرة ، فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى به جارية موصوفة بالخير والصلاح ، ولم يزل يطعمها من كسب يده أيضا إلى أن حملت بإمام الحرمين وهو مستمر على تربيتها بكسب الحلّ فلما وضعته أوصاها ألاّ تمكّن أحداً من إرضاعه ، فاتفق أنه دخل عليها يوما وهى متألمة والصغير يبكى وقد أخذته امرأة من جيرانهم

---

(١) « ص ٨٥ ، الخيرات الحسان »

وشاغلته بثديها فرضع منها قليلا ، فلما رآه شقّ عليه ، وأخذه إليه ونكس رأسه ومسح بطنه وأدخل إصبعه فى فيه ولم يزل يفعل ذلك حتى قاء جميع ما شربه ، وهو يقول : يسهل علىّ أن يموت ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمه . ويحكى عن إمام الحرمين أنه كان يلحقه بعض الأحيان فترة فى مجلس المناظرة فيقول : هذا من بقايا تلك الرضعة .

٢٢٥ – وهنا يطيب لك القول إذا نقلت عن المختصر » ج ٢ ص ١٨٤ » أن أبا المعالى الجوينى إمام الحرمين المذكور ترك خراسان كلها ، وهاجر منها إلى مكة أربع سنين إذ كان وزيرها عميد الملك كثير الوقيعة في الشافعيّ وخاطب « طغرلبك » في لعن الرافضة على منابر خراسان فأمر له بذلك ؛ فأمر بلعنهم وأضاف إليهم الأشعرية . قال الملك المؤيد : فأنف من ذلك أئمة خراسان منهم أبو القاسم القشيرى وأبو المعالى الجوينى وأقام بمكة أربع سنين ولهذا لقّب إمام الحرمين اه . وسترى في الكتاب سرور نظام الملك واعتزازه به حتي بنى له المدرسة النظامية بنيسابور .

اقرارهم للحق

٢٢٦ — قال محمد بن جرير : لم يكن أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه ومذهبه فى الفقه غير ابن مسعود ، وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر ، وكان لا يكاد يخالفه فى شىء من مذاهبه ، ويرجع من قوله إلى قوله ، وقال الشعبي : كان عبد الله لا يقنت ، ولو قنت عمر لقنت عبد الله .

٢٢٧ — وعن أبى بكر الهذلى قال : بعث عمر بن هبيرة إلى الحسن البصرى وابن سيرين والشعبي فقدموا عليه وهو بواسط ، وكان رجلا يحب حسن السيرة ويسمع من الفقهاء ، فلما دخلوا عليه ألطفهم وأمر لهم بِنُزُل وحسن ضيافة ، فأقاموا على بابه شهراً ، فغدا عليهم حسن بن هبيرة ذات يوم فقال ، إن الأمير داخل عليكم ، فجاء يتوكأ على عكاز له حتى دخل ، فسلم ثم قال ، إن يزيد بن عبد الملك عبد من عبيد الله أخذ عهودهم وأعطاهم عهده كى يسمعوا له ويطيعوا ، وإنه يأتينى منه كتب أعرف فى تنفيذها الهلكة ، فإن أطعته عصيت الله ، فماذا تأمرون ؟ فقال الحسن ، ياابن سيرين أجب الأمير ، فسكت ، فقال للشعبي أجب الأمير ، فتكلم بكلام هيبة ، فقال يا أبا سعيد ماتقول ؟ فقال ، أما إذا سألتنى فانه يحق على أن أجيبك ، إن الله جل وعز ما نعك من يزيد ولن يمنعك يزيد من الله ، وإنه يوشك أن ينزل بك ملك من السماء فيستنزلك من سريرك وسعة قصورك إلى باحة دارك ثم يخرجك من باحة دارك إلى ضيق قبرك ثم لا يوسع عليك إلا عملك ، يا ابن هبيرة إنى أنهاك عن الله

جلّ وعزّ ، فإنما جعل الله جلّ وعزّ السلطان ناصراً لعباده ودينه ، فلا تركبوا عباد الله بسلطان الله فتذلوهم فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، يا ابن هبيرة لا تأمن أن ينظر الله جلّ وعزّ إليك عند أقبح ما تعمل في طاعته نظرة مقت فيغلق عنك باب الرحمة ، يا ابن هبيرة اني قد أدركت أناساً من صدور هذه الأمة كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم ، وكانوا لحسناتهم ألا تُقبل أخوف منكم لسيئاتكم ألا تُغفر وكانوا لثواب الآخرة أبصر منكم لمتاع الدنيـــا بأعينكم ، وكانوا عن الدنيا وهي عليهم مقبلة أشدّ إدباراً من إقبالكم عليها وهي عنكم مدبرة ، ياعمر اني أخوّفك مقاماً خوّفكه الله جل وعزّ من نفسه فقال « ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » ياعمر إن تكن مع الله على يزيد يكفك الله بائقته ، وإن تكن مع يزيد على الله يكلك إليه ، قال ، فبكى ابن هبيرة ، وقام في عبرته وانصرف ، وأرسل إليهم من الغد بجوائزهم ، وأعطى الحسن أربعة آلاف درهم ، وابن سيرين والشعبي ألفين ألفين ، فخرج الشعبي إلى المسجد وقال ، من قدر منكم أن يؤثر الله جلّ وعز على خلقه فليفعل ، فإن ابن هبيرة أرسل إليّ وإلى الحسن وابن سيرين فسألنا عن أمر الله ما علم الحسن شيئاً جهلته ، ولا علمت شيئاً جهله ابن سيرين ، ولكنا أردنا وجه ابن هبيرة فأقصانا الله جلّ وعزّ وقصّر بنا ، وأراد الحسن وجه الله فحباه تبارك اسمه وزاده .

٢٢٨ – وقال الليث بن سعد : كنت أسمع بذكر أبي حنيفة وأتمنى رؤيته ، فإني بمكة إذ رأيت الناس مجتمعين على شخص ، فسمعت إنسانا ينادي يا أبا حنيفة . فعلمت أنه هو ، فسأله رجـل فقال له : إن لي

مالاً كثيراً ، وولداً أزوّجه وأنفق عليه المال الكثير فيطلّق فيذهب مالى ، فهل لى من حيلة ؟ قال ، أدخل به سوق الرقيق واشتر من يعجبه ثم زوّجه إياها ، فإن طلقها رجعت مملوكة لك : وإن أعتقها لم ينفذ عتقه ، قال الليث : فوالله ما أعجبنى جوابه كما أعجبنى سرعة جوابه .

٢٢٩ — وقال الأوزاعى لابن المبارك : من هذا المبتدع الذى خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فأراه مسائل عويصة من مسائله ، فلمّا رآها منسوبة للنعمان بن ثابت قال : من هذا ؟ قلت شيخ لقيته بالعراق ، قال هذا نبيل من المشايخ ، اذهب فاستكثر منه ، قلت هذا أبو حنيفة الذى نهيت عنه ، ثم لمّا اجتمع بأبى حنيفة بمكة جاراه فى تلك المسائل ، فكشفها أبو حنيفة له بأكثر مما كشفها ابن المبارك عنه ، فلما افترقا ، قال الأوزاعى لابن المبارك : غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى ، لقد كنت فى غلط ظاهر ، إلزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغنى عنه .

٢٣٠ — قال يحى بن الليث : باع رجل من أهل خراسان جمالا على مرزبان المجوسى وكيل أم جعفر زبيدة زوج الرشيد بثلاثين ألف درهم فمطله بثمنها وعوّقه عن سفره ، فطال ذلك على الرجل ، فأتى إلى بعض أصحابه وشاوره كيف يعمل ؟ فقال إذهب إلى مرزبان وقل له : اعطنى ألف درهم وأحيل عليك بالمال الباقى وأسافر إلى خراسان ، فإذا فعل فعرّفنى حتى أشير عليك ، فأتى إلى مرزبان وقال ذلك ، فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرجل فأخبره ، فقال له عد إليه وقل له إذا ركبت غداً فاجعل طريقك على القاضى حتى أوكل رجلا يقبض المال منك فى دفعات

وأروح أنا إلى خراسان ، فإذا جاء وجلس إلى القاضى فادع بمالك ، فإذا أقر حبسه القاضي وأخذت مالك منه ، فرجع الخراساني إلى مرزبان وسأله ذلك فأجابه وقال : غداً انتظرني بباب القاضي ، فلما ركب من الغد قام إليه الرجل وقال : إن رأيت أن تنزل إلى القاضى حتى أوكّل بقبض المال وأروح ؟ فنزل مرزبان فتقدما إلى القاضى وكان « حفص بن غياث » فقال الرجل : أصلح الله القاضى ، لى على هذا تسعة وعشرون ألف درهم ، قال له القاضى : ما تقول ؟ قال مرزبان صدق أصلح الله القاضى ، قال : قد أقر لك ، قال : يعطيني مالى وإلا فالحبس ، فقال القاضى لمرزبان ما تقول : قال : هذا المال على السيدة أم جعفر ، قال له حفص يا أحمق تقر ثم تقول هذا على السيدة ؟ ما تقول يارجل ؟ قال إن أعطاني : مالى وإلا حبسته ، فقال حفص : يا مرزبان ما تقول ؟ قال المال على السيدة قال حفص : خذوا بيده إلى الحبس ، فلما حبس ، بلغ الخبر إلى أم جعفر فغضبت ، وبعثت إلى « السندى » وقالت وجه بمرزبان إلى وعجل ، فأسرع السندى وأخرجه من الحبس ، وبلغ الخبر إلي حفص أن مرزبان قد أخرج ، فقال أحبس أنا ويخرج السندى ؟ والله لاجلست للقضاء أو يرد مرزبان إلى الحبس ، وأغلق باب بيته ، فسمع السندي ذلك فجاء إلي السيدة أم جعفر فقال : الله الله في فإن حفصاً لا تأخذه في الله لومة لائم وأخاف من أمير المؤمنين الرشيد يقول لى بأمر من أخرجته رديه إلي الحبس ، وأنا أكلم حفصاً فيه ، فأجابته وردته إلي الحبس ، وقالت أم جعفر للرشيد : قاضيك هذا أحمق . حبس وكيلي واستخف به ، اكتب إليه ومره لاينظر في الحكم عليه ، فأمر لها بالكتاب ، وبلغ حفصاً ذلك فقال للرجل : احضر لى شهوداً لأسجل لك على المجوسى بالمال وجلس حفص وسجل على المجوسى فجاء خادم السيدة ومعه كتاب الرشيد فقال : هذا

كتاب أمير المؤمنين فقال له حفص : مكانك ، نحن في حكم شرعي حتي نفرغ منه ، فقال كتاب أمير المؤمنين ، فقال : اسمع ما يقال لك ، فلما فرغ حفص من السجل أخذ الكتاب من الخادم وقرأه وقال اقرأ على أمير المؤمنين السلام ، وأخبره أن كتابه ورد وقرأته وقد أنفذت الحكم عليه ، فقال : الخادم قد عرفت والله ما صنعت ، أبيتَ أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد والله لأخبرن أمير المؤمنين بما فعلت ، فقال له حفص ، قل له ما أحببت فجاء الخادم وأخبر هارون الرشيد بذلك ، فضحك وقال للحاجب : مر لحفص ابن غياث بثلاثين ألف درهم ، فركب يحي بن خالد فاستقبل حفصاً منصرفاً عن مجلس الحكم ، فقال أيها القاضي : قد سررتَ أمير المؤمنين اليوم وقد أمر لك بثلاثين ألف درهم ، فما كان السبب في هذا ؟ فقال حفص تمّم الله سرور أمير المؤمنين وحفظه وكلأه ، ما زدت على ما أفعل كل يوم ، قال ومع ذاك ؟ قال : لا أعلم إلا أنّني سجّلت على مرزبان المجوسي بمال وجب عليه فقال يحي فمن هذا سر أمير المؤمنين ، فقال حفص : الحمد لله كثيراً ، من قام بحقوق الشريعة ألبسه الله رداء المهابة .

أداء الحق مع رعاية الأدب

٢٣١ – عن لؤلؤة خادم الرشيد قال : جرى بين الرشيد وبنت عمه زبيدة كلام فقال هارون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا ، فكتب إلى البلدان فاستحضر علماءها إليه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم فاختلفوا ، وبقي شيخ لم يتكلم وكان في آخر المجلس ، وهو الليث بن سعد ، قال فسأله ، قال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم فقال ، يدنيني أمير المؤمنين ، فأدناه ، قال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم ، فأمر باحضار مصحف فأحضر ، فقال تصفحه ياأمير المؤمنين حتي تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ففعل ، فلما انتهي إلى قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال أمسك يا أمير المؤمنين ، قل والله فاشتد ذلك على هارون ، فقال يا أمير المؤمنين ، الشرط أملك ، فقال والله حتى فرغ من اليمين ، قال : قل إني أخاف مقام ربي ، فقال ذلك ، فقال يا أمير المؤمنين ، فهى جنتان وليست بجنة واحدة ، قال : فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر ، فقال له الرشيد ، أحسنت ، وأمر له بالجوائز والخلع ، وأمر له باقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره وصرفه مكرماً(١) .

أقول : هذا تصرف عال من جمال العلم روعى فيه الحق والأدب معاً ، تري الليث عرف وجه الفتوي وهو أن الطلاق لا يقع إذا كان الرشيد ممن يخاف مقام ربه ، ورأى في نفسه أنه لا يبيح لها أن يطلق الفتوي على علاتها حتي يتوثق من الشرط وهو خوف الله تعالى ، ويكون هذا بتحليف

---

(١) ص ٧ الرحمة الغيثية

الرشيد حتي تطمئن نفس الإمام إلى أن فتواه صادفت حقاً ، فصرف من في مجلس الخليفة حتي لا يكون تحليفه بمرأى منهم ، ولا تأخذ الرشيد نفسه كما قد همّت حين أراد تحليفه لو لم يذكّره بشرطه عليه أن له الأمان منه حتى سكن ، ثم لم تكن فتوى الإمام خلجة نفس بل من القرآن نفسه ولذلك أقرأه المصحف حتي آية « ولمن خاف مقام ربه جنّتان » فاطمأن بذلك الرشيدوعرف أنه يمسك حرمه على حل صحيح بنص قاطع من كلام الله — وهذه موهبة الحق في غالب أحوالها لا تنفك عن حسن الأدب عند من عقل وعرف .

٢٣٢ — قال يحي بن عبد الصمد : خوصم موسي الهادى أمير المؤمنين إلي أبي يوسف في بستانه ، فكان الحكم فى الظاهر لأمير المؤمنين ، وكان الأمر على خلاف ذلك ، فقال أمير المؤمنين لأبى يوسف : ما صنعت فى الأمر الذى يتنازع إليك فيه ؟ قال ، خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلّف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق ، فقال له موسى وترى ذلك ؟ قال قدكان ابن أبي ليلى يراه ، قال فاردد البستان عليه .

أقول : وهذا أيضاً ذوق خالص من القاضى أبي يوسف ، عرف كيف يصل بالحق الذى رآه إلى صاحبه من غير أن يجرح صاحب الدعوى الذى قامت له البيّنة وأظهرت القضاء في جانبه ، فإنّه جنح إلي طريقة يعرف أنفة الخليفة أن يسلكها وهى الحلف على صدق شهوده ، ثم لم يقيّد القاضى نفسه بهذا المبدأ ليأخذ عليه في غيرها ، فلمّا سئل عنه قال إن ابن أبى ليلى يراه ، وهذا جواب يحتمل أن القاضى يراه أيضاً ويسير عليه ، أو لا يراه وإنما هو يحكى طرق القضاة ، وفي هذا الاحتمال سارع الهادى فنزل عن البستان إلى صاحبه ، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء من أصحاب العقول

الرشيدة التي تملؤها الحكمة وتهديها إلي الحق من أيسر السبل وألطف المنافذ ، وفيه المثل الواضح للفرق بين عالم اللفظ وعالم النفس ، أو كما يقولون: (روح قانون وحرفيّته) .

٢٣٣ – روى عمر بن هياج بن سعيد قال : أتت امرأة يوما شريك ابن عبد الله قاضى الكوفة وهو في مجلس الحكم ، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضى قال : من ظلمك ؟ قالت الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين ، كان لى بستان على شاطىء الفرات فيه نخل ورثته عن أبي ، وقاسمت إخوتى وبنيت بيني وبينهم حائطا ، وجعلت فيه رجلا فارسيًّا يحفظ النخل ويقوم به . فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتى وساومنى ورغّبنى فلم أبعه ، فلمّا كان هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط ، وأصبحت لا أعرف من نخلى شيئاً ، واختلط بنخل إخوتى ، فقال ياغلام : أحضر طينة فأحضرها فختمها ، وقال لها امض إلى بابه بالختم حتى يحضر معك ، فجاءت المرأة بالطينة المختومة فأخذها الحاجب ودخل على موسى فقال : قل قد أعدى القاضى عليك ، وهذا ختمه ، فقال : ادع لى صاحب الشرطة فدعا به ، فقال امض إلى شريك وقل ، يا سبحان الله ، ما رأيت أعجب من أمرك ، امرأة ادعت دعوى لم تصح ، أعديتها علىّ ؟ قال صاحب الشرطة : إن رأى الأمير أن يعفيني من ذلك ؟ فقال امض ويلك ، فخرج وقال لغلمانه اذهبوا وأدخلوا لى إلي حبس القاضى بساطاً وفراشاً وما تدعو الحاجة إليه ثم مضى إلى شريك ، فلمّا وقف بين يديه أدى الرسالة ، فقال القاضى لغلام المجلس . خذ بيده فضعه في الحبس ، فقال صاحب الشرطة : والله قد علمت أنك تحبسنى فقدّمت ما أحتاج إليه إلى الحبس ، وبلغ موسى بن عيسى الخبر فوجه الحاجب إليه وقال له : رسول أدى رسالة أى شيء عليه ؟

فقال شريك : اذهبوا به إلى رفيقه ، إلى الحبس ، فحبس ، فلما صلى الأمير موسى العصر ، بعث إلى إسحق بن الصباح الأشعثى وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضى شريك، وقال لهم امضوا إلى القاضى وأبلغوه السلام وأعلموه أنه استخفّ بى . وأنى لست كالعامة . فمضوا إليه وهو جالس فى مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة ، فلمّا انقضى كلامهم ، قال لهم : مالى أراكم جئتمونى فى غَثَرَةٍ من الناس فكلمتمونى ؟ مَن ههنا من فتيان الحىّ ؟ فأجابه جماعة من الفتيان ، فقال ليأخذ كلّ واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس ، ما أنتم إلا فتنة ، وجزاؤكم الحبس ، قالوا له ، أجادٌّ أنت ؟ قال حقاً حتى لاتعودوا برسالة ظالم ، فحبسهم فركب موسى بن عيسى فى الليل إلى باب السجن وفتح الباب وأخرجهم كلّهم ، فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء ، جاءه السجّان فأخبره ، فدعا بالقمطر فختمه ووجّه به إلى منزله ، وقال لغلامه الحق بثقلى إلى بغداد ، والله ماطلبنا هـذا الأمر منهم ، ولكن أكرهونا عليه ، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم ، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى فركب فى موكبه ولحقه وجعل يناشده الله ويقول : يا أبا عبد الله تثبّت ، انظر ، إخوانك تحبسهم دع أعوانى ، قال نعم ، لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه ،ولست ببارح أو يردّوا جميعاً إلى الحبس وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى فأستعفيه مما قلّدنى ، فأمر موسى بردّهم جميعاً إلى الحبس وهو واقف والله مكانه حتى جاءه السجّان فقال : قد رجعوا جميعاً إلى الحبس ، فقال : لأعوانه خذوا بلجام دابته بين يدىّ إلى مجلس الحكم فمرّوا بين يديه حتى أدخل المسجد ، وجلس فى مجلس القضاء ، فجاءت المرأة المتظلمة فقال هـذا

خصمك وقد حضر ، فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه ، قبل كل أمر أنا قد حضرت ، أولئك يخرجون من الحبس ، فقال شريك : أمّا الآن فنعم أخرجوهم من الحبس ، فقال ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة ؟ قال صدقت ، قال ترد ما أخذت منها وتبني حائطا سريعاً كما كان ، قال أفعل ذلك كلّه قال لها أبقي لك عليه دعوى ؟ قالت بيت الرجل الفارسي ومتاعه ، قال موسى ابن عيسى ويرد ذلك كله ، قال أبقي لك عليه دعوى ؟ قالت : لا ، وبارك الله عليك وجزاك خيراً ، قال قومي ، فقامت من مجلسه ، فلما فرغ قام واخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه في مجلسه ، وقال السلام عليك أيها الأمير أتأمر بشيء ؟ فقال أي شيء آخر ؟ وضحك ، فقال له شريك ، أيها الأمير ذاك الفعل حق الشرع ، وهذا القول الآن حقّ الأدب ، فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول ، من عظّم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه(1) .

٢٣٤ — وعن الحسن بن سهل قال : جلس المأمون ذات يوم للمظالم وإذا هو برجل قد مثل بين يديه وفي يده رقعة فيها سطران ، بسم الله الرحمن الرحيم ، مظلمة من أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، فقال أمظلمة مني ؟ قال : أفأخاطب بالخلافة سواك ؟ قال له وما ظلامتك هذه؟ قال ثلاثون ألف دينار . قال وما وجهها ؟ قال إن سعيداً وكيلك اشترى مني جواهراً بثلاثين ألف دينار وحمله إلى منزلك ولم يوفّر على المال ، قال فإذا اشترى سعيد منك الجوهر تشكو الظلامة مني؟ قال نعم إذا كانت الوكالة قد صحت له منك ، قال إن كلامك هذا يحتمل ثلاث جهات ، أما أول ذلك فلعل سعيداً قد اشترى هذا الجوهر منك كما زعمت وحمله إلينا وأخذ المال من بيت المال ولم يوفّره عليك ، أو لعلّه قد وفّره وادعيت باطلا ، أو

(1) العقد الفريد

اشتراه لنفسه ، أمّا فى العاجل فلا يلزمنى لك حق ولا أعرف لك ظلامة ، فقال الرجل : إنّ الله جلّ وعزّ قد أهلّك لموضع رفيع ، واختصّك بنسب جعلك أولى الخلق معه بالإنصاف والانتصاف ، فإنك مناسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم واسترعاك على خلقه ؛ فهلا تحملنى على كتاب الله جلّ وعزّ وسنّة ابن عمّك رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنّة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى رسالته إلى أبى موسى الأشعرى وهى التى اتخذتموها صدور أحكامكم ووصيّة لقضاتكم إذ يقول : البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر ؟ قال المأمون فإنّك والله قد عدمت البيّنة فما يجب لك إلا حلفة ، ولئن حلفتها لأنا صادق ، إذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمنى ، قال فإذاً أدعوك إلى الحاكم الذى نصبته لرعيّتك ، قال نعم ، ياغلام علىّ بيحيى بن أكثم ، فإذا هو قد مثل بين يديه ، فقال يا يحيى ، قال لبّيك يا أمير المؤمنين قال أقض بيننا ، قال فى حكم وقضية ؟ قال نعم ، قال لا أفعل قال ولم ؟ قال لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضائى ، قال قد فعلت قال فإنى أبدأ بالعامّة أوّلا ليصحّ المجلس للقضاء ، قال افعل ، ففتح الباب وقعد فى ناحية من الدار وأذن للعامّة ونادى المنادى وأخذ الرقاع ودعا بالناس ، ثم دعا الرجل المتظلّم فقال له يحي ما تقول ؟ قال : أقول أن تدعو بخصمى أمير المؤمنين المأمون ، فنادى المنادى فإذا المأمون قد خرج فى رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عقبيه فى نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحي وهو جالس ، فقال له : اجلس ، فطرح المصلى ليقعد عليه ، فقال له يحي ، يا أمير المؤمنين لاتأخذ على خصمك شرف المجلس فطرح له مصلى آخر فجلس عليه ، وقال له يحي ماتقول ؟ فقال لى على هذا ثلاثون ألف دينار ، قال ومن هذا ؟ قال أمير المؤمنين المأمون بالله ،

قال له يحي : يا أمير المؤمنين قد سمعت مايقول ، قال سله ماوجهها؟ فأعاد خبر الوكيل ، فقال المأمون ما أعرف له حقاً ، فأقبل على الرجل فقال قد سمعت ألك بيّنة ؟ قال لا ، قال ، فما تريد ، قال مايوجبه الحكم لمن عدم البينة ، قال المأمون ويحك قد لججت في اليمين ، قال يا أمير المؤمنين أتحلف ؟ قال إي والله ، ولا أوطّىء نفسي العشوة (ركوب الأمر على غير بيان) في إعطاء رجل ما لا يجب له ظلماً ، فقال قل والله فاستحلفه غموساً ، ثم وثب يحي عند فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه ، فقال له المأمون ما أقامك ؟ فقال إنّي كنت في حق الله جلّ وعزّ حتي أخذته منك ، وليس الآن من حقك أن أتصدّر عليك ، وقبض على الرجل لئلا يخرج ، فقال المأمون ارفقوا به ثم قال يا غلام احضرني ما ادّعى من المال ، فلما أحضره ، قال خذه إليك ، والله ماكنت أحلف على فجرة ثم أسمح لك فأفسد ديني ودنياي والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعيّة لعلها تري أنّي تناولتك من وجه القدرة وأني منعت واجبك بالاستطالة عليك ، وإنها لتعلم الآن ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال ، فقال يا أمير المؤمنين أفأحاط في المال حتي أصل إلى حيث آمن عليه ؟ قال إي والله ولو بالثغر ، غزو إسبيجاب ، فاخرج الرجل مع المال وبذرق به (أخفر) إلى أن بلغ مأمنه(١) .

٢٣٥ — وهنا طريفة يصحّ إلحاقها بهذا الباب ، تسامى فيها أدب العلم على الرتب والألقاب . فإن الوزير العالم يحي بن هبيرة كان شغوفاً بالعلم وجمعه والجلوس لأربابه في زمن ولايته وقراءة الحديث والاستماع له ، وكان أبو محمد الأشترى من علماء المالكية قد طلبه الوزير من الشهيد نور الدين

(١) ص ١٥١ ج ٢ المحاسن والمساوىء للبيهقى

محمود بن زنكي ، فأرسل به وأكرمه الوزير غاية الإكرام ، وكان يحضر مجلس علمه ويقرأ فيه « ابن شافع » فوقعت بينهما في مجلس مشادّة ندّت فيها كلمة من الوزير للأشترى بسبب أن الوزير ذكر في مجلسه حديثاً انفرد به أحمد بن حنبل ، فادّعي الأشتري أن مالكا رواه أيضاً فردّ عليه الحاضرون وأحضر الوزير كتب المفردات لأحمد فوجد فيها الحديث ، فبقى الأشترى على إنكاره مع هذا ، فقال له الوزير : بهيمة أنت؟ أما تسمع هؤلاء الأئمة يشهدون بانفراد أحمد ، والكتب المصنّفة كذلك وأنت تنازع ؟ وتفرّق المجلس على هذا فلمّا كان المجلس الثانى ، واجتمع الخلق لسماع الحديث ، أخذ « ابن شافع » في القراءة ، فمنعه الوزير وقال كان الفقيه أبو محمد جرى في مسألة أمس على ما لا يليق به من العدول عن الأدب والانحراف عن نهج النظر حتي قلت تلك الكلمة ، وهأنذا فليقل لى كما قلت له ، ، فلست بخير منكم ، ولا أنا إلا كأحدكم : فضجّ المجلس بالبكاء ، وارتفعت الأصوات بالدعاء والثناء ، وأخذ الأشترى يعتذر ويقول ، أنا المذنب والأولى بالاعتذار من مولانا الوزير ، وهو يقول القصاص القصاص ، فقال يوسف الدمشقي مدرس النظامية يامولانا إذا أبى القصاص فالفداء ، فقال الوزير له حكمه ، فقال الأشتري نعمك علىّ كثيرة فأي حكم بقي لى ؟ فقال الوزير : قد جعل الله لك الحكم علينا بما ألجأتنا به إلى الافتيات عليك ، فقال علىّ بقية دين منذ كنت بالشام قال ابن الجوزي : إن الوزير قال ، يعطى مائة دينار لإبراء ذمته ، ومائة دينار لإبراء ذمتى ، وعفا الله عنك وعنّى ، وغفر لك ولى اهـ .

ص ١٣ مقدمة الإفصاح عن معانى الصحاح

فانظر إلى هذا الأدب في رعاية الحق ، يأبى الوزير العالم إلا القصاص

إذ لا يرتفع في مجلس العلم إلا أدب العلم ، ويأبى الشيخ العالم أن يطلبه رعاية لسابق النعم ثم يظفر الحكم برضا الطرفين وتحقيق الطلبتين وينتهي هذا المجلس بكلمة العزة للعلم إذ يقول الوزير : والله لقد كنت أسأل الله تعالى الدنيا ، لأخدم بما يرزقنيه الله منها العلم وأهله .

عزتهم في انفسهم

٢٣٦ — وفي « ص ٣٧ من المخزون » قال مقاتل بن سليمان : دخلت على حماد بن سلمة فإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس ، وفي يده مصحف يقرأ فيه ، وجراب فيه علمه ، ومطهرة يتوضأ منها ، فبينا أنا جالس إذ دق الباب ، فقال : ياحبيبة اخرجى فانظرى من هذا ؟ فقالت : رسول محمد بن سليمان، إلى حماد بن سلمة ، فأذن له فدخل . فقال : أما بعد : فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته ، وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها والسلام . فقال: ياحبيبة هلم الدواة ، ثم قال لى: اقلب الكتاب واكتب أما بعد : فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته ؛ إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً فإن وقعت لك مسألة فأتنا وسل مابدا لك ، وإن أتيتنى فلا تأتنى بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح إلا نفسي والسلام . فبينا أنا جالس إذ دق الباب فقال : ياحبيبة اخرجي فانظرى من هذا ؟ قالت : محمد بن سليمان ، قال : قولى له يدخل وحده ، فدخل وجلس بين يديه ثم ابتدأ فقال ، مالى إذا نظرت إليك امتلأت منك رعباً ؟ قال حماد ، حدثنى ثابت البنانى قال ،

سمعت أنساً يقول ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إنّ العالِم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء ، وإذا أراد أن يكنز الكنوز هاب من كل شيء» فقال : ماتقول رحمك الله فى رجل له ابنان وهو عن أحدهما أرضى ، فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله ؟ فقال لا يفعل رحمك الله ، فإني سمعت أنساً يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إذا أراد الله أن يعذب عبداً من عباده في حياته وفّقه لوصية جائرة » قال : فعرض عليه مالا فلم يقبله حمّاد .

٢٣٧ – ولما حج سليمان بن عبد الملك وعظه أبو حازم بما هو مشهور ، فقال له : ارفع إلينا حوائجك ، قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها يكفي وما معني منها رضيت ، يقول الله تعالى :(نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) فمن الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله ، أو يزيد في قليل ما قسم الله ؟ فبكى سليمان بكاء شديداً . فقال رجل من جلسائه : أسأت إلى أمير المؤمنين ؟ فقال أبو حازم : اسكت فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيننّه للناس ولا يكتمونه .

٢٣٨ – ولما حج الرشيد تلمّس العلماء حتى مضى إلى الفضيل بن عياض ودخل عليه فوعظه بما وعظ ، فلما همّ ليخرج قال الرشيد له : أعليك دَين ؟ قال : نعم ، دين لربى لم يحاسبني عليه فالويل لى إن سألنى ، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم يلهمنى حجتى ، قال : إنما أنا أعنى دَين العباد؟ قال إن ربى لم يأمرني بهذا ،أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره . فأعطاه ألف دينار فردها وقال : أنا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك . وصمت ولم يكلمه بعدها .

٢٣٩ — وبهذه العزة أجاب العالم الضرير (المحدث أبو معاوية محمد ابن حازم) هارون الرشيد لما صبّ الماء على يديه وأعلمه بذلك بعد أن فرغ : إنمّا أكرمت العلم يا أمير المؤمنين .

٢٤٠ — ودخـل أبو عمرو بن العلاء على سليمان بن على وهو عم السفاح ، فسأله عن شيء فصدقه فلم يعجبه ما قاله ، فوجد أبو عمرو فى نفسه وخرج وهو يقول :

أنفت من الذل عند الملـو ك وإن أكرمونى وإن قربوا

٢٤١ — وبلغ من عزة أحمد بن أبى دؤاد فى نفسه أن كان واحد الدولة — قال ابن خلكان (١) : كان الإخشيد يحسد أبادلف القاسم بن عيسى العجلى للعربية والشجاعة ، فاحتال عليه حتى شُهد عليه بجناية قتل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره وأحضر من عدوله ، السياف ليقتله ، وبلغ ابن أبى دؤاد الخبر ، فركب فى وفد مع من حضر فدخل على الأخشيد وقد جيء بأبى دلف ليقتل ، فوقف ثم قال : إنى رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرك ألا تحدث فى القاسم ابن عيسى حدثاً حتى تسلمه إلى ، ثم التفت إلى العدول وقال : اشهدوا أنى أديت الرسالة إليـه عن أمير المؤمنين والقـاسم حى معافى فقالوا : قد شهدنا وخرج . فلم يقدر الأخشيد عليه ، وسار ابن أبى دؤاد إلى المعتصم من وقته ، وقال : يا أمير المؤمنين قد أديت عنك رسالة لم تقلها لى ، ما أعتد بعمل خير منها ، وإنى لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر فصوب رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ، ووهب له وعنف الأخشيد فيما عزم عليه .

---

(١) جـ ١ ص ٢٧ .

٢٤٢ – وسمت عزة العلم بالعلماء حتى قرّروا أن طالب العلم كفء لبنت السلطان ، بلى تجاوزوا هذه الرتبة ورفعوه فوقها : ففى ترجمة ابن المسيّب أن عبد الملك بن مروان خطب ابنته لولده الوليد حين ولاه العهد ، فأبى أن يزوّجها . قال أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدنى أياما ، فلما جئت قال : أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلى فاشتغلت بها قال : فهلا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل أحدثت امرأة غيرها ؟ فقلت : يرحمك الله ، ومن يزوّجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال ، إن أنا فعلت تفعل ؟ قلت : نعم ، فحمد الله تعالى وصلى على النبي وزوّجنى على درهمين أو على ثلاثة ، قال : فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح ، وصرت إلى منزلى وجعلت أفكّر ممّن آخذ وأستدين ؟ وصلّيت المغرب ، وكنت صائما فقدّمت عشائى لأفطر وكان خبزاً وزيتاً وإذا بالباب يقرع ، فقلت : من هذا ؟ فقال سعيد ، ففكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ، فإنه لم يُر منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد ، فقمت وخرجت وإذا بسعيد بن المسيب ، وظننت أنه قد بدا له ، فقلت : يا أبا محمد هلا أرسلت إلىّ فأتيتك ؟ قال : لا ، أنت أحقّ أن تزار ، قلت : فما تأمرنى ؟ قال ، رأيتك رجلا عزَبا قد تزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، فإذا هى قائمة خلفه فى طوله ، ثم دفعها فى الباب ورد الباب فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ثم صعدت إلى السطح وناديت الجيران ، فجاءونى وقالوا : ما شأنك ؟ قلت : زوجنى سعيد بن المسيّب ابنته ، وقد جاء بها على غفلة وها هى في الدار ، فنزلوا إليها ، وبلغ أمى فجاءت ، وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام ، فأقمت

ثلاثا ثم دخلت بها ، فإذا هى من أجمل الناس ، وأحفظهم لكتاب الله تعالى ، وأعلمهم بسنّة رسول الله ، وأعرفهم بحق الزوج . قال : فمكثت شهراً لا يأتيني ولا آتيه ثم أتيته بعد شهر وهو فى حلقته فسلّمت عليه فرد على ولم يكلّمنى حتى انفض من فى المسجد ، فلّما لم يبق غيرى قال : ما حال ذلك الإنسان ؟ قلت : على ما يحب الصديق ويكره العدو . اه

٢٤٣ — وكان لعلاء الدين السمرقندى « صاحب تحفة الفقهاء » ابنته « فاطمة » الفقيهة العلامة ، حفظت التحفة لأبيها ، وطلبها جماعة من ملوك الروم ، فلّما صنّف أبو بكر الكاسانى الملقّب (ملك العلماء) كتابه « البدائع » وهو شرح التحفة ، عرضه على شيخه وهو أبوها ، فازداد به فرحا ، وزوجه ابنته ، وجعل مهرها منه ذلك ، فقالوا فى عصره (شرح تحفته وتزوج ابنته) قال (صاحب الفوائد البهيّة ص ١٥٨) فى ترجمة السمرقندى .

(محمد بن أحمد) بن أبى أحمد أبو بكر علاء الدين السمرقندى صاحب تحفة الفقهاء أستاذ صاحب البدائع ، شيخ كبير فاضل ، جليل القدر ، تفقّه على أبى المعين ميمون المكحولى ، وعلى صدر الإسلام أبى اليسر البزدوى ، وكانت ابنته فاطمة الفقيهة العلامة زوجة علاء الدين أبى بكر صاحب البدائع ، وكانت تفقّهت على أبيها وحفظت تحفته ، وكان زوجها يخطىء فترده إلى الصواب ، وكانت الفتوى تأتى فتخرج وعليها خطّها وخط أبيها ، فلما تزوجت بصاحب البدائع كانت تخرج وعليها خطّها وخط أبيها وخط زوجها .

٢٤٤ — وقيل أنفذ عثمان بن عفان رضى الله عنه بمائة دينار إلى

أبي ذر الغفاري رضى الله عنه ، وقال لغلامه : إن قبل ذلك فأنت حر ، فحملها إليه فلم يقبل . فقال : اقبل ففيه عتقى ، فقال أبو ذر : إن كان فيه عتقك ففيه رقي (١) .

٢٤٥ — قال وكيع : قال لى أبو حنيفة : ما ملكت أكثر من أربعة آلاف منذ أربعين سنة إلا أخرجته « أى الأكثر » وإنما أمسك الأربعة لقول على كرم الله وجهه : « أربعة آلاف ودونها نفقة » ولولا أنى أخاف أن أحتاج إلى هؤلاء ما أمسكت منها درهماً واحداً .

٢٤٦ — وقد تواتر عن أبى حنيفة رحمة الله عليه أنه كان يتجر فى الخز مسعوداً ماهراً فيه . وله دكان فى الكوفة وشركاء يسافرون له فى شراء ذلك ، ويبيعه مستغنياً بنفسه لا تميل إلى طمع ، ومن ثمّة قال الحسن ابن زياد : والله ما قبل لأحد منهم — أى الخلفاء والأمراء جائزة ولا هدية . ووصل إليه من المنصور ثلاثون ألف درهم فى دفعات فقال له : يا أمير المؤمنين إنى ببغداد غريب ، وعندى ودائع الناس ، وليس لها عندى موضع ، فاجعلها فى بيت المال ، فأجابه . فلما مات أخرجت ودائع الناس من بيت المال فرأوها ، فقال المنصور : خدعنا أبو حنيفة(٢) .

٢٤٧ — لما حج الرشيد ، رغب إلى أبى يوسف القاضى وهو بالكوفة أن يأتيه المحدثون فيحدثوه ، فتخلّف عبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس فركب الأمين والمأمون إلى ابن ادريس فحدثهما بمائة حديث ، فقال المأمون : يا عم أتأذن لى أن أعيدها من حفظى ؟ قال : افعل ، فأعادها ، فعجب من حفظه ثم صار إلى عيسى بن يونس فأمر المأمون له بعشرة آلاف فأبى أن يقبلها وقال : ولا شربة ماء(٣) .

---

(١) المخزون ص ٦٦ .

(٢) خيرات .

(٣) تذكرة الحفاظ .

٢٤٨ — أراد المكتفي أن يقف وقفا يجتمع عليه أقاويل العلماء ، فأحضر ابن جرير فأملى عليهم كتاباً لذلك ، فأخرجت له جائزة ، فلم يقبلها ، فقيل له : فلا بد من قضاء حاجة ؟ قال : أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة ، ففعل ذلك .

٢٤٩ — والتمس منه الوزير ، فكتب له فى الفقه كتاب « الخفيف » فوجه له ألف دينار فردها(١) .

٢٥٠ — لما ورد أبو نصر الفارابى على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء فى جميع المعارف ، أدخل عليه وهو بزى الاتراك ، وكان ذلك زيه دائماً ، فوقف ، فقال له سيف الدولة : اقعد ، فقال : حيث أنا أم حيث أنت ؟ فقال : حيث أنت ، فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارهم به قل أن يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وإني سائله عن أشياء إن لم يوف بها فأخرقوا به ، فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير اصبر ، فإن الأمور بعواقبها ، فعجب سيف الدولة منه ، وقال له : أتحسن هذا اللسان؟ فقال : نعم ، أحسن أكثر من سبعين لساناً ، فعظم عنده ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين فى المجلس فى كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك فى أن تأكل ؟ فقال : لا ، فقال : فهل تشرب ؟ فقال : لا ، فقال : فهل تسمع ؟ فقال : نعم . فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر فى هذه الصناعة بأنواع الملاهى

(١) تذكرة .

فلم يحرك أحد منهم آلته إلا عابه أبو نصر وقال : أخطأت ، فقال له سيف الدولة : وهل تحسن فى هذه الصنعة شيئاً ؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها ، وأخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها ضرباً آخر فنام كل من كان فى المجلس حتى البواب فتركهم نياما وخرج — فترى الفارابى من عزته لم ير مكانه إلا على مجلس الأمير .

عزة العلم

٢٥٠ — عزة العلم أو العزة بالعلم هى المرتبة الثانية من مراتب الكمال البشرى ، والرتبة الأولى هى مرتبة النبوة وهذه لا تنال ولا تدرك ، وإنما هى اصطفاء إلهى وهبة ربانية يختص بها من يشاء من عباده بعد أن يهيئه لتلقيها ويعده بآلائها ليكون رسوله ومهبط وحيه ، والأسوة فى خلقه

أما العلم فعزته مدركة ، وغايته فى منال الطلاب ، وصوب السباق للسبّاق . فنهم من وصل ومنهم من قارب ومنهم من اساقط فى الجولة أو خار عزمه فى المضمار

والعلم هو القوة التى ألقاها الله فى الكون وسخر بها الكون ، وخلقها ليحوزها الإنسان بعد أن سواه بحواسه لتنفذ منها هذه القوة إلى عقله فيتصرف بها وبمرانه يصرّفها — وعلى مقادير المواهب الخلقية والرياضة العملية تكون سعة الحوز وسلطة التصرف بهذه القوة ، حتى أصبح الإنسان بها

أعز من فى الكون على ما فى الكون ، وحتى قال الحق تعالى : خلق لكم ما فى الأرض جميعاً فكان هذا الكوكب الأرضى مخلوقاً لابن آدم ، يطيعه ويطبعه ويسيره بهذه القوة التى امتن الله بها على الإنسان إذ خلقه لينالها كما خلقها لتنفعه وترفعه فقال جل من قائل : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ثم غاير الحق تعالى بين الإنسان المستفيد ، والإنسان البليد فقال : (قل ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب) وفى حصره التذكر فى أولى الألباب إشارة صريحة إلى قشور العلوم وإلى الذين يتعلقون بهذه القشور أنها لاتغنى عن الألباب ولاتقفهم من مكانة العزة العلمية التى يلقى المتصدرون عليها أنظارهم على هذا الكون نظرات الحوط والعزة ، ونظرات الاستكناه والخبرة ، فهم وإن انتفى التساوى بينهم وبين من لايعلمون ، هم دون العزة ومرتبتها فهى قد اختصت بأولى الألباب أو اختصوا بها

العلم الذى صهر الحديد ، وقطع الصخر ، وثقب الألماس ، وطار بالإنسان فى جو السماء ، وغاص به تحت طبقات الماء ، ونقل أصواته وصوره بل نقله هو وثقله إلى بلد لم يكن ببالغه إلا بشق الأنفس — العلم الذى حفظ الروح والجسد وعمل على بقائهما ، وبين السبل لسعادتهما ، هو صاحب تلك العزة التى لها أمثال وظواهر ووقائع وأسانيد ومشاهد، هيهات أن نحفظها ونرويها أو ندونها ونكتب فيها ، فهى تعجز الأسفار وتضيق بها الدفاتر ولكنا نورد منها أمثلة مخطوفة تتراءى لك فيما يتلو من أبواب هذا الكتاب

٢٥٢ — قال ابن القيم : إن سيدنا سليمان بن داود لما توعد الهدهد بأن

يعذ به عذاباً شديداً ، أو يذبحه ، إنما نجا منه بالعلم ، بل أقدم عليه فى خطابه بقوله: « أحطت بما لم تحط به خبرا » وهذا خطاب إنما جرأه عليه العلم ، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان على قوته بمثل هذا الخطاب ، لولا سلطان العلم(١) .

٢٥٣ قال النضر بن شميل : من أراد أن يشرف فى الدنيا والآخرة فليتعلم العلم ، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به فى دين الله ويكون بين الله وبين عباده(٢) .

٢٥٤ – وقال سفيان بن عيينة : أرفع الناس منزلة عند الله ، من كان بين الله وبين عباده ، وهم الأنبياء والعلماء

٢٥٥ – وقال سهل التسترى : من أراد أن ينظر إلى مجلس الأنبياء فلينظر إلى مجلس العلماء ، يجىء الرجل فيقول : يافلان إيش تقول فى رجل حلف على امرأته بكذا وكذا ؟ فيقول: طلقت امرأته ، ويجىء آخر فيقول : حلفت بكذا وكذا فيقول: ليس يحنث بهذا القول ،وليس هذا إلا لنبى أو عالم.

٢٥٦ – عكرمة بن عبد الله التابعى أحد فقهاء مكة الذى قال له ابن عباس: (انطلق فافت الناس) وسئل سعيد بن جبير: هل تعلم أحداً أعلم منك ؟ قال : عكرمة ، عكرمة هذا الذى أعزه العلم هذا العز ، كان عبداً مملوكاً لعبد الله بن عباس ، مات مولاه وهو على الرق ولم يعتقه فباعه ولده على بن عبد الله بن عباس ، من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار ، فأتى عكرمة مولاه عليا ، وقال له : ما خير لك ، بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار ! فاستقاله ، فأقاله ، فأعتقه

(١) ١٨٢ ج ١ مفتاح
(٢) ١٧٥ ج ١ مفتاح

٢٥٧ – وقال إبراهيم بن عمرو بن كيسان : أذكرهم فى زمان بنى مروان يأمرون فى الحج صائحاً يصيح ، لا يفتى الناس إلا عطاء ابن أبى رباح .

وعطاء هذا ، كان عبداً لامرأة من مكة ، أسود ، أعور ، أفطس ، أشلّ ، أعرج ثم عمى . مفلفل الشعر ، كأن أنفه باقلاّء . قال سليمان بن رفيع : دخلت المسجد الحرام والناس مجتمعون على رجل ، فاطلعت فإذا عطاء بن أبى رباح جالس كأنه غراب أسود اه .

٢٥٨ – هذا الغراب الأسود حكى صاحب (مفتاح دار السعادة ص ١٧٣) أن سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين جاءه هو وولداه فجلسوا إليه وهو يصلى ، فلما صلى انفتل إليهم وما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم ، ثم قال سليمان لابنيه ، قوما ، فقاما ، فقال يابنىّ لا تنيا فى طلب العلم فإنى لا أنسي ذلّنا بين يدى هذا العبد الأسود .

٢٥٩ – أبو العالية الرياحى التابعى المقرىء الذى قال فيه أبو بكر ابن أبى داود (ليس أحد أعلم بالقرآن بعد الصحابة من أبى العالية ثم سعيد بن جبير) كان مولى لامرأة من بنى رباح[1] .

قال أبو العالية هذا : كنت آتى ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش فيأخذ بيدى فيجلسنى معه على السرير ، فتغامز بى قريش ففطن لهم ابن عباس فقال ، كذا هذا العلم ، يزيد الشريف شرفا ، ويجلس المملوك على الأسرّة[2] .

---

(١) ص ٥٨ تذكرة الحفاظ

(٢) ١٧٣ ﺟ ١ مفتاح دار السعادة

٢٦٠ — وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص ، عنقه داخل فى بدنه ، وكان منكباه خارجين كأنهما زجّان ، فقالت أمه : يابنىّ ، لاتكون فى مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه ، المسخور به فعليك بطلب العلم ، فانه يرفعك ؛ فولى قضاء مكة عشرين سنة .

٢٦١ — وعمرو بن عبيد ، ذاك الذى أجمع الناس على إجلاله ورفعته عزّة العلم مقاما تنقطع دونه الأعناق ، أبوه كان يخلف أصحاب الشرط بالبصرة ويظهر أنه كان مبغوضاً فكان الناس إذا رأوا عمراً مع أبيه قالوا : (هذا خير الناس ابن شر الناس) . وهنا تنثنى كرامة الأبوّة لعزّة العلم ؛ فان عبيداً كان إذا سمعهم ، يقول : صدقتم : هذا إبراهيم وأنا آزر اه . وإنى ألفت النظر إلى سموّ الوسط الإسلامى فى ذلك الزمن ، فهو لم يشين الابن بالأب ، ولا أدخل نسب الوالد فى قيمة الابن ، وهذا هو التشجيع الذى يقدمه المجتمع الراقى للفرد المجتهد .

٢٦٢ — وبمناسبة هذا ننقل عن كتاب « الأغانى » ما ذكره عن نابغة الموسيقى فى المسلمين أجمعين « اسحق بن إبراهيم الموصلى » أن أباه إبراهيم الموصلى ، وشيخه « ابن جامع » كانا يضطران إلى الأخذ عنه مع مالهما من السبق فى هذا المضمار ، ولكن اسحق بما أوتيه من اختراع وإبداع عزّه علمه حتى اضطر الأب العظيم والشيخ الكريم إلى الأخذ عنه (١) .

٢٦٣ — حدثنا عيسى بن حماد سمعت الليث يقول : حججت أنا وابن لهيعة فرأيت نافعاً مولى ابن عمر ، فدخلت معه إلى دكان علاف فحدثنى ، فمرّ بنا ابن لهيعة فقال : من هذا ؟ قلت : مولى لنا ، فلما رجعنا إلى

---

(١) ٥٠ جـ ٥ أغانى .

مصر جعلت أحدّث عن نافع ، فأنكر ذلك ابن لهيعة ، وقال : أين لقيته ؟ قلت : أما رأيت العبد الذى فى دكان العلاف ؟هو ذاك — فهذا الإمام الليث يختلف إلى نافع العبد مولى ابن عمر ، يختلف إليه فى دكان علاف لينفس إذا عاد إلى مصر فحدث بما رواه عن نافع . وابن لهيعة القاضى المحدث الكبير يرى هذه العزة ينالها الإمام الليث فيبهت ويسائله من أين نالها ، وكانا معاً ، فيدله على تلك الواقعة التى حدثت لهما وورّى فيها الإمام الليث عن نافع بأنه (مولى لنا) وكلمة مولى كلمة مطّاطة تتسع لصدق الإمام ونهجه للاعتزاز بعلم نافع وباسمه الذى يرنّ فى بلاد الإسلام ثم يلاقى فى دكان العلاف حتى ليمر به من يراه ولا يعرفه .

٢٦٤ — القاضى ابن عبد الوهاب الفقيه الأديب الذى قال فيه ابن بسام : إنه كان بقية الناس ولسان أصحاب القياس ، ولم يجد رغيفين ببغداد ليأكلهما في اليوم ففارقها لا عن قلى وودعها وهو يقول :

وكانت كخِلٍّ كنت أهوى دنوّه وأخلاقه تنأى به وتخالف

حدث أنه يوم فصل من بغداد أن ودعه أكابرها ، وخرج لتشييعه أصحاب المحابر والأقلام وطوائف كثيرة من الأنام ، فاعتذر إليهم وهو راحل ، بأنه لو وجد الرغيفين كلّ غداة وعشيّة ماعدل عن بلدهم لبلوغ أمنية وورد مصر فحمل لواءها وملأ أرضها وسماءها وتناهت إليه الغرائب فانثالت فى يديه الرغائب ٣٨٣ هـ — فهذا العالم الذى لا يجد رغيفين ! وجد عزة العلم تحفّه وتحمل له أعاظم عصره يشيّعونه من غير أن يؤثر سلطان الفقر فيما يجب لعزّته — ولا بأس أن نستطرد فى قصّة الدنيا مع هذا العالم فإنه لما ورد مصر وأقبلت عليه الدنيا مات لأوّل ما وصلها فزعموا أنه قال وهو يتقلّب : (لا إله إلا الله إذا عشنا متنا) .

٢٦٥ – وكان الإمام مالك إذا أراد أن يحدّث ، توضأ ، وجلس على صدر فراشه ، وسرح لحيتـه ، وتمكن فى جلوسه بوقار وهيبة ، ثم حدّث ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أحبّ أن أعظّم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدّث به إلا متمكناً على طهارة ، وكان يكره أن يحدّث على الطريق ، أو قائماً ، أو مستعجلا ، ويقول : أحبّ أن أتفهّم ما أحدّث به عن رسول الله ﷺ ، وكان لا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه ، ويقول : لا أركب فى مدينة فيها جثّة رسول الله ﷺ مدفونة .

٢٦٦ – قال أحمد بن اسحاق التسترى : دخل أحمد بن أبى داوٗد على الواثق بالله ، فقال له الواثق : يا أبا عبد الله ، إنى حنثت فى يمين فما كفارتها ؟ فقال : مائة ألف دينار ، فقال ابن الزيّات : والله ما سمعنا بهـذا فى الكفارات ، إنمـا قال الله جلّ وعزّ : وتلا الآية فى كفّارة الأيمان ، فقال أحمد : تلك كفّارة مثله فى بعد همّته وجلالة قدره أو مثل آبائه ، إنما تكون كفارة اليمين على قدر جلال الله فى قلب الحالف بها ، ولا نعلم أحداً الله جلّ وعزّ فى قلبه أجلُّ من أمير المؤمنين ، فقال الواثق : تحمل إلى أبى عبد الله يتصدّق بها . فانظر إلى عزّة العلم وكيف يفتى بها العالم العزيز لمستفتيه العظيم .

٢٦٧ – ولما دخل « على الرضا » نيسابور كما فى تاريخها وشقّ سوقها وعليه مظلّة لا يرى من ورائها ، تعرّض له الحافظان ، أبو زرعة الرازى ، ومحمد بن أسلم الطوسى ومعهما من طلبة العلم والحديث مالا يحصى ، فتضرعا إليه أن يريهم وجهه ويروى لهم حديثاً عن آبائه . فاستوقف البغلة وأمر غلمانه بكشف المظلة وأقرّ عيون تلك الخلائق برؤية طلعته المباركة ، فكانت له ذوٗابتان مدليتان على عاتقه ، والناس بين صارخ وباك ومتمرّغ فى التراب

ومقبل الحافر بغلته ، فصاحت العلماء : معاشر الناس أنصتوا ، فأنصتوا ، واستملى منه الحافظان المذكوران : فقال ، حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال : حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حدثني جبريل قال : سمعت رب العزة يقول : لا إله إلا الله حصني ، فمن قالها دخل حصني ، ومن دخل حصني أمن من عذابي ، ثم أرخى الستر وسار ، فعد أهل المحابر والدوي الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً . وفي رواية أن الحديث المروي . الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ، ولعلهما واقعتان.(١)

٢٦٨ — وهذا الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الذي طلب العلم فطلبته الوزارة ، ظل يباهي بعزة العلم ، ولا يرى أصله بمنتقصها فكان يقول وهو وزير :(نزلت يوماً إلى دجلة وليس معي رغيف أعبر به)(٢) .

٢٣٩ — واليك قصة أخرى يقصها قاضي القضاة في زمن الرشيد كيف كان فقيراً فطلب العلم فأجلسه العلم مع الرشيد وأكل على مائدته الفالوذج بدهن الفستق ، قال علي بن الجعد : أخبرني أبو يوسف (أبو يوسف أول من دعي بقاضي القضاة في الإسلام) قال : توفي أبي ابراهيم بن حبيب وخلفني صغيراً في حجر أمي ، فأسلمتني إلى قصار أخدمه ، فكنت أدع القصار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع ، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار ، وكان (أبو حنيفة) يعني

---

(١) ١٨٠ الصواعق المحرقة .

(٢) ١١٥ مقدمة الافصاح عن معاني الاصحاح .

بى لما يرى من حضورى وحرصى على التعلم ، فلما كثر ذلك على أمى وطال عليها هربى ، قالت لأبى حنيفة: ما لهذا الصبى فساد غيرك ، هذا صبى يتيم لا شىء له وإنما أطعمه من مغزلى وآمل أن يكسب دانقا يعود به على نفسه ، فقال لها أبو حنيفة : مرىّ يا رعناء ، هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق ، فانصرفت عنه وقالت له : أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، ثم لزمته فنفعنى الله بالعلم ورفعنى حتى تقلدت القضاء وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته ، فلما كان فى بعض الأيام قدّم إلى هارون فالوذجة ، فقال لى هارون: يا يعقوب كل منه فليس كل يوم يعمل لنا مثله . فقلت : وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه فالوذجة بدهن الفستق ، فضحكت ، فقال : لى مم ضحكت ؟ فقلت :خيراً أبقى الله أمير المؤمنين قال : لتخبرنى — وألحّ علىّ — فخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها ، فعجب من ذلك وقال : لعمرى إن العلم ليرفع وينفع ديناً ودنيا. وترحم على أبى حنيفة وقال: كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه .

٢٧٠ — وهذا لسان من ألسنة العلم يخاطب الخليفة ، صدّر القاضى أبو يوسف كتابه فى الخراج بهذه الكلمة :

قال : أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وأدام له العز فى تمام من النعمة ، ودوام من الكرامة ، وجعل ما أنعم به عليه موصولا بنعيم الآخرة الذى لا ينفد ولا يزول ومرافقة النبى صلى الله عليه وسلم . إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألنى أن أضع له كتابا جامعاً يعمل به فى جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالى (جمع جالية وهى الجزية) وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم وفق الله أمير المؤمنين

وسدّده وأعانه على ماتولى من ذلك وسلمه مما يخاف ويحذر ، وطلب أن أبين له ماسألنى عنه مما يريد العمل به وأفسره وأشرحه : وقد فسرت ذلك وشرحته . يا أمير المؤمنين إن الله ، وله الحمد ، قد قلدك أمراً عظيما ، ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب ، قلّدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم ، وليس يلبث البنيان إذا أسّس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه ، فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة فى العمل بإذن الله ، لاتؤخر عمل اليوم إلى غد فإنك إذا فعلت ذلك أضعت . إن الأجل دون الأمل فبادر الأجل بالعمل فانه لاعمل بعد الأجل . إن الرعاة مؤدّون إلى ربهم ما يؤدى الراعى إلى ربه ، فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فان أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدتْ به رعيته ، ولا تزغ فتزيغ رعيتك ، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى ، وكن من خشية الله على حذر واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد ولا تخف فى الله لومة لائم ، واحذر فان الحذر بالقلب وليس باللسان ، واتق الله فإنما التقوى بالتوقى ومن يتق الله يقه ، واعمل لأجل مفضوض وسبيل مسلوك وطريق مأخوذ وعمل محفوظ ومنهل مورود ، فإن ذلك المورد الحقّ والموقف الأعظم الذى تطير فيه القلوب وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافون عقوبته ، وكأن ذلك قد كان ، فكفى بالحسرة والندامة يومئذ فى ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل ، يوم تزلّ فيه الأقدام وتتغير

فيه الألوان ويطول فيه القيام ويشتد فيه الحساب ، يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه : (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون) وقال تعالى: (هذا يوم الفصل ، جمعناكم والأولين) وقال تعالى (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) وقال تعالى (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وقال : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيّة أو ضحاها) فيالها من عثرة الأثقال ، ويالها من ندامة لاتنفع ، إنما هو اختلاف الليل والنهار يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود ، ويجزى الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب فالله الله ، فإن البقاء قليل ، والخطب خطير والدنيا هالكة وهالك من فيها والآخرة هى دار القرار ، فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين ، فان ديّان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولايدينهم بمنازلهم ، وقد حذّرك الله فاحذر ، فإنك لم تخلق عبثاً ولن تترك سدى ، وأن الله سائلك عما أنت فيه وعمّا عملت به فانظر ما الجواب ، واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدى الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن علمه ما عمل فيه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسده فيم أبلاه » فأعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها ، فان ما عملت فأثبت فهو عليك غداً يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله فى مجمع الأشهاد ، وإنى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لاتنظر فى ذلك إلا إليه وله فإنك إن لاتفعل تتوعّر عليك سهولة الهدى وتعمى فى عينيك وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه وتنكر منه ما تعرف وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها لا عليها ، فان الراعى المضيع

يضمن ماهلك على يديه مما لو شاء ردّه عن أماكن الهلكة باذن الله وأورده أماكن الحياة والنجاة . فاذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضر ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ووفاه الله أضعاف ما وفى له ، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفى ربها حقها منك ، ويضيعك بما أضعت أجرك ، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم ، وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره ، وعليك ما ضيعت منه فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنسى ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفل عنك ، ولا يضيع حظك من هذه الدنيا فى هذه الأيام والليالى كثرة تحريك لسانك فى نفسك بذكر الله تسبيحا وتهليلا وتحميداً والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وإمام الهدى صلى الله عليه وسلم وإن الله بمنه ورحمته وعفوه جعل ولاة الأمر خلفاء فى أرضه وجعل لهم نوراً يضىء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم ، وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود وردّ الحقوق إلى أهلها بالتثبّت والأمر البيّن ، وإحياء السنن التى سنّها القوم الصالحون أعظم موقعا ، فان إحياء السنن من الخير الذى يحيا ولا يموت وجور الراعى هلاك للرعية ، واستعانته لغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة ، فاستتمّ ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها ، فان الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز (لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) وليس أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد ، والعمل بالمعاصى كفر النعم ، وقلّ من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم ، وسلط الله عليهم عدوهم ، وإنى أسأل الله يا أمير المؤمنين الذى

من عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك فى شيء من أمرك إلى نفسك وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه فإنه ولىّ ذلك والمرغوب إليه فيه ، وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته لك وبينته ، فتفقهه وتدبره وردّد قراءته حتى تحفظه فإنى قد اجتهدت لك فى ذلك ، ولم آلك والمسلمين نصحاً ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه ، وإنى لأرجو إن عملت بما فيه من البيان أن يوفّر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيتك ، فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم ، وبالتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم ، وكتبت لك أحاديث حسنة فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه مما تريد العمل به إن شاء الله ، فوفقك الله لما يرضيه عنك وأصلح بك وعلى يديك .

٢٧١ — أقول : سمع هذه « التصديرة » صديقنا الأستاذ عبد الرحمن جميعى ، والكتاب ماثل للطبع ، فاستعظم أن يوجّه مثل هذا الكلام للرشيد ، فابتدره صديقنا القاضى الشيخ محمود عرنوس وأحضر كتاب « المكافأة » لأحمد بن يوسف أحد كتّاب الدولة الطولونية وفيه يقصّ حديث تمكّن أبى يوسف من الرشيد ، وسببه ما كان قد همّ به « الهادى » من خلعه والعهد إلى ابنه فثناه القاضى ، وكان « المهدى » أبوهما ألزمه له ، ثم سُعى بالرشيد إليه فنفى الوشاية عنه وضمن ولاءه وطاعته له ، وكان الرشيد أقام « مسروراً » للتجسس على الهادى لما قام بنفسه من الخوف منه ، فلما أفضت الخلافة للرشيد أنبأ أبا يوسف بما حصل ، فعجب كيف بلغه ولم يكن معهما ثالث ؟ وقال الرشيد له فى ذلك : (لو جاز لى إدخالك فى نسبى ، ومشاركتك فى الخلافة المفضاة إلىّ ، لكنت حقيقاً به الخ [1] فانظر إلى عزّة أمانة العلماء إذ حافظ أبو يوسف فى غيبة الرشيد عليه لله فمكّنه الله بها ، هذا التمكن ونوّاله العزّ كله .

(١) ص ٥٤ .

بالتعليم أرسلت

٢٧٢ — ولقد سجل هذه العزة للعلم سيّد المعلّمين ومعلّم الأميين بقوله عليه السلام: «بالتعليم أرسلت» وهي الكلمة التي وضعها تاجا مؤتلقاً على رءوس العلماء والمدرسين ، فقد روى ابن ماجه في سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان ، مجلس يتفقهون ، ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه، فقال: كلا المجلسين إلى خير ، أما هؤلاء فيدعون الله ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل ، هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت ، ثم قعد معهم[1] .

٢٧٣ — وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (بلّغوا عني ولو آية) قال ابن القيم : لو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه ﷺ لكفى به فضلا ، ومعلوم أنه لا شيء أحب إليه من إيصال الهدى إلى جميع الأمة ، فالمبلغ عنه نائبه وخليفته في أمته وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم وأهله .

٢٧٤ — ويذكر عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه مرّ بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبياعاتهم فقال : أنتم ههنا فيما أنتم فيه وميراث رسول الله ﷺ يقسم في مسجده ؟ فقاموا : سراعاً إلى المسجد فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم ، فقالوا أين ما قلت يا أبا هريرة ؟ فقال: هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته ، وليس بمواريثكم ودنياكم ، أو كما قال[2]

---

(١) مفتاح .

(٢) ص ٧١ ج ١ مفتاح .

٢٧٥ – أخرج الطبراني بسند حسّنه الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ثلاثة لا يستخفّ بهم إلا منافق ، ذو الشيبة في الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط . وأخرج أحمد باسناد حسن (ليس من أمتي من لم يجلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا) .

٢٧٦ – وإليك حديثاً ، يجعل العلم في مكان العزة ، ويرفع العلماء مقام التشريف ويضع « تقليده » بين السكون والأدب . أخرج الطبراني عنه صلى الله عليه وسلم (تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار ، أو تواضعوا لمن تعلمون منه[1]) .

٢٧٧ – وأنقل وصفاً لحال الإسلام لما اطمأنت به عزّة العلم ، وعزّ فيه العلماء من تذكرة الحافظ الذهبي يقول بعد أن ذكر رجال الطبقة الخامسة من أهل الحديث :

وفي زمان هذه الطبقة كان الإسلام وأهله في عزّ تام وعلم غزير ، والقوّالون بالحقّ كثير والعباد متوافرون ، والناس في بُلَهْنِيَة من العيش وكثرة الجيوش المحمدية من أقصى الغرب وجزيرة الأندلس إلى قرب مملكة الخطا وبعض الهند ، وكان في هذا الوقت من الصالحين مثل إبراهيم ابن أدهم وداود الطائي وسفيان الثوري ، ومن القراء : كحمزة وأبي عمرو ابن العلاء ، ومن الفقهاء كأبي حنيفة ومالك والأوزاعي رحمة الله عليهم أجمعين .

٢٧٨ – ولعزة العلم حرص العلماء على النسبة إليه ، واشتدوا في الحرص على صدق هذه الأنساب والتغالي بها حتى ألف علماء رسائل

---

(١) ص ٦٦ ابن حجر .

خاصة بأسانيدهم وذكر شيوخهم ، وفنّ الرواية فى الإسلام فنْ جرت فيه الأقلام وفنيت فى طلبه أعمار ، وبذلت جهود ، إذ كان السند هو مفتاح الثقة . والحلقة الواحدة فى سلسلة الرواية لها أثر فى موضوع الرواية ، وقد بقى تقليد العلماء فى حفظ أنساب العلم كما تحفظ أنساب الآباء إلى عصر قريب ، وإنى أورد هنا إجازة والدى رحمه الله التى أجازه بها أستاذه الشيخ إبراهيم السقا منقولة بالزنكوغراف .

سلطان العلم

٢٧٩ – هذه العزة التى للعلم غلب سلطانها ، فسعى للتقرّب منه السلاطين ، وغلت قيمتها فتنافس في تحصيلها المتنافسون ، وأقرّ بها ذوو السلطان حتى تمنّوها ، وودّوا لو يكونون أهلها وأصحاب زمامها ، وانخرط السادة فى الغمار لها ، فدرجوا في سبيلها بزىّ رجالها ، حتى روى عن المأمون أنه كان فى مجالس العلم يلبس زىّ العلماء ولا يتخير فيه على الخلطاء والنظراء ، إعلاء لكلمة العلم وإعزازا للعلماء .

٢٨٠ – قال ابن القيم بعد أن ذكر الروايتين في تفسير قوله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) إن أولى الأمر العلماء أو الأمراء ، قال : والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم ، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء ، فان الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم ، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء[1] .

٢٨١ – وقال عمر بن عبد العزيز : لأن يكون لى مجلس من عبيد الله (أحد القراء السبعة) أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها ، وقال : والله إنى لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله بألف دينار من بيت المال ، فقالوا يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحرّيك وشدة تحفظك ؟ فقال : أين يذهب بكم والله إنى لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف ، إن فى المحادثة تلقيحاً للعقل وترويحاً للقلب وتسريحاً للهمّ وتنقيحاً للأدب .

---

(١) ص ١١ ج ١ الاعلام .

٢٨٢ — وقال يحيى بن أكثم : قال الرشيد ما أنبل المراتب ؟ قلت : ما أنت فيه يا أمير المؤمنين ، قال : فتعرف أجل منى ؟ قلت لا ، قال : لكنى أعرفه . رجل فى حلقة يقول حدثنا فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله ، قال : قلت يا أمير المؤمنين أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله وولى عهد المؤمنين ؟ قال : نعم ويلك هذا خير منى ، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله لايموت أبدا ، ونحن نموت ونفنى ، والعلماء باقون مابقى الدهر اهـ .

٢٨٣ — وقال حنتمة بن سليمان : سمعت ابن أبى الحناجر يقول : كنا فى مجلس يزيد بن هارون والناس قد اجتمعوا إليه ، فمرّ أمير المؤمنين فوقف علينا فى المجلس وفى المجلس ألوف فالتفت إلى أصحابه وقال : هذا الملك .

٢٨٤ — كان المأمون قد وكل الفرّاء ليلقن ابنيه النحو ، ففى ذات يوم أراد الفرّاء أن ينهض إلى حوائجه فابتدرا إلى نعل الفرّاء ليقدماها له فتنازعا ، أيهما يقدمها له ؟ ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة . وكان للمأمون وكيل على كل شىء خاص ، فرفع ذلك إليه فى الخبر ، فوجه إلى الفراء واستدعاه . فلما دخل عليه . قال له : من أعز الناس ؟ فقال : لا أعرف أحداً أعزّ من أمير المؤمنين . فقال : بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليّا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فرداً . فقال : ياأمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقاً إليها ، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها[1].

---

(١) ص ٣٠ من كتاب نزهة الاولياء .

٢٨٥ — قدم هرون الرشيد « الرّقة » فانجفل الناس خلف عبد الله ابن المبارك وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب ، فلما رأت الناس ، قالت : ماهذا ؟ قالوا عالم أهل خراسان قدم « الرقة » يقال له عبد الله بن المبارك ، فقالت هذا والله الملك ، لا ملك هرون الذى لايجمع الناس إلا بشرط وأعوان .

٢٨٦ — عن العتبى عن أبيه قال : ابتنى معاوية بالأبطح مجلساً ، فجلس عليه ومعه ابنه « قـرَظة » فاذا هو بجماعة على رحال لهم ، وإذا شابّ منهم قد رفع عقيرته يتغنى :

من يساجلنى يساجل ماجدا يملأ الدلو إلى عقد الكـرَب

قال من هذا ؟ قالوا : عبد الله بن جعفر ، قال : خلّوا لهالطريق ثم إذا هو بجماعة فيهم غلام يتغنّى :

بينما يذكرننى أبصرننى عند قيد الميل يسعى بى الأغر

قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

قال من هذا؟قالوا : عمر بن أبى ربيعة ، قال : خلّوا له الطريق فليذهب قال ثم إذا هو بجماعة وإذا فيهم رجل يُسأل فيقال له رميت قبل أن أحلق ، وحلقت قبل أن أرمى فى أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج فقال من هذا ؟ قالوا : عبد الله بن عمر ، فالتفت إلى ابنه قرظة وقال : هذا وأبيك الشرف ، هذا والله شرف الدنيا والآخرة(١).

٢٨٧ — قال فى (حسن المحاضرة) : كان السلطان صلاح الدين يواظب

(١) ص ١٧٤ — ١٧٥ مفتاح دار السعادة .

سماع الحديث حتى إنه سمع فى بعض المصافّات جزءاً وهو بين الصفين وتبجح بذلك وقال : هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثاً .

٢٨٨ — ورحل إلى الاسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من أبي طاهر السلفى ، قال السيوطى : ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد ، فانه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ(١).

٢٨٩ — قال السيوطى : كان الملك الكامل معظّما للسنّة وأهلها ، قال الذهبي : وكانت له إجازة من أبي طاهر السلفى محدّث الإسكندرية ، وخرج له أبو القاسم بن الضفراوى أربعين حديثاً سمعها من جماعة .

٢٩٠ — وسمع الوزير نظام الملك الحديث وأسمعه ، وكان يقول : إنى لأعلم أنى لست أهلا لذلك ولكنى أريد أن أربط نفسى في قطار النقلة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الوزير كان من أولاد الدهاقين بنواحى طوس ، واشتغل بالحديث والفقه ثم اتصل بخدمة ألب أرسلان ووزر لابنه « ملكشاه » وبقي عشرين سنة صاحب الأمر كله وليس للسلطان إلا التخت : والصيد ، ودخل على الخليفة المقتدى فأذن له بالجلوس بين يديه .

* * *

٢٩١ — كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم : انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فان العلم لا يهلك حتى يكون سراً(٢) .

---

(١) ص ٢٦ جـ ٢ مفتاح

(٢) التجارى كتاب العلم .

٢٩٢ — وهذا ذكر للإمام مالك وسبب وضعه كتاب « الموطأ » بتقدم أبي جعفر المنصور إليه بعد أن اعتذر له عما كان من عامله على المدينة فيما صنعه بالامام مالك أثناء فتنتها ، وقد ساق القصة صاحب كتاب « الإمامة والسياسة » وفيها عجب من عزة العلم وإعزاز أهله ، وعجب من سعى السلطان لهم وتمسحه بأطرافهم واستحلابه أفاويق علمهم لأمتهم زلفى إلى تلك القوة التي لمعت من نور الله .

قال ابن قتيبة بعد أن ذكر هياج أهل المدينة على المنصور فى أول أمره: إنه أرسل اليهم ابن عمه جعفراً فاشتد فى أهل الخلاف وأخذ البيعة للخليفة فسعى حساده بالامام مالك إلى الأمير أنه يفتى بألاّ يمين على مكره فيحلّ بهذا ما أبرمتموه مما قام على الاستكراه ، فأراد أن يبدر فيه ، فقيل له: لا تبدر فإنه أكرم الناس على الخليفة ، فدسّ إلى مالك بعض ثقاته فأفتاه على طمأنينة منه ، فلم يشعر إلا ورسول جعفر فيه ، فأتوا به منتهك الحرمة وضربه سبعين سوطا أضجعته بعد انتهاء الفتنة ، وبلغ الخليفة هذا العمل بمالك فأعظمه إعظاماً شديداً وأنكره وكتب بعزل ابن عمه جعفر وأن يؤتى به على قتب من المدينة إلى بغداد ، وأراد استقدام مالك فاعتذر فكتب إليه أن يوافيه فى الحج القابل ، فوافاه به والتقيا بمنى ، ومن هنا يروى « مطرف » — وكان من كبار أصحاب مالك — قال. قال لى مالك لما صرت بمنى : أتيت السرادقات ، فأذنت بنفسى فأذن لى ثم خرج إلىّ الآذن من عنده فأدخلنى ، فقلت للآذن : إذا انتهيت بى إلى القبة التي يكون فيها أمير المؤمنين فأعلمنى ، فمر بى من سرادق إلى سرادق ومن قبة إلى أخرى فى كلها أصناف من الرجال بأيديهم السيوف المشهورة والأجزرة

المرفوعة حتى قال لى الآذن : هو فى تلك القبة ، ثم تركنى الآذن وتأخر عنى فمشيت حتى انتهيت إلى القبة التى هو فيها ، فإذا هو قد نزل عن مجلسه الذى يكون فيه إلى البساط الذى دونه ، وإذا هو قد لبس ثياباً قصيرة لا تشبه ثياب مثله تواضعاً لدخولى عليه ، وليس معه فى القبة إلا قائم على رأسه بسيف صلت ، فلما دنوت منه رحب بى وقرّب ، ثم قال : ها هنا إلىّ ، فأومأت للجلوس : فقال ها هنا ، فلم يزل يدنينى حتى أجلسنى اليه ولصقت ركبتى بركبتيه . ثم كان أول ما تكلم به أن قال : الله الذى لا إله إلا هو يا أبا عبد الله ما أمرت بالذى كان ولا علمته قبل أن يكون ولا رضيته إذ بلغنى (يعنى الضرب) قال مالك : فحمدت الله تعالى على كل حال وصليت على الرسول صلى الله عليه وسلم ثم نزهته عن الأمر بذلك والرضا به ، ثم قال : يا أبا عبد الله لا يزال أهل الحرمين بخير ماكنت بين أظهرهم ، وإنى أخالك أمانا لهم من عذاب الله وسطوته ، ولقد رفع الله بك عنهم وقعة عظيمة ، فإنهم ما علمت أسرع إلى الفتن وأضعفهم عنها قاتلهم الله أنى يؤفكون . وقد أمرت أن يؤتى بجعفر والله من المدينة على قتب وأمرت بضيق مجلسه والمبالغة فى امتهانه ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه . فقلت له : عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ثم منك ، قال أبو جعفر : وأنت فعفى الله عنك ووصلك ، قال مالك : ثم فاتحنى فيمن مضى من السلف والعلماء فوجدته أعلم الناس بالناس ثم فاتحنى فى العلم والفقه فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه وأعرفهم بما اختلفوا فيه ، حافظا لما روى ، واعياً لما سمع ثم قال لى : يا أبا عبد الله ، ضع هذا العلم ودونه ، ودون منه كتباً وتجنب شدائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن عباس وشواذ ابن مسعود واقصد إلى

أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ، ونبثها فى الأمصار ونعهد إليهم أن لا يخالفوها ولا يقضوا بسواها . فقلت له : أصلح الله الأمير إن أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون فى علمهم رأينا ، فقال أبو جعفر : يحملون عليه وتضرب عليه هاماتهم بالسيف وتقطع طى ظهورهم بالسياط ، فتعجل بذلك وضعها فسيأتيك محمد ابنى المهدى ، العام القابل إن شاء الله إلى المدينة ليسمعها منك فيجدك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله ، قال مالك : فبينما نحن قعود إذ طلع له بنى صغير من قبة بظهر التى كنا فيها ، فلما نظر إلى الصبى فزع ثم تمهقر فلم يتقدم ، فقال له أبو جعفر : تقدم يا حبيبى إنما هو أبو عبد الله فقيه أهل الحجاز ، ثم التفت إلى فقال يا أبا عبد الله أتدرى لم فزع الصبى ولم يتقدم ؟ فقلت : لا ، فقال : والله استنكر قرب مجلسك منى إذ لم ير به أحداً غيرك قط فلذلك قهقر ، قال مالك : ثم أمر لى بألف دينار عيناً ذهباً وكسوة عظيمة وأمر لابنى بألف دينار ، ثم استأذنته فأذن لى فقمت فودعنى ودعا لى ، ثم مشيت منطلقاً فلحقنى الخصى بالكسوة فوضعها على منكبى ، وكذلك يفعلون بمن كسوه وإن عظم قدره فيخرج بالكسوة على الناس فيحملها ثم يسلمها إلى غلامه . فلما وضع الخصى الكسوة على منكبى انحنيت عنها بمنكبى كراهة احتمالها وتبرؤاً من ذلك ، فناداه أبو جعفر بلغها رحل أبى عبد الله .

٢٩٣ — وذكروا أن مالك بن أنس لما أخذ فى تدوين كتبه ووضع علمه ، قدم عليه المهدى ابن أبى جعفر فسأله عما صنع فيما أمره به أبو جعفر فأتاه بالكتاب وهى كتب الموطأ ! فأمر المهدى بانتساخها ، وقرئت على مالك ، فلما أتم قراءتها أمر له بأربعة آلاف دينار ولابنه بألف دينار اه .

٢٩٤ – لما خرج الرشيد إلى الحجّ اصطحب معه عبد الله بن المبارك وفرغ الرشيد من مناسكه ورغب أن يرى « الفضيل بن عياض » وكان يتباعد عن رجال الحكم فتلطف ابن المبارك حتى جمع بينهما وجرى بينهما حديث طلى يطيب النفوس العظيمة ثم قام هارون للخروج فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين إنى أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا ، فقال الرشيد : أجل ، إنه ما قلت ، فلما قدم الرشيد العراق كان أوّل ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلها وإلى أمراء الأجناد ، أما بعد : فانظروا ، من التزم الأذان عندكم فاكتبوه فى ألف من العطاء ، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه فى ألفى دينار من العطاء ، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه فى العلم واستبحر فاكتبوه فى أربعة آلاف دينار من العطاء ، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم فإن الله تعالى يقول : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وهم أهل العلم . قال ابن المبارك : فما رأيت عالماً ولا قارئاً للقرآن ولا سابقاً للخيرات ولا حافظاً للمحرمات فى أيام بعد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم فى زمن الرشيد وأيامه لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين ، ولقد كان الغلام يستبحر فى الفقه والعلم ويروى الحديث ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة(١) .

٢٩٥ – كذلك استبق الأمراء إلى سلطان العلم وتغالوا فى النفقة على استجلابه والحصول على عزّته – فهذا يحي بن معين شيخ أهل الحديث

(١) ص ١٩٧ من الامامة والسياسة .

قاطبة وميزان الإسلام فى « الجرح والتعديل » كان أبوه معين ابن عون المرى من عمال الدولة الكبار خلّف له مليون درهم وخمسين ألف درهم فأنفقها يحيى كلها على الحديث ، وقد بلغ من بلوغ يحيى هذا فى علم الحديث المنزلة التى لا ترام أن قال أحمد بن حنبل : كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث .

٢٩٦ — وأكثر من هذا ما صنعته أم « ربيعة الرأى » شيخ الإمام مالك فإن هذه المرأة أنفقت على تعليم ولدها ثلاثين ألف دينار خلفها زوجها عندها وخرج إلى الغزو ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة ، وكانت أمه قد اشترتهما له بمال الرجل ، فأحمد الرجل صنيعها وأربح تجارتها فى قصة طليّة ساقها ابن خلكان قال : وكان فرّوخ أبو ربيعة خرج فى البعوث إلى خراسان أيام بنى أمية ، وربيعة حمل فى بطن أمه ، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً وفى يده رمح فنزل ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة وقال : يا عدو الله أتهجم على منزلى ؟ فقال فروخ يا عدو الله أنت دخلت على حرمى ؟ فتواثبا حتى اجتمع الجيران وبلغ مالك ابن أنس فاتوا يعينون ربيعة وكثر الضجيج وكل منهما يقول لا فارقتك فلما بصروا بمالك سكتوا فقال مالك : أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار ، فقال الشيخ : هى دارى وأنا فروخ ، فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت : هذا زوجى وهذا ابنى الذى خلفه وأنا حامل به ، فاعتنقا جميعاً وبكيا ودخل فروخ المنزل وقال : هذا ابنى ؟ فقالت : نعم قال أخرجى المال الذى عندك قالت : قد دفنته وأنا أخرجه ثم خرج ربيعة إلى المسجد وجلس فى حلقته فأتاه مالك والحسن وأشراف أهل المدينة وأحدق الناس به ،

فقالت أمه . لزوجها فروخ آخرج فصل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج فنظر إلي حلقة وافرة فأتاها فوقف عليها فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره وعليه قلنسوة طويلة فشك أبوه فيه فقال : من هذا الرجل ؟ فقيل : هذا ربيعة بن أبي عبدالرحمن ، فقال : لقد رفع الله ابنى ورجع إلى منزله وقال لوالدته ، لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحداً من أهل العلم والفقه عليها ، فقالت : أمه فأيما أحب إليك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه ؟ فقال : لا والله بل هذا ، فقالت : أنفقت المال كلّه عليه ، قال : فوالله ما ضيعته .

٢٩٧ — ولما ختم حمّاد (ولد أبي حنيفة) سورة الفاتحة أعطى أبوه المعلم خمسمائة درهم وفى رواية ألف درهم فقال : ما صنعت حتى أرسل إليّ هذا ؟ فأحضره واعتذر إليه ، وقال : لا تستحقر ما علمت ولدى والله لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيما للقرآن(١) .

٢٩٨ — لما حدّث أبو مسلم اللخمى أول يوم حدث فيه . قال لابنه : كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا ؟ قال : ثلاثمائة دينار ، قال : فرّقها على أصحاب الحديث والفقراء شكراً إن أباك اليوم شهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلت شهادته(٢) .

٢٩٩ — ولما أتمّ أبو الفرج الأصبهانى كتابه (الأغانى) وقدمه إلى سيف الدولة بن حمدان أعطاه ألف دينار واعتذر إليه في قلة العطاء .

٣٠٠ — قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى أعطيت « منصور زلزل » من مالى خاصة حتى تعلمت ضربه بالعود نحواً من مائة ألف درهم سوى ما أخذته له من الخلفاء ومن أبي إبراهيم(٣) .

---

(١) ص ٤١ خيرات .

(٢) ص ١٧٥ مفتاح .

(٣) ص ٥٢ ج ٥ أغانى .

وزلزل هذا الذى كان أوحد عصره فى ضرب العرد .

٣٠١ – وصنف الوزير ابن هبيرة كتاب الإفصاح عن معانى الصحاح فى عدة مجلدات فلما بلغ إلى حديث : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » شرح الحديث وانجرّ به الكلام إلى الفقه فذكر مسائله واختلافها واتفاقها فخرج به فى مجلد أفرد وحده وسمى باسم الكتاب – وهذا الكتاب – صنفه فى ولايته الوزارة واعتنى به وجمع عليه أئمة المذاهب وأوفدهم من البلدان إليه لأجله بحيث أنه أنفق على ذلك مائة ألف دينار وثلاثة عشر ألف دينار وحدّث به واجتمع الخلق العظيم لسماعه عليه ، وكتب به نسخة لخزانة المستنجد وبعث ملوك الأطراف ووزراؤها وعلماؤها فاستنسخوا لهم به نسخاً ونقلوها إليهم حتى السلطان نور الدين الشهيد ، واشتغل به الفقهاء فى ذلك الزمان على اختلاف مذاهبهم ، يدرسون منه فى المدارس والمساجد ويعيده المعيدون ويحفظ منه الفقهاء(١) .

٣٠٢ – وطلب سلطان عالمكير إلى مشهورى العلماء فى الهند أن يضعوا له كتاباً في فقه أبى حنيفة مرتباً على أبواب الفقه مضبوط المراجع فشمّروا عن سواعدهم وتتبعوا الكتب المحفوظة في داره السلطانية حتى أخرجوا الكتاب النفيس المشهور (بالفتاوى الهندية) وقد بذل السلطان لمؤلفيه على وجه الوظيفة والعطية ما بلغ من الفضة مائتى ألف روبية وقيمة الروبية إذ ذاك ١٢ قرشاً أى أربعة وعشرين ألف جنيه مصرى .

قال أدورد فنديك : وتنسب الفتاوي العالمكيرية هذه للملك آورنك زيب الهندى الملقب باسم عالمكير أى فاتح العالم الذى ملك من سنة ١٠٦٩ إلى سنة ١١١٩ هـ الموافقة سنة ١٦٥٨ إلى ١٧٠٧ م(٢) .

---

(١) ص ١١ مقدمة الافصاح .

(٢) ص ٤٦ اكتفاء القنوع بما هو مطبوع .

٣٠٣ - وقد أورد صاحب الخطط المقريزية فذلكة عن المدارس في الإسلام تريك أن القائم بها كان أرباب السلطان ، قال بعد أن أشار إلى « دار القراء » التي كانت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم :

ولما أراد الخليفة المعتضد بن الموفق بناء قصره في الشماسية ببغداد استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد ، فسئل عن ذلك ؟ فذكر أنه يريده ليبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير ، يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه .

والمدارس مما حدث في الإسلام ، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة ، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية ، وبنى بها أيضا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها المدرسة السعيدية أيضاً ، وبنى بها أيضا مدرسة رابعة .

وأشهر ما بنى في القديم المدرسة النظامية ببغداد ، لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم ، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي على الحسن ابن على الطوسي وزير ملكشاه بن الب أرسلان ، شرع في بنائها في ذي الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة وفرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي الشافعي فاقتدى الناس به في بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفي بلاد الجزيرة وديار بكر .

وأما مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة وإنما هم شيعة ، وأول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر ، كان فى خلافة العزيز بالله ووزارة يعقوب بن كلس فعمل ذلك بالجامع الأزهر ثم عمل فى دار الوزير يعقوب مجلس يحضره الفقهاء فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم ، وعمل أيضا مجلس بجامع عمرو بن العاص لقراءة كتاب الوزير ، ثم بنى الحاكم بأمر الله (دار العلم) بالقاهرة فلما انقرضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين ، أبطل مذاهب الشيعة وأقام مذهب الإمام الشافعى ومذهب الإمام مالك واقتدى بالملك العادل بن زنكى الذى بنى بدمشق وحلب وأعمالها عدة مدارس للشافعية والحنفية ، فبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر ، وأول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضا ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة ثم اقتدى السلطان صلاح الدين فى بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر وبالبلاد الشامية والجزيرة أولاده وأمراؤه ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم إلى يومنا هذا اه بتصرف(١) .

المدرسة الفاضلية — وننقل عما ذكره من المدارس ما جاء فى المدرسة الفاضلية قال : هذه المدرسة (بدرب ملوخيا(٢)) من القاهرة ، بناها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى بجوار داره فى سنة ثمانين وخمسمائة ووقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية والمالكية ، وجعل فيها قاعة للأقراء ،

---

(١) ص ١٩٢ ج ٤ المقريزى .

(٢) جهة « قصر الشوق » . وملوخيا اسم فراش الفاطمين الكبير نسب الدرب اليه .

أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطى ناظم الشاطبية ثم تلميذه أبو عبد الله محمد ابن عمر القرطبى ثم الشيخ على بن موسى الدهان وغيرهم ، ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامه الأسكندرانى ، ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم ، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد ، وذهبت كلها ، وكان أصل ذهابها أن الطلبة الذين كانوا بها لما وقع الغلاء بمصر فى سنة أربع وتسعين وستمائة ، والسلطان يومئذ الملك العادل « كتبغا » المنصورى ، مسهم الضر ، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز ، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب ، ثم تداولتها الأيدى بالعارية فتفرقت ، وبها إلى الآن مصحف قرآن كبير القدر جداً ، مكتوب بالخط الأول الذى يعرف بالكوفى ، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان ، ويقال : إن القاضى الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه . وهو فى خزانة مفردة له ، بجانب المحراب من غربية ، وعليه مهابة وجلالة ، وإلى جانب المدرسة كتاب برسم الأيتام ، وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها وقد تلاشت لخراب ما حولها(١) .

٣٠٤ – المدرسة النظامية – لا خلاف فى أن « نظام الملك » أول من اشتهر بانشاء المدارس فى الإسلام فى أواسط القرن الخامس للهجرة فبنى المدارس فى بغداد وأصبهان ونيسابور وغيرها ، وكل منها تنعت بالنظامية نسبة إليه ، أشهرها المدرسة النظامية فى بغداد ، تولى بناءها أبو سعيد الصوفى سنة ٤٥٧ على شاطىء دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها أسواقاً تكون محبّسة عليها ، وابتاع ضياعا وخانات وحمامات وقفها عليها ، فبلغت النفقة ما يقارب من ٦٠ ألف دينار(٢) .

---

(١) ص ١٩٧ ج ٤ .

(٢) ص ٢٠٣ التمدن الاسلامى .

٣٠٥ – أقول : فى يوم افتتاح المدرسة النظامية (١٠ ذى القعدة سنة ٤٥٩) حضر الوزير نظام الملك وجموع من الناس لسماع درس «الشيرازى» وقد رسم الوزير أن يتولى التدريس بها ، فلم يحضر الشيخ فأنفذ الوزير إلى العالم « ابن الصباغ » فقام مقامه ، ثم ظهر الشيخ فى مسجده ، وبان أنه امتنع من التدريس فيها لما بلغه عن حصول غصب فى بنائها ، فراجعه تلاميذه وألحّوا عليه أن يقبل سؤال الوزير ويدرس فيها فأجاب بعد أن ظل ابن الصباغ يدرس عشرين يوما ، وقام بالتدريس ، وكان إذا حان وقت الصلاة يخرج منها ويصلى فى بعض المساجد لما فى خاطره مما بلغه .

٣٠٦ – ولما قدم أبو طاهر أحمد السلفى إلى الاسكندرية بعد ما جاب البلاد وطاف الآفاق فى طلب الحديث ولم يكن له فى آخر عمره مثيل فى عصره ، وكان قدم فى البحر من « صور » سنة ٥١١ بنى له العادل بن السلار وزير الظافر العبيدى مدرسة فى الاسكندرية سنة ٥٤٦ عرفت باسمه ، وقصده الناس من سائر الأقطار وقد بقيت بعده إلى زمن القاضى ابن خلكان ويقول إنه لم ير مدرسة للشافعية بالاسكندرية خلافها .

٣٠٧ – ونختم الباب بقصتين ، أولاهما تدل على تحلّب شفاه سلطان يتمنى أن ينزل عن سلطانه لسلطان العلم ، والثانية تدل على تغلّب سلطان العلم على الحقد ، والحقد كما لا يخفى سلطان غالب ، ومنها يُقَدَّر طبيب العرب .

قال ابن فارس : سمعت الأستاذ ابن العميد يقول : ماكنت أظن أن فى الدنيا حلاوة ألذّ من الرياسة والوزارة التى أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبرانى وأبى بكر الجعابى بحضرتى ، فكان

الطبرانى يغلب الجعابى بكثرة حفظه وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته وزكاه أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه ، فقال الجعابى : عندى حديث ليس فى الدنيا إلا عندى فقال : هاته ، فقال حدثنا أبو خليفة حدثنا سليمان بن أيوب وحدث بالحديث ، فقال الطبرانى أنبأنا سليمان بن أيوب ومنّى سمع أبو خليفة ، فاسمع منّى حتى يعلو إسنادك فإنك تروى عن أبى خليفة عنّى ، فخجل الجعابى وغلبه الطبرانى ، قال ابن العميد : فوددت فى مكانى أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لى وكنت الطبرانى وفرحت مثل الفرح الذى فرح الطبراني لأجل الحديث أو كما قال[1] .

٣٠٨ — وقال ابن القفطى : من عجيب ما يحكى عن يعقوب بن إسحق الكندى المعروف أنه كان فى جواره رجل من كبار التجار موسع عليه فى تجارته ، وكان له ابن قد كفاه أمر بيعه وشرائه وضبط دخله وخرجه . وكان ذلك التاجر كثير الازراء على الكندى والطعن عليه ، مدمناً لتعكيره والإغراء به ، فعرض لابنه سكتة فجأة ، فورد عليه من ذلك ما أذهله ، وبقى لا يدرى ما الذى فى أيدى الناس وما هم عليه مع ما دخله من الجزع على ابنه فلم يدع بمدينة السلام طبيباً إلا ركب إليه واستركبه لينظر ابنه ويشير عليه من أمره بعلاج ، فلم يجبه كثير من الأطباء لكبر العلّة وخطرها إلى الحضور معه ، ومن أجابه منهم فلم يجد عنده كبير غناء فقيل له أنت فى جوار فيلسوف زمانه وأعلم الناس بعلاج هذه العلة فلو قصدته لوجدت عنده ما تحب ، فدعته الضرورة إلى أن تحمّل على الكندىّ بأحد إخوانه فثقّل عليه فى الحضور

---

(١) ص ١٧٤ مفتاح دار السعادة .

فأجاب ، وصار إلى منزل التاجر ، فلما رأى ابنه وأخذ مجسّه ، أمر بأن يحضر إليه من تلاميذه فى علم الموسيقى من قد أمعن فى الحذق بضرب العود وعرف الطرائق المحزنة والمزعجة والمقوّية للقلوب والنفوس ، فحضر إليه منهم أربعة نفر وأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه وأن يأخذوا فى طريقة أوقفهم عليها وأراهم مواقع النغم بها من أصابعهم على الدساتين ونقلها ، فلم يزالوا يضربون فى تلك الطريقة والكندى آخذ مجسّ الغلام وهو فى خلال ذلك يمتد نفسه ويقوى نبضه ويراجع إليه نفسه شيئاً بعد شيء إلى أن تحرك ثم جلس وتكلّم وأولئك يضربون فى تلك الطريقة دائماً لا يفترون ، فقال الكندي لأبيه : سل ابنك عن علم ما تحتاج إلى علمه مما لك أو عليك وأثبته ، فجعل الرجل يسأله وهو يخبره ويكتب شيئا بعد شيء ، فلما أتى على جميع ما يحتاج إليه غفل الضاربون عن تلك الطريقة التى كانوا يضربونها وفتروا فعاد الصبى إلى الحال الأولى وغشيه السكات ، فسأله أبوه أن يأمرهم بمعاودة ماكانوا يضربون به ، فقال : هيهات إنما كانت صبابة قد بقيت من حياته ولا يمكن فيها ماجرى ، ولا سبيل لى ولا لأحد من البشر إلى الزيادة فى مدة من انقطعت مدته إذ قد استوفى العطيّة والقسم الذى قسم الله له(١) .

٣٠٩ — وننتقل إلى المغرب المزهر ، فننقل عن « زهراء » الأستاذ محب الدين الخطيب نفحة من نفحات العلم وقد استولى سلطانه على قلب أكبر سلطان فى الأندلس « الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر » قال فى ص ١٤ : قال المقرّى : كان المستنصر عالما نبيها صافى السريرة

(١) ص ٢٤٦ اخبار العلماء .

أخذ العلم عن قاسم بن أصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد بن عبد السلام الخشني وزكريا بن - ط ب وأكثر عنه، وأجاز له ثابت بن قاسم، وكتب عن خلق كثير سوي هؤلاء، وكان يستجلب المصنّفات من الأقاليم والنواحى باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك، وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيّاً نسيج وحده، وكان ثقة فيما ينقله، وقلّما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن كان، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، قال ابن خلدون : وأرسل ألف دينار من الذهب العين ثمناً لنسخة من كتاب « الأغاني » سنة تأليفه، وكان نسب مؤلفه أبى الفرج فى بنى أميّة، فظهر كتاب الأغانى فى الأندلس قبل أن يظهر في العراق موطن المؤلف — وكانت « خزانة الكتب العلمية » فى الزهراء أيامه من أعظم خزائن الدنيا، روى « تليد الفتى » القيّم على هذه الخزانة فيما حدث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم، أن عدة الفهارس التى فيها تسمية الكتب ٤٤ فهرستاً فى كل فهرست ٢٠ ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط — اهـ .

٣١٠ — وهذا أمر من أوامر العلم يصدره بلسان عالم إلى أكبر ملك فى الإسلام قام بالأندلس أو كما يسمونها (البر الطويل) فأرى أهل الغرب عزة الإسلام وعظمة رجاله، هو « صقر قريش » الذى بهر بأعماله الحيّة فأراد أن يسجلها على وجه الدهر باقية للخلف عن السلف بإنشاء مدينة « الزهراء » التى ذهبت شهرتها مع الشمس ولا تزال إلى اليوم

تتراءى فى دفائنها بما يبين عنه الكشف ، وقد تفنن « عبد الرحمن الناصر » فى مدينته ويداه مبسوطتان تسعفانه بالعجب ، فكان مما صنعه فيها « الصرح الممرد » اتخذ لقبّته قراميد من ذهب وفضة ، فما أن سمع العالم القاضى منذر بن سعيد » بذلك حتى هاله عمل الحاكم وأخذ يؤنبه عليه ، فكان مما قاله : ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ بك هذا المبلغ ، ولا أن تمكّنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين ، حتى أنزلك منازل الكافرين ! فاقشعر عبد الرحمن من قوله ، وقال : أنظر ما تقول ، كيف أنزلنى منازلهم ؟ قال نعم ، أليس الله تبارك وتعالى يقول : (ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون) ؟ فوجم الخليفة ونكس رأسه ملياً ودموعه تجرى على لحيته خشوعاً لله تبارك وتعالى وتندمًّا إليه ، ثم أقبل على منذر وقال له جزاك الله تعالى ياقاضى خيراً ، عنّا وعن المسلمين ، والدين ، وكثر فى الناس أمثالك ، فالذى قلت هو والله الحق . وقام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً .

---

(١) ص ٣٠ الزهراء .

عظمتهم

يقول جامع هذا الكتاب — بعد هذا الذى قصصنا عليك من أخلاق العلماء وعزة العلم ونفوس أهله ، ما تصح أن تنبت هذه البذور إلا عظمة فى العلماء ، سواء فى أنفسهم أو فى المجتمع الذى يعيشون فيه . وسيرد فى الباب الآتى إعزازهم ، وهذه مثل من عظمتهم بعد أمثال عزتهم .

٣١١ — يحكى أن مروان قال لعبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى ، فان إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تحوجهم إلى حسن الظن بك ، فان استطعت أن تنفعنى فى حياتى وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى . فقال له عبد الحميد : إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى عليك ، أو أقتل معك وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غدره ؟ فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

٣١٢ — روى أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور استدعى عبد الله بن طاوس ، ومالك بن أنس رضى الله عنهما ، فلما دخلا عليه أطرق ساعة ثم التفت إلى عبد الله بن طاوس وقال له ، حدثنى عن أبيك طاوس (ابن كيسان التابعى) فقال ، حدثنى أبى ، أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى فى سلطانه فأدخل عليه الجور فى حكمه . فأمسك أبو جعفر ساعة ، قال مالك فضممت ثيابى خوفاً أن يصيبنى دمه ، ثم قال له المنصور : ناولنى تلك الدواة ، ثلاث مرات ، فلم يفعل ، فقال له : لم لا تناولنى ؟

فقال أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها . فلما سمع ذلك قال : قوما عنى قال ابن طاوس ، ذلك ما كنا نبغى ، قال : مالك ، فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم .

٣١٣ ـ قال أبو يوسف : كنت أمشى مع أبى حنيفة فقال رجل لآخر هذا أبو حنيفة لاينام الليل ، فقال : والله لا يتحدث الناس عنى بما لم أفعل ، فكان يحيى الليل صلاة ودعاء وتضرعا(١) .

٣١٤ ـ قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدى وأتى سفيان الثورى فلما دخل عليه ، سلم تسليم العامة ولم يسلم بالخلافة و « الربيع » قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب أمره ، فأقبل عليه المهدى بوجه طلق وقال له : ياسفيان تفرّ ههنا وههنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ؟ فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكم فىّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ، فقال له الربيع : يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ ائذن لى أن أضرب عنقه ، فقال له المهدى : اسكت ويلك ، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم ؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه فى حكم ، فكتب عهده ودفع إليه ، فأخذه وخرج ورمى به فى دجلة وهرب ، فطلب فى كل بلد فلم يوجد ، ولما امتنع من قضاء الكوفة تولاه شريك النخعى فقال الشاعر

تحرز سفيان وفرّ بدينه وأمسى شريك مرصداً للدراهم(٢)

٣١٥ ـ قال ابن جناب : غزا عيسى بن يونس المحدث خمساً وأربعين غزوة ، وحج خمساً وأربعين حجة ، قال الوزير جعفر البرمكى : مارأيت فى القراء مثل عيسى بن يونس ، وذكر أنه عرض عليه مائة ألف درهم فردها وقال والله لا يتحدث أهل العلم أنى أكلت للسنة ثمنا(٣) .

---

(١) ص ١٦٠ ج ٣ تذكرة الحفاظ .
(٢) ص ٢٦٣ تذكرة الحفاظ .
(٣) ص ٢٥٨ تذكرة الحفاظ .

٣١٦ – القاضي منذر بن سعيد ، ولِّي قضاء الجماعة بقرطبة للناصر فى شهر ربيع الآخر ، سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، وبقى قاضياً إلى وفاة الناصر فولى القضاء للحكم المستنصر إلى أن توفى عقب ذى القعدة من سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، بلغ من أمره أن الناصر لما بنى مدينة « الزهراء » واستفرغ جهده فى تنميقها وإتقان قصورها ، وانهمك حتى تعطل مرة عن شهود الجمعة فى المسجد الجامع بقرطبة فلما حضر لصلاة الجمعة بعد افتتاح الزهراء – وكان منذر يلى الخطبة مع القضاء – وقام يخطب ، بدأ خطبته بقوله تعالى : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ثم وصل ذلك بقوله (متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) ومضى فى ذم تشييد البنيان والإسراف فى الإنفاق عليه ، وما زال بالقوم حتى خشعوا وبكوا وضجعوا ، وأخذ الخليفة من ذلك بأوفر حظ وقد علم أنه المقصود فبكى وندم ، إلا أنه وجد على منذر ، وشكا ذلك لولده الحكم ، وقال والله لقد تعمدنى منذر بخطبته ، وما عنى بها غيرى ، فاسرف على وأفرط فى تقريعى ولم يحسن السياسة فى وعظى ، وأقسم ألا يصلى خلفه صلاة الجمعة ، فجعل يلازم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ، ويجانب الصلاة بالزهراء ، فقال له الحكم فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك إذ كرهته ؟ فزجره وقال له: أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه – لا أم لك – يعزل لارضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون ، وإنى لأستحي من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر

فى ورعه وصدقه، ولكن أحرجنى فأقسمت ، ولوددت أنى أجد سبيلا إلى كفارة يمنى بملكى ، بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى فما أظننا نعتاض عنه أبداً – اه . من مذكرات القاضى العالم الشيخ محمود بن محمد بن عرنوس لتلاميذه طلبة قسم التخصص – أقول : صاحب هذه المذكرات لو كنت ذاكراً أحداً من الأحياء ، لكان فيما أعرفه من خلائقه ما يزين كثيراً من أبواب الكتاب .

٣١٧ – كان بكار بن قتيبة قاضى مصر فى زمن أحمد بن طولون فغضب عليه وسجنه ، وكان السبب فى ذلك ، أن أحمد بن طولون لما خرج إلى قتال « الموفّق » حين ضيق وهو ولى العهد على أخيه المعتمد وهو الخليفة حينئذ حتى إنه لم يبق للمعتمد إلا الاسم ، ضاق المعتمد بذلك وكاتب أمراء الأطراف ، فوافقه أحمد بن طولون وواعده أن يحضر إليه ويحمله معه إلى مصر ويجعلها دار الخلافة ، فتهيأ المعتمد واهتم أحمد بأمره ، فبلغ الموفّق فنصب لأحمد الحرب وصرح بعزله ولعنه ، فصرح أحمد بخلع الموفق من ولاية العهد ، وأمر بلعنه ، وخرج بالعسكر من مصر واستصحب القاضى بكاراً فلما كان بدمشق ، جاء كتاب المعتمد إلى ابن طولون بخلع الموفق من ولاية العهد ، ففعل ، وأجاب القضاة كلهم إلى خلعه ، فطلب منهم أحمد أن يلعنوا الموفق فامتنع بكار ، فألح عليه فأصر على الامتناع حتى أغضبه وكان قبل ذلك له مكرماً معظما عارفاً بحقه ، وكان يجيزه فى كل سنة بألف دينار – غير راتبه – فلما غضب عليه ، أرسل إليه ، أين جوائزى ؟ فقال : على حالها ، فأحضرها من منزله بخواتيمها (ستة عشر كيساً) فقبضها أحمد(١).

---

(١) ص ٥١٢ من ملحق كتاب قضاة وولاة مصر .

٣١٨ — ويحكى عن الطبيب « أمين الدولة » أنه كان لا يقبل عطية إلا من خليفة أو سلطان ، فعرض لبعض الملوك النائين مرض مزمن ، فقيل له : ليس لك إلا ابن التلميذ وهو لا يقصد أحداً ، فقال: أنا أتوجه إليه ، فلما وصل أفرد الطبيب له ولغلمانه دوراً وأفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية ، ولبث مدة ، فبرىء الملك وتوجه إلى بلاده وأرسل إليه مع بعض التجار أربعة آلاف دينار ، وأربعة تخوت ، وأربعة مماليك ، وأربعة أفراس ، فامتنع من قبولها وقال : إن على يميناً ألا أقبل من أحد شيئاً ، فقال التاجر : هذا مقدار كثير ، قال: لما حلفت ما استثنيت ، وأقام شهراً يراوده ولا يزداد إلا إباء ، فقال له عند الوداع : هأنذا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي وأتمتع بالمال ، فتتقلد منته وتفوتك منفعته ، ولا يعلم أحد بأنك رددته ؟ فقال: ألست أعلم فى نفسى أنى لم أقبله فنفسى تشرف بذلك ، علم الناس أم جهلوا(١).

٣١٩ — روى لى غير واحد من معاصرىّ : أن السلطان عبد العزيز لما قدم مصر زار الجامع الأزهر ، وصحبه الخديو اسماعيل ، فلحظ الخديوى على شيخ بالجامع كأنه غير مهتم ، فهو مسند ظهره ، مادّ رجله ، فأسرع بالسلطان عنه ، ثم كلف أحد رجاله وقد أراه الشيخ أن يذهب له بصرّة يريد أن يعرف حاله ، فلما جاء الرسول ليعطيه ، قبض الشيخ عنه يده ، وقال له: قل لمن أرسلك ، إنّ من يمدّ رجله لا يمدُّ يده .

٣٢٠ — وكان « الأمير عزّ الدين موسك » من أمراء دولة بنى أيوب « الذى ينسب إليه شارع الموسكى بمصر لأنه بنى قنطرة على الخليج فى هذه الجهة فنسبت إليه وبها عرف الشارع أميراً خيراً يحب أهل العلم والصلاح ،

(١) المعظم ١٩٣٥/٢/٥ .

فلما قدم الإمام القاسم الشاطبي المقرىء الضرير ، وكان إماماً منقطع القرين ، رأساً فى القراءات ، الذى سارت الركبان بقصيدته (حرز الأمانى) وصف للأمير فطلبه ، ولم يتقدم الأمير إليه بنفسه ، فأخذت الشيخ عزّة العلم وهو الغريب الفقير فكتب له رقعة فيها :

قل للأمير نصيحة لا تركننّ إلى فقيه
إنّ الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

فبمثل هذه الأخلاق ارتفع العلماء وبعكسها انحطوا ، ولكن لم نقطع الأمل من إصلاح الحال واستعادة التراث الماضى (١)

٣٢١ — وهذه سلسلة ذات حلقات كل حلقة منها عظمة تجلت بها حياة عالم ظهر فى القرون الوسطى أيام الحروب الصليبية ، كان بركة من عند الله على الإسلام فى وقت الحاجة إلى مثله ، ملخصة من كتاب (طبقات الشافعية) وقد سقنا ما اقتضى المقام سوقه فى هذه الترجمة كان الملك الأشرف من بنى أيوب يلى دمشق ، وأخوه الملك الكامل يلى مصر ، وكانت فتنة قامت بدمشق على مسألة كلامية انتصر فيها العزّ بن عبد السلام للشريعة نصراً أغضب الملك الأشرف إذ كان ميله للمشاغبين على الشيخ (٣٢٢) فلما مرض الأشرف ، أرسل للشيخ يتحلل ويسأله أن يعوده ويوصيه بما ينفعه ، فأنعم الشيخ ، وكان السلطان قد وقعت بينه وبين أخيه الكامل وحشة ، فأمر وهو فى مرضه أن ينصب دهليزه صوب مصر ، فقال الشيخ للسلطان الأشرف ، إن الملك الكامل أخوك الكبير ورحمك ، وأنت مشهور بالفتوحات ، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين ، فتترك ضرب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء

(١) ص ١٢٤ كتاب/تاريخ القضاء فى الاسلام للقاضى الشيخ محمود عرنوس .

الإسلام وتضربه صوب أخيك ؟ غيّر الحال ولا تقطع رحمك وانو مع الله نصر دينه وإعزاز كلمته فإن منّ الله بعافيتك رجونا من الله إدالتك على الكفار وكانت فى ميزانك هذه الحسنة العظيمة ، وإن قضى الله بانتقالك كان السلطان فى خفارة نيّتك ، فقال : جزاك الله خيراً عن إرشادك ونصيحتك ،وأمر والشيخ حاضر بنقل دهليزه صوب التتار ، ثم قال له : زدنى من نصيحتك ووصاياك ، فزاده الشيخ حتى أمر بابطـال المكس والاقلاع عن المحرمات والمظالم ، وأطلق له ألف دينار مصرية فردها عليه وقال : هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من الدنيا ، وشاع عند الناس صورة هذا المجلس وتبطيل المنكرات ، وباشر الشيخ بنفسه تبطيل بعضها — وكان الملك الصالح إسماعيل أخو الملك الأشرف نائب أخيه الأشرف فى الملك والسلطة ولم يمض تبطيل المنكرات لأنه كان مع أخيه الأشرف فى عقيدته التى أنكرها الشيخ وجاهر بفسادها ، ولم يمض على هذا يسير زمن حتى قدم الملك الكامل من مصر بجيوشه وحاصر أخويه ، ثم اصطلح (٣٢٣) وحضر الشيخ عند الكامل ، فأكرمه غاية الإكرام ، وأجلسه على تكرمته . والصالح إسماعيل واقف على رأسه يشاهد ذلك ، وولاه الكامل زاوية الغزالى وقضاء دمشق وأعطى الصالح بعلبك ، فتوجه إليها وملكها ، ثم اختلست المنية الأشرف والكامل ، وتملك دمشق الملك الجواد ، وكاتب الملك الصالح نجم الدين أيوب فقدمها ، وأكرم الشيخ ثم توجه بعسكره إلى نابلس بعد اتفاقه مع الصالح ببعلبك على أن ينجده فى حملته التى أراد بها الاستيلاء على مصر ، فخانه الصالح بعد اتفاقه واستولى على دمشق كما استولى نجم الدين على مصر فى حكاية تطول (٣٢٤) لما استولى الصالح على دمشق ، وهو قد شاهد ما اتفق للشيخ مع الأشرف

والكامل ، ولاه خطابة دمشق ، وحينما بلغه استيلاء نجم الدين أيّوب على مصر خاف منه ، فاصطلح مع الافرنج على أن ينجدوه عليه ، وسلم إليهم « صيدا » وقلعة « الشقيف » وغيرهما من حصون المسلمين ، ودخل الإفرنج دمشق لشراء السلاح ، فشق ذلك على الشيخ مشقّة عظيمة ، وأفتى الناس بتحريم مبايعتهم لأنهم يقاتلون به المسلمين ، وقطع خطبة الصالح ، وزاد فى آخر خطبته قبل أن ينزل من المنبر : « اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً تعز فيه وليّك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك » والناس يبتهلون بالدعاء والتأمين ، فاعتقلوا الشيخ إلى أن قدم الصالح من بعلبك فأخرج من المعتقل ، ونزح الشيخ من دمشق إلى بيت المقدس ، فأسره صاحب نابلس (٣٢٥) إلى أن جاءت الجموع من الفرنج وهؤلاء الملوك إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية فسيّر الصالح بعض خواصه إلى الشيخ بمنديل الأمان ، وأمره أن يلاطفه ، ويعده بالعود إلى مناصبه قال : فإن وافقك فتدخل به على ، وإن خالفك فاعتقله فى خيمة إلى جانب خيمتى فلمّا اجتمع الرسول بالشيخ ، أخذ يلاينه ، وقال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنتَ عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير ، فقال له الشيخ : ولكن يا مسكين ، ما أرضاه أن يقبّل يدى فضلا أن أقبل يده ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد ، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به ، فقال له : قد رسم لى إن لم توافق أن أعتقلك ، قال افعلوا ما بدا لكم ، فاعتقلوه فى خيمة (٣٢٦) وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه ، فقال يوماً لملوك الفرنج : تسمعون هذا الشيخ الذى يقرأ القرآن ؟ قالوا : نعم ، قال : هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد حبسته لانكاره على تسليمى

حصون المسلمين الكم ، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم ، فقال له ملوك الفرنج : لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءهما . ثم إن الله نصر المصريين وهزم هذه الجموع ، فجاء الشيخ إلى مصر ، وأقبل عليه السلطان الصالح نجم الدين أيوب وولاه خطابتها وقضاءها وفوض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة ، فأقام على ذلك زمناً ثم عزل نفسه عن الحكم ، فتلطف السلطان فى رده فباشره مدة وعزل نفسه مرة أخرى ، وتلطف مع السلطان أن يمضى عزله فأمضاه ، وأبقى جميع نوابه من الحكام ، وولاه تدريس المدرسة الصالحية بالقاهرة . ثم مات نجم الدين ووصل ابنه « توران شاه » فعامل الشيخ أحسن معاملة ، ثم انقض ملك بنى أيوب وصارت الدولة إلى الأتراك فعامل كل منهم الشيخ بكبير الإكرام ولاسيما الظاهر بيبرس ، فإنه كان منقمعاً تحت كلمته لا يستطيع أن يخرج عن أمره (٣٢٧) ولما مات الشيخ فى زمنه أمر أمراءه وخاصته وأجناده بتشييع جنازته وحمل نعشه ، وحضر هو دفنه ، ولما درت الجنازة تحت القلعة وشاهد كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه : اليوم استقر أمرى في الملك ، لأنّ هذا الشيخ لو كان يقول للناس أخرجوا عليه لا نتزع الملك منى .

٣٢٨ — ومما يروى عن عظمة الشيخ أن « شجرة الدر » لما وليت مصر تكلم فى بعض تصانيفه ، على ما إذا ابتلى المسلمون بولاية امرأة ، ومعروف أن الخليفة المستعصم أرسل يعاتب أهل مصر على توليتها .

٣٢٩ — وأظهر ما بدا من عظمته أن « الظاهر بيبرس » لما أقام الخلافة

بمصر وأثبت قاضى القضاة نسب الخليفة المستنصر لم يتقدم ببيعته إلا بعد أن بايعه الشيخ ، وكذلك لما أعقبه الخليفة الحاكم بايعه الشيخ أولا ، ثم بعده السلطان ثم القضاة والأمراء الخ .

٣٣٠ – قال الشيخ الباجى – طلع شيخنا عزّ الدين مرة إلى السلطان فى يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة وقد خرج على قومه فى زينته على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدى السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : يا أيوب ما حجّتك عند الله إذا قال لك ألم أبوىء لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ فقال هل جرى ذلك ؟ فقال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلّب فى نعمة هذه المملكة ، يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون ؟ فقال : يا سيدى هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبى ، فقال : أنت من الذين يقولون (إنا وجدنا آباءنا على أمة) ؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة – قال الباجى : سألت الشيخ لما جاء من السلطان وقد شاع هذا الخبر ، يا سيدى كيف الحال ؟ فقال : يا بنى رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، فقلت يا سيدى : أما خفته ؟ فقال : والله يا بنى استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدّامى كالقط .

« ذكر كائنة الشيخ مع أمراء الدولة من الأتراك »

٣٣١ – وهم جماعة ذُكر أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار ، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين فبلغهم ذلك فعظم الخطب فيه واحتدم الأمر ، والشيخ مصمم لا يصحّح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً وتعطّلت مصالحهم بذلك ، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضباً ،

فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال : نعقد لكم مجلسا ، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عتقكم بطريق شرعى ، فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ فى دخوله فى هذا الأمر ، وأنه لا يتعلّق به ، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمير أخرى ، ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة قاصداً نحو الشام فلم يصل إلى نحو نصف بريد حتى لحقه غالب المسلمين ، لم تكد امرأة ولا صبى ولا رجل لا يؤبه له يتخلف ، ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم ، فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له : متى راح ذهب ملكك ، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه ، فرجع واتفقوا معهم على أنه ينادى على الأمراء فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ؟ والله لأضربنّه بسيفي هذا ، فركب بنفسه فى جماعته وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده ، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك ولا تغيّر وقال يا ولدى أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ، ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة ، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله ، فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : ياسيدى خير أى شئ تعمل ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم قال ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : فى مصالح المسلمين ، قال : من يقبضه ؟ قال : أنا ، فتم له ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً ، وغالى فى ثمنهم ، وقبضه ، وصرفه فى وجوه الخير ، وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد رحمه الله تعالى ورضى عنه (١) .

---

(١) جـ ٥ ص ٨٤ طبقات الشافعية .

قال السيوطى : إن الملك الصالح نجم الدين أيوب اشترى ألف مملوك وأسكنهم بقلعة الروضة وسمّاهم « البحرية » وهو الذى أكثر من شراء الترك وعتقهم وتأميرهم ولم يكن ذلك قبله ، فقام الشيخ عز الدين بن عبد السلام القومة الكبرى فى بيع أولئك الأمراء وصرف ثمنهم فى مصالح المسلمين وقال بعض الشعراء ينكر على السلطان :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته ياشرّ مجلوب
قد آخذ الله أيوبا بفعلته فالناس كلهم فى ضرّ أيوب

٣٣٢ — حكى الشعبى قال : أنفذنى عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم فلما وصلت إليه جعل لايسألنى عن شىء إلا أجبته ، وكانت الرسل لاتطيل الإقامة عنده ، فحبسنى أياما كثيرة حتى استحثثت خروجى ، فلما أردت الإنصراف ، قال لى، من أهل بيت المملكة أنت ؟ فقلت: لا، ولكنى رجل من العرب فى الجملة ، فهمس بشىء ، فدُفعت إلىّ رقعة، وقال لى ، إذا أدّيت الرسائل الى صاحبك فأوصل إليه هذه الرقعة، قال: فأديت الرسائل إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة ، فلما صرت فى بعض الدار أريد الخروج تذكّرتها فرجعت فأوصلتها إليه فلما قرأها ، قال لى : أقال لك شيئا قبل أن يدفعها إليك ؟ قلت : نعم ، قال لى من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت: لا ولكنى من العرب فى الجملة ، ثم خرجت من عند الخليفة فلما بلغت الباب رددت ، فلما مثلت بين يديه ؛ قال لى : أتدرى مافى الرقعة ؟ قلت : لا ، قال: اقرأها فقرأتها فإذا فيها عجبت من قوم فيهم مثل هذا فكيف ملكوا غيره ، فقلت له والله لو علمت مافيها ماحملتها وإنما قال هذا لأنه لم يرك ، قال: أفندرى لمَ كتبها ؟ قلت: لا، قال حسدنى

عليك ، وأراد أن يغريني بقتلك ، فتأدّى ذلك إلى ملك الروم ، فقال : ما أردت إلا ما قال .

٣٣٣ – كلّم الشعبي عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين فى قوم حبسهم ليطلقهم فأبى . فقال : أيها الأمير إن حبستهم بالباطل فالحق يخرجهم وإن حبستهم بالحق فالعفو يسعهم ؛ فأطلقهم .

٣٣٤ – الليث بن سعد – كان من عظمته لايقطع أمراء مصر أمرا دونه . ورغب إليه المنصور أن يلى له فاعتذر ؛ فقال : أما إذ أبيت فدلنى على رجل – وكان له فى كل يوم أربعة مجالس .

٣٣٥ – وكان إسماعيل بن اليسع الكندى قاضى مصر يذهب إلى إبطال الوقف فحاجّه الليث وقال : قد حبّس النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فمن بقى بعد هؤلاء؟ وكتب إلى الخليفة «المهدى» فورد الكتاب بعزله ، فأتاه الليث فجلس إلى جنبه وقال للقارئ : اقرأ كتاب أمير المؤمنين ، فقال له إسماعيل : ياأبا الحارث وما كنت تصنع بهذا ؟ والله لو أمرتنى بالخروج لخرجت ، فقال له الليث : والله إنك لعفيف عن أموال المسلمين ، وكذلك كان كتاب الليث إلى الخليفة مانقمنا عليه فى الدينار والدرهم إلا خيراً ، إنا لم ننكر عليه شيئاً غير أنه أحدث أحكاما لانعرفها .

٣٣٦ – عن يعقوب بن داود الوزير : قال لى أمير المؤمنين «المنصور» لمّا قدم «الليث» العراق : الزم هذا الشيخ فإنه ما بقى أحد أعلم بما كان ، منه .

٣٣٧ – قال أشهب بن عبد العزيز : كان لليث أربعة مجالس كل

يوم ، مجلس لحوائج السلطان ، ومجلس لأصحاب الحديث ، ومجلس لأصحاب المسائل ، ومجلس لحوائج الناس، لايسأله أحد فيرده ، صغرت حاجته أم كبرت .

٣٣٨ — لما خرج الظاهر « بيبرس » إلى قتال التتار بالشام ، أخذ فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعيّة ليستنصر به على قتال العدوّ فكتب له فقهاء الشام بذلك ، فقال : هل بقى : أحد ؟ فقيل : نعم ، بقى الشيخ محيي الدين النووى، فطلبه فحضر ، فقال أكتب خطك مع الفقهاء فامتنع . فقال : ماسبب امتناعك ؟ فقال : أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير « بندقدار » وليس لك مال ثم منّ الله عليك وجعلك ملكا ، وسمعت أن عندك ألف مملوك كلّ مملوك له حياصة من الذهب ، وعندك مائتا جارية لكلّ جارية حُق من الحلى ، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهنّ دون الحلىّ ، أفتيتك بأخذ المال من الرعيّة ، فغضب « الظاهر » من كلامه وقال : أخرج من بلدى ، يعنى دمشق ، فقال : السمع والطاعة ، وخرج إلى « نوى » ، فقال الفقهاء : إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به ، فأعده إلى دمشق فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر .

٣٣٩ — ولمّا حضر حسن باشا الجزائرى إلى مصر وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبليّة واستباح أموالهم وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم ، زاعماً أنهم أرقّاء لبيت المال ، لمّا فعل ذلك ، اجتمع الأشياخ وذهبوا إليه ، فكان المخاطب له الشيخ محمد أبو الأنوار

قائلا له : أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان إلى إقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ، أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبيت المال ، فقال : لههذا لا يجوز ولم يقل به أحد ، فاغتاظ غيظاً شديداً وطلب كاتب ديوانه ، وقال له : أكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره ، فقال له السيد محمود البنوفرى : أكتب ما تريد بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا ، فأفحم وانكف عن إتمام قصده ، وتتبع أموال الأمراء وودائعهم ، وكان ابراهيم بك الكبير قد أودع عند أبى الأنوار وديعة ، فأرسل يطلبها ، فامتنع عن دفعها قائلا : إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها فى قيد الحياة ، فاشتد غيظ الباشا منه وقصد البطش به ، فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق ، فكان يقول : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل فانه أحرق قلبى (١)

٣٤٠ — حدثنى الشيخ على البرلسى : أن الشيخ حسن الطويل العالم المشهور ، دخل يوماً على الخديوى وعليه عباءته ، فأراده رجال التشريفات على أن يخلعها ، فأبى وقال : ألقى بها ربى ولا أقابل فيها الخديوى ؟

٣٤١ — وقال لى المرحوم محمود بك أبو النصر : ان الشيخ حسن الطويل كان من العزة فى نفسه والثقة بالله تعالى على جانب لم يبال معه الدنيا ولا أهلها ، كان إنما يعنى بروحه ولا تهمه الثياب — حدثنى أن رياض باشا وهو رئيس الحكومة وناظر المالية جاء مدرسة دار العلوم يوماً ، وكان على موعد فيها من « على مبارك باشا » ، فدخل حجرة المدرسين وصادف أن كان بها الأستاذ فسلم خافتاً وجلس منحرفاً مقنفذاً ، فبادره الشيخ الحديث ، ثم

(١) ج ٣ ص ٢٠١ الجبرتى .

قال له : ياباشا ، أما آن لكم أن تجعلونى معكم ناظراً ؟ فأخذ رياض باشا دهشا وقال له : ماهذا ياشيخ حسن ؟ قال : ما تسمع ياباشا ، قال : فأى نظارة تريد ؟ قال : المالية ، قال : لماذا ؟ قال : لأستبيح أموالها ، فوقف الباشا ، ودخل على مبارك باشا وسمع آخر الحديث ثم خرج مع رياض باشا وهو يثور ويقول له : لا بد أن تخرج هذا الرجل من خدمة الحكومة ، قال على باشا كيف ؟ وما أصنع مع علماء الأرض وهو عالم عالمى ؟ قال محمود بك : وكان « اللورد كرومر » رتب على الشيخ جواسيس إذ بلغه أنه يطعن على الانجليز فكان الواحد منهم لا يفارقه حتى يأوى إلى البيت ، وكان الشيخ يجلس على قهوة بالأزهر ، وصاحبها هو الذى يقبض راتبه ويتولى الصرف على منزله ، فلما طال الأمر ، ألف الجواسيس وصار يقعدهم معه ولا يبالى أن يتكلم أمامهم بما يخطر له ، ولا يهمه ما يرفعونه عنه ، ففى يوم رفع الجاسوس إلى اللورد ، أن الشيخ قال له : تعال يا أخى اقعد هنا ، فنحن قوم لم يفارقهم الداء ، شكونا الصداع فبلينا بالسرطان ، لا كان الله للترك ولا للانجليز الخ فلما سمع اللورد هذا ، قال : إذن فالشيخ وطنى يهمه بلده وكان يظن أنه متعصب دينى ، ورفع عنه الجواسيس ورغب إلى وزير المعارف أن يزيد فى راتبه وكان ١٢ ج فى الشهر فصار ٢٠ ج ، لكثرة ما كان يحدثه عنه العلماء المستشرقون ، قال محمود بك : وصادفت هذه الواقعة قبل أن يطلب رياض باشا ما طلبه بأيام ، ولذلك قال على مبارك باشا لرئيس الحكومة : وأيضاً فان اللورد كتب إلى يتطلب له المزيد فى راتبه ، فكان رياض باشا الذى طلب عزل الشيخ ، هو الذى أنفذ زيادة الراتب

٣٤٢ — وحدثنى محمود بك أبو النصر قال : كان على مبارك باشا كثيراً ما يغشى مدرسة دار العلوم لأنه هو الذى أنشأها ، وكان يجل الشيخ

« حسناً » غاية الإجلال ، والشيخ ما كان يعنى بملابسه كما قلت ، فلما زيد راتبه ، دخل الباشا يوماً فوجد الشيخ بثيابه لم يزد فيها ، فقال له . ياشيخ حسن لقد حسنت الحال وزاد الراتب ، أفلا تغلى من ثيابك ؟ فلم يكن من الشيخ إلا أن قام إلى السبورة ، وأخذ بيده اصبع طباشير ، وقال ياباشا ، ما قيمة ثيابك التى عليك ؟ فدهش على باشا ، وصمم الشيخ أن يجيب فقومها بـ ٢٥ ج قال قوم ثيابى وأبخس فيها ، فبلغت ٧٥ قرشاً ، قال : وما إيرادك من منصبك وماكك ؟ فأخبره ، فعمل الشيخ حسبة تناسب طلعت بها ثياب الشيخ بالنسبة إلى إيراده أغلى من ثياب الباشا أضعافاً مضاعفة ، فلم يسع الباشا إلا أن يقول آمنت آمنت .

٣٤٣ — وحدثنى الأستاذ الشيخ منصور مهران : أن الخديوى حدد يوماً يزور فيه مدرسة دار العلوم ، وكان ناظرها وقتذاك ابراهيم بك مصطفى ، فاهتم الناظر بتزيين المدرسة ، وكان منه أن أشار على الشيخ حسن الطويل ليحسن زيه يوم الزيارة ، قال الأستاذ : ففى يوم الزيارة لم يحضر الشيخ ، وأرسل عيبة فيها كسوة حسنة ، وقال للرسول : قل للناظر إنك تريد زياً يقابل الخديوى ، فها هو ذا فى العيبة ، فبهت الناظر وتوسل إلى الشيخ أن يحضر كما يهوى ، فجاء بملابسه العادية ، وجاء الخديوى ومعه ناظر المعارف فخرى باشا فجلسا فى درس الشيخ وهو يقرأ من جلوس حتى فرغ والناظر واقف ، فقام الخديوى وسلم على الشيخ ، وابدى له الكرامة ، وأخذ يحدثه هو وناظر المعارف ، والحديث يجىء له جانب يستدعى أن يخاطب الشيخ ناظر المدرسة فيسميه بابراهيم بك ، وعلم الشيخ بعظمته ، أن القيمة للابس لا للملابس

٣٤٤ — وحدثنى الأستاذ : أن اللورد كرومر دخل على المرحوم الشيخ محمد الإنبابى شيخ الجامع الأزهر وسلم عليه ، فرد الشيخ التحية

وصافح اللورد من جلوس ، فاستعظم اللورد هذا ، وقعد بجوار الشيخ وقال له : ياسيدنا الشيخ ، ألست تقوم للخديوى ؟ قال نعم ، قال: فلم لم تقم لى ؟ قال : إن الخديوى ولى الأمر ، وأما اللورد فليس منا ، قال: محدثى ، ووقع جواب الشيخ من اللورد موقع الإعظام ، فأكبر نفس الشيخ وصراحته فى صدقه وأولاه مزيد الاحترام : وقيل : إنه كتب الحادث فى أحد تقاريره لحكومته

٣٤٥ — وحدثنى عن المرحوم الشيخ محمد عبده ، أنه مر يوماً على اللورد كرومر يزوره ، فقابله السكرتير ولم يكن يعرفه ، وأخبره بغيبة اللورد ، فترك الشيخ بطاقته ، وتمشى على النيل ، فلما رفعت البطاقة للورد وعرف الزائر ، أرسل السكرتير على عجل يعتذر للشيخ ، ويدعوه لأن اللورد فى حاجة لمقابلته ، فقال الشيخ ، بلغه التحية وقل له فى وقت آخر وأبى أن يعود

٣٤٦ — وقال الأستاذ — رفع إلى الخديو أن الشيخ محمد عبده قبل يد اللورد كرومر وهو يودعه على المحطة ، وكان الشيخ مدعواً للعشاء عند الخديوى مع آخرين . فلما ابتدأ الطعام ، سأله الخديوى عما رفع إليه ، قال الشيخ منصور حدثنى من كان مدعواً ليلتها مع الشيخ محمد عبده ، أن الشيخ حينما سمع السؤال من الخديو ، حمى ، ورفع يده من الطعام ، فرفعنا أيدينا ، واندفع يتكلم كمعلم وسط مدرسة ، يقول : يا أفندينا ، تعرف أنى لم أقبل يدك ، ولو كانت هناك يد أقبلها لكانت يد الخديو ، فكيف مع هذا يتصور أن أقبل يد اللورد ؟ وأمثال هذا الكلام — قال فاعتذر الخديو إلى الشيخ وقال : قاتلهم الله ، إنهم لكاذبون ، ولم يهدأ الشيخ حتى اعتذر

اعظام الملوك لهم

٣٤٧ – نتيجة لازمة لما عرضنا عليك من أخلاق العلماء وآثارهم وعزة العلم وسلطانه ، أن يكون العلماء أهل التكريم ، وأولى الخلق وأحقهم بالتعظيم ، والعلم كان فى أصله أرفع من الملك ، وكان الملك يسعى للعالم لأن الملك يحتاج إلى العلم ولا يحتاج العلم إلى الملك ، حتى جاء « فرعون » وادعى الألوهية ، فلم ير أنه يتناسب مع جلالها أن يسعى إلى غيره ، ولم ير من العلماء الأصلاء من يسعى له ، ففتق وزيره « هامان » الحيلة له بأن يعلم أولاد السفلة العلم ، ومن هؤلاء كانت ذلة العلم وأهله . ولكن ظل نور العلم الصافى موروثاً فى أهل الصفاء يعزُّونه ويعزهم ، فأعزهم سلطانه واستقام الملوك والسوقة لهم بالتبجيل والكرامة – وفيما مضى من أبواب الكتاب آيات تدل ، ونورد طرفا خالصة لهذا الباب .

٣٤٨ – لما دخل الحسن بن محمد بن الحسين على عمر بن عبد العزيز ، جثا له على ركبتيه وقال له : إيه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ؟ فقال له : ياعمر ، ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل ، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له .

٣٤٩ – وكان المنصور يأمر بالصياح على الناس فى الموسم : لا يفتى الناس إلا مالك ، وابن أبى ذئب .

٣٥٠ – عن عبد الله بن رجاه الغدانى قال : كان لأبى حنيفة جار

بالكوفة إسكاف يعمل نهاره أجمع ، حتى إذا جنه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه ، أو سمكة فيشويها ، ثم لا يزال يشرب ، حتى إذا دب الشراب فيه ، غنى بصوت ، وهو يقول :

أضاعوني ، وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع جلبته ، وأبو حنيفة كان يصلى الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته ، فسأل عنه ، فقيل أخذه العسس منذ ليال وهو محبوس ، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد وركب بغلته واستأذن على الأمير . قال الأمير : إيذنوا له وأقبلوا به راكباً ، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ، ففعل ، فلم يزل الأمير يوسع له من مجلسه ، وقال ما حاجتك ؟ قال ، لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال ، يأمر الأمير بتخليته ، فقال : نعم ، وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا ، فأمر بتخليتهم أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشى وراءه ، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه فقال يا فتى أضعناك ؟ قال : لا بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق . وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان(١) .

٣٥١ — وبمناسبة هذا البيت الذى كان الإسكاف يتغنى به ، نروى قصة كلمة منه بل حرف من الكلمة ، أخذ عالم على تصحيحه ثمانين ألف درهم . قال النضر بن شميل : دخلت على أمير المؤمنين المأمون بمرو ، وعلى أطمار مترعبلة (متمزقة) ، فقال : يانضر تدخل على أمير المؤمنين فى مثل هذه الثياب ؟ فقلت : إن حر مرو لا يدفع إلا بمثل هذه (الثياب)

---

(١) جـ ١٤ ص ٣٦٣ تاريخ بغداد .

الأخلاق ، قال : ولكنك رجل متقشف ، فتجارينا الحديث فقال المأمون : حدثني هشيم بن بشير ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز » هكذا قال سداد بالفتح ، قال صدقوك يا أمير المؤمنين . وحدثني عوف الأعرابي عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز » وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال : السداد لحن عندك يانضر ؟ قلت نعم هاهنا يا أمير المؤمنين ، وإنما هشيم لحن وكان لحانة ، فقال ما الفرق بينهما ؟ قلت السداد : القصد في الدين والطريقة والسبيل ، والسداد البلغة ، وكل ماسددت به شيئاً فهو سداد ، وقد قال العرجي :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

قال : فأطرق المأمون ملياً ، ثم قال : قبح الله من لاأدب له ، ثم أخذ يسأله عن أخلب بيت للعرب ، وأنصفه ، وأقنعه ، فأنشده أبياتاً جزاة فيما سأل ، فقال له أحسنت يانضر ، وكتب إلى الفضل بن سهل بخمسين ألفاً ، وأمر خادماً بإيصال رقعته وتنجيز ما أمر به ، فمضيت معه إليه ، فلما قرأ التوقيع ضحك ، وقال لي يا نضر : أنت الملحن لأمير المؤمنين؟ قلت لا ، بل هشيم ، قال فذاك إذاً ، وأطلق لي الخمسين ألف درهم وأمر لي بثلاثين ألفاً(١) .

٣٥٢ — أقول : إن إكرام الأمراء للعلماء وإلطافهم بمادة ما في أيديهم ، كان له أفضل الأثر في استفتاح العقول والإيغال بها في منادح

---

(١) ج ١٥ ص ٢٠ أغاني

العلوم حتى أطرف العلماء ملوكهم وأممهم بخير مما نالوا ، وهذه شنشنة الأمم الحية ، يخدمون العلم بالمادة فيقوى العلم على خدمة المادة والروح ، وبهذه الوسيلة برعت أمم الحياة وسبقت أمم الخمول بما ألهب الأمراء به العلماء ، فألهب العلماء به الأمم ، سوقاً إلى المجد وحثاً على طلبه ونصباً لغايته من طريقها المعبد ، ولو شئت أن أفتح هذا الباب باب « تأثير العطاء فى العلم والعلماء » لخرجت عن مدار الكتاب ، ولكنى عجت بالقارىء على طرف من هذه الناحية لأهيب بالحاضرين أن يعرفوا فضل السابقين ، وأن يعلموا أن الفضل الذى يمرح الغرب فيه الآن من تعاون الأمراء والعلماء إنما كان شرعة أسلافهم ونهج آبائهم ، سلكوه فعزوا ، وتنكبناه فكان ماكان ، مما نحن فيه الآن ، والدليل على هذا ماثل فى تاريخ الإسلام ، فإن من يطلع عليه ببصر وبصيرة يرى العلم الإسلامى قد دعمت آساسه ، واشمخر بناؤه فى مدى القرنين الأولين ، والقرنان اللذان ولياهما كانا لتحسين الصرح وتزويقه والزخرفة فيه والرونقة به ، ثم غفت بعدهما عين العلم إغفاءة تتقطع أحيانا على يقظات منفرقات ، إلى أن جاء القرن السابع الهجرى ، وفيه عاود الروح المسلمين ، إذ أيقظهم التتار من الشرق والافرنج من الغرب بهجمات كان الظن ألا قبل لهم بها ، ولكن وعد الله كان باقيا ، فجمع الروح شمل الأمراء والعلماء للاضطلاع بأعباء الدفاع ، والحق يقال إن الفريقين وفيا للإسلام وأخلصا للمسلمين وردا العادية عنهم وعن بلادهم فكان للعلم من هذا التلاقى عود إلى الحياة ورجعة إلى التماوج ، ولكن أمواجه فى تلك القرون كانت أشبه بأمواج البحيرات لامدد لها من البحر المحيط ، فكانت جهود العلماء فيها جهود من يدور في دائرة لا يخرج عنها ، بعد أن كانت حدود العلم في القرون

الأولى مرفوعة وآفاق العلماء غير منظورة ، إلى أن رجلا العدو عنهم ، واطمأنت دار الإسلام بهم ، ودهمت فترات الخمول هممهم ، ورجعت كل نفس إلى صدرها ، وانحازت كل طائفة إلى حوزها ، وقطعت أسباب الاتصال ، ونسيت تلك الكتل البشرية سنة الله فى خلقه وناموس الاجتماع في حكمه ، حينذاك انطفأت فتيلة العلم فى هذا المحيط الهائل وغفا الحراس وأهمل المنهون فكانت الدلجة التى تسبق الفجر أحلك ماتكون من قطع الليل إلا نجوما خافتة تتراءى ولا ترى ، حتى إذا جاء الغرب بعلومه وآثار علومه صحا المسلمون على نوره وهو يخطف أبصارهم ويغشى عيونهم فهم لا يرونه ولا يرون به ، وإن رأوا فليس يتجلى لشبكيات عيونهم تجليه لأصحابه ومتاعهم به ، فكنا كصاحب الدار دخلها اللص في غفلته فسل مافيها وانسلت به ، ثم عاد وصاحبها نائم فاحتلها وسكنها وأنزل بها أهله ومتاعه ، حتى إذا زاد ضجيجهم في فنائها وغرفها تيقظ صاحبها من وسط حجلته دهشاً عجباً من تغير الحال وتنكر الآل وقصور الباع وضيق الذراع ، وصاحبها الجديد يومض بنوره الجديد ويقول له بلغته الجديدة : ياصاحب الدار إلى اليوم صاحبها ، وصدق الله العظيم (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) .

٣٥٣ — وهذه طرفة من طرف هارون الرشيد الذى بلغ الإسلام فى زمنه مستقر السؤدد بما كان يواليه أولياؤه من رعاية دينهم ودنياهم ، ترى الرشيد العالم الحاج الغازى الذى قضى عمره في عمل الخير والصلاح لأمته ولدينه لا يفوته وهو يحج بيتاً سمعه من مجنون ، فهو يوفد كبير

مغنيّة ليأخذه عنه ثم يجيزه عليه بما تسمعه ، وهكذا حوط الراعي لمملكته يشمل اللمام والهام ، وبذلك زخر الملك ، ودانت الدنيا للمسلمين الأولين .

قال إسحاق الموصلي دعاني الرشيد لما حجّ فقال : صر إلى موضع كذا وكذا من المدينة فإن هناك غلاما مجنوناً يغنّي صوتاً حسناً وهو :

هما فتاتان لمّا تعرفا خلقي وبالشباب على شيبي يدلان

وله أمّ ، فصر إليها ، وأقم عندها ، واحتل حتى تأخذه ، فجئت استدلّ ، حتى وقفت على بيتها فخرجت إليّ فوهبت لها مائتي درهم ، وقلت لها : أريد أن تحتال على ابنك حتي أخذ منه الصوت الفلاني ؟ فقالت : نعم وأدخلتني دارها وأمرتني فصعدت إلى علية لها ، فما لبثت أن جاء ابنها فدخل ، فقالت له : يا سليمان فدتك نفسي ، أملك قد أصبحت اليوم خائرة مغرمة ، فاحبّ أن تغني ذلك الصوت « هما فتاتان لمّا تعرفا خلقي » فقال لها : ومتى حدث لك هذا الطرب ؟ قالت : ماطربت ، لكني أحببت أن أنفرج من همّ قد لحقني ، فاندفع فغنّاه ، فما سمعت أحسن من غنائه ، فقالت له أمّه : أحسنت فديتك ، فقد والله كشفت عني قطعة من همّي ، فأسألك أن تعيده ، قال : والله مالي نشاط ، وإلا أشتري غمّي بفرحك ، فقالت له : أعده مرتين ولك درهم صحيح تشتري به ناطفاً (نوع من الحلواء) قال : ومن أين لك درهم ؟ ومتى حدث لك هذا السخاء ؟ فقالت : هذا فضول لاتحتاج إليه ، وأخرجت إليه درهماً فأعطته إيّاه فأخذه وغنّاه مرّتين فدار لي وكاد يستوي فأومأت إليها من فوق أن تستزيده فقالت ، يا ابني بحقي عليك إلا أعدته ؟ فقال : أظن أنك تريدين أن تأخذيه فتصيري مغنية ؟

فقالت : نعم كذا هو ، قال: لا وحقّ القبر لأعدته إلا بدرهم آخر ، فأخرجت له درهما آخر فأخذه ، وقال: أظنك والله قد تزندقت وعبدت الكبش فهو ينقد لك هذه الدراهم ، أو قد وجدت كنزاً ، فغناه مرتين ، وأخذته واستوي لي ، ثم قام فخرج يعدو على وجهه، فجئت إلى الرشيد فغنيته به وأخبرته بالقصّة فطرب وضحك ، وأمر لي بألف دينار ، وقال لي : هذه بدل مائتي الدرهم(١) .

٣٥٤ — ودخل عمرو بن عبيد يوما على أبي جعفر المنصور فى خلافته وكان صاحبه وصديقه قبل الخلافة وله معه مجالس وأخبار ، فقرّبه وأجلسه ثم قال له : عظني ؟ فوعظه بمواعظ منها : إن هذا الأمر أصبح فى يدك ، لو بقى فى يد غيرك ممّن كان قبلك لم يصل إليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده — فلما أراد النهوض ، قال: قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم ، قال: لا حاجة لى فيها ، قال والله تأخذها ، قال: لا والله لا آخذها ، وكان المهدى ولد المنصور حاضراً ، فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟؟ فالتفت عمرو إلى المنصور وقال : من هذا الفتى ؟ قال هو ولىّ العهد، ابنى المهدى ، فقال ، أما والله لقد ألبسته لباساً ماهو من لباس الأبرار ، وسمّيته باسم ما استحقّه ومهّدت له أمراً أمتع ما يكون به ، أشغل ما يكون عنه ثم التفت عمرو إلى المهدي ، فقال نعم ، يا ابن أخي إذا حلف أبوك حنّثه عمّك لأن أباك أقوى على الكفّارات من عمّك . فقال له المنصور : هل من حاجة ؟ قال : لا تبعث إلىّ حتى آتيك . قال إذن لا تلقانى ! قال: هى حاجتى ، ومضى فاتبعه المنصور طرفه . وقال :

كلكم يمشى رويد

---

(١) ص ١٢٧ ج ١٠ أغانى

كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

ومات عمرو هذا ودفن بموضع يقال له مرّان فرثاه المنصور بقوله :

صلى الإله عليك من متوسد ... قبراً مررت به على مرّان
قبراً تضمن مؤمناً متحنفاً ... صدق الإله ودان بالعرفان
لو أن هذا الدهر أبقى صالحا ... أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ولم يسمع بخليفة يرثى من دونه ، سواه .

٣٥٥ — قال نمير المدنى : قدم علينا أمير المؤمنين المنصور المدينة ومحمد بن عمران الطلحى متولّ القضاء بها وأنا كاتبه فحضر جماعة من الجمالين واستعدوه على أمير المؤمنين المنصور فى شئ ذكروه فأمرنى أن أكتب كتابا إلى المنصور بالحضور معهم أو انصافهم ، فقلت له : تعفينى من ذلك فإنه يعرف خطّى ، فقال : اكتب فكتبت وختمت . فقال والله ماعضى به غيرك ، فضيت به إلى الربيع حاجبه وجعلت أعتذر إليه ، فقال لابأس عليك ، ودخل بالكتاب على المنصور ثم خرج الربيع فقال للناس وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : إنى قد دعيت إلى مجلس الحكم فلا أحدمنكم يقوم إذا خرجت ، ولا يبدأنى بالسلام ، قال : ثم خرج وبين يديه المسيّب والربيع وأنا خلفه وهو فى إزار ورداء ، فسلم على الناس فما قام إليه أحد ثم مضى حتى بدأ بقبر النبى صلى الله عليه وسلم فسلّم عليه ثم التفت ، فلما رآه ابن عمران القاضى أطلق رداءه عن عاتقه ثم احتبى به ، ودعابالخصوم الجمالين . ثم دعا بالمنصور ، فادّعى عليه القوم ، وقضى لهم عليه ، ثم انصرف ؛ فلمّادخل المنصور الدار ؛ قال للربيع . اذهب فإذا قام القاضى من مجلسه فادعه ، فلما دعاه ودخل على المنصور ، سلّم عليه فرد عليه السلام ، وقال له : جزاك الله عن دينك وعن نبيك وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء ،

قد أمرت لك بعشرة آلاف صلة لك فاقبضها . فكانت عامّة أموال محمد ابن عمران من تلك الصلة فما أبرك سلوك السنن القويم واتباع الصراط المستقيم[1] .

٣٥٦ — وقال المأمون: ما قدمت بغداد إلا لأكتب كتب الواقدى[2]

٣٥٧ — كتب الواقدى هذا رقعة إلى المأمون يذكر فيها غلبة الدين وغمّه بذلك ، فوقّع المأمون على ظهرها : فيك خلّتان ، السخاء والحياء ، فأما السخاء فهو الذى أطلق ما ملكت ، وأما الحياء فهو الذى منعك من إطلاعنا على ما أنت عليه ، وقد أمرنا بكذا وكذا ، فإن كنّا أصبنا إرادتك فى بسط يدك ، فإنّ خزائن الله مفتوحة ، وأنت كنت حدثتنى ، وأنت على قضاء الرشيد ، عن محمد بن إسحاق عن الزهرى عن أنس ابن مالك : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير يا زبير إن باب الرزق مفتوح بباب العرش ، ينزل الله على العباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن قلّل قلل له ، ومن كثّر كثر له) قال الوقدى : وكنت قد أنسيت هذا الحديث ، فكانت تذكرته إياى أحب إلىّ من جائزته ، قال هارون بن عبد الله القاضى الزهرى : بلغنى أن الجائزة كانت مائة ألف درهم ، فكان الحديث أحب إليه من المائة الألف[3].

٣٥٨ — أقول : إن هذا اللطف الملوكى فى كتاب المأمون إلى الواقدي : مبعثه عزة العلم وشعور الكاتب بعظم من يكتب إليه حتى يؤنسه بأحذه عنه الحديث ، وأنه يعرف ما فيه من خلال الفضل ، فتوسل ، بذكرها إلى الاشادة بها والاحتجاج لها والقيام بإعزاز صاحبها ، ولا عجب فى هذا

(١) ص ١٧٠ العقد الفريد للملك السعيد .

(٢) ص ٥ ج ٣ البغدادى .

(٣) ص ١٩ ج ٣ البغدادى .

بعد أن يكون قدوم المأمون بغداد ليكتب عن الواقدى كما يقول الخليفة نفسه ، وكان بعد انتصاره على أخيه قد تبطأ أزمانا ، ولا فخر فالواقدى (محمد بن عمر بن واقد) هو كما قالوا فيه: (أمنّ الناس على أهل الإسلام — وأعلم الناس بأمر الإسلام) وإليه يرجع الفضل فى جمع تاريخ الإسلام وتحقيقه على الطريقة التى يقولون : إنها مستحدثة كما سترى فى الفصل الآتى :

هذا العالم العظيم ، كان الفضل فى انتشار علمه وتوفير راحته وتفتح روضه للوزير الكريم يحيى بن خالد البرمكى ، فهو الذى عرفه ولمح عزته فأعزّه وخفّض العيش عليه ، وأقام لعلمه دولة كان كاتبها محمد بن سعد صاحب الطبقات المشهور بكاتب الواقدى ، وفى سوق النعمة تعريف الكرم الحكم ونبل الرياسة ، ومن عرف هذا الكرم كانت حياة الواقدى — فقد كان الواقدى مع علمه حناطا بالمدينة يتجر فى الحنطة ، حصلت فى يده مائة ألف درهم للناس يضارب بها فخسرها كلها ، فشخص إلى العراق وقصد يحيى البرمكى وسأل الإذن ، فقال له الحجاب هذه الكلمة السامية للتعريف بعادة ذلك الوزير السامى : (إذا قدم الطعام إليه ، لم يحجب عنه أحد) وأدخلوه عليه فى ذلك الوقت ، فمن أول جلسة عرفه الوزير وأدناه ، وسأله العود إليه فعاوده أربعة أيام أفاد فيها أربعة آلاف دينار ، ثم أقطعه دارا وأثثها له وسأله المقام معه وأعطاه ما سدّد دينه وأصلح حاله ، فأقام بأهله فى ناحيته وتولى قضاء الجانب الشرقى ببغداد ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدى فلم يزل قاضيا حتى مات .

قال « الخطيب » : كان الوقدى جواداً كريماً مشهوراً بالسخاء ، وهو

من طبق شرق الأرض وغربها ذكره ، ولم يخف على أحد عرف الناس أمره ، وسارت الركبان بكتبه فى فنون العلم من المغازى ، والسير ، والطبقات وأخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، والأحداث التى كانت فى وقته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وكتب الفقه ، واختلاف الناس في الحديث وغير ذلك(١) اه .

٣٥٩ — وكان القاضى أبو يوسف لا ينزل عن بغلته حتى تطأ بساط المجلس .

٣٦٠ — وقال لازون بن إسماعيل : ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبى دؤاد ، وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبى دؤاد فيكلمه فى أهله وفى أهل الثغور وفى أهل الحرمين وفى أقاصى أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد . ولقد كلمه يوما فى مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهرا فى أقاصى خراسان فقال له : وما علىّ من هذا النهر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر فى أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر فى أمر أدناها ، ولم يزل يرفق به حتى أطلقها اه .

وإعزاز المعتصم هذا لأحمد لم يكن مبتدئا به ، بل كان له مثله وأجل عند المأمون ، حتى كتب عنه فى وصيته التى كتبها لأخيه المعتصم دستورا يسير عليه بعد توليه ، قال فيها : « وأبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد لا يفارقك الشركة فى المشورة في كل أمرك، فإنه موضع ذلك » فلما ولى المعتصم ، الخلافة جعله قاضى القضاة وخص به أحمد حتى

(١) تاريخ بغداد ج ٣ .

لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهراً إلا برأيه ، ولما مات المعتصم ، ظل كذلك عند ولده الواثق بالله

٣٦١ – ولما مات أبو اسحاق الشيرازى وانقضى عزاؤه وكان أول من درس بالمدرسة النظامية ، رتب مؤيد الملك بن نظام الملك « أبا سعد المتولى » مكانه ، فلما بلغ الخبر إلى نظام الملك ، كتب بإنكار ذلك ، وقال : كان من الواجب أن تغلق المدرسة سنة لأجله ، وزرى على من تولى موضعه ، وولى غيره

٣٦٢ – وكان نظام الملك هذا الوزير الأشهر إذا قدم عليه إمام الحرمين أبو المعالى ، وأبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة المشهورة فى التصوف ، بالغ فى إكرامهما وأجلسهما فى مقعده

٣٦٣ – ولما عاد إمام الحرمين إلى نيسابور ؛ فى أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان السلجوقى ، والوزير يومئذ نظام الملك ، وإمام الحرمين هو من هو ، بنى له المدرسة النظامية بنيسابور ، وحضر دروسه بها أكابر الأئمة ، وانتهت إليه الرئاسة ثلاثين سنة غير مزاحم ، وانظر نبذة ٢٢٥

وقد مر عليك فى نبذة ٣٠٦ ما صنعه الملك الكامل للمحدث السلفى وقد بنى له مدرسة بالاسكندرية

٣٦٤ – وقد سبق القول فى نبذة ٢١١ أن فخر الدين ابن شيخ الشيوخ المتولى أمر المملكة المصرية فى زمن الصالح بنى « طبلخانة » على مسجد وأمر القاضى عز الدين بهدمها وأسقط ابن الشيخ من ولايته لذلك ، وظن فخر الدين أن ذلا لا يتأثر بهذا الحكم فى الخارج ، فاتفق أن السلطان جهز رسولا إلى الخليفة المستعصم ، فلما أدى الرسالة ، قال له الخليفة : هل سمعت هذه

الرسالة من السلطان ؟ قال : لا ، ولكن حملنيها عنه فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لا نقبل روايته ، فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد وأداها . اه

٣٦٥ — حدثنى أبى رحمه الله : وكان قد قدم لطلب العلم بالجامع الأزهر فى أواخر أيام شيخه الشيخ ابراهيم البيجورى رحمه الله ، قال أبى : كتب لى شيخ الجامع ورقة بمساحة أصبعين أبدها للمدير هذا نصها (ولدنا مدير الدقهلية — رافعه من طلبة العلم يجب إكرامه — خادم العلم والفقراء ، الختم ابراهيم البيجورى) قال أبى : فرفعت هذه الورقة عن عائلتنا كلها ظلم تلك الأيام ، وعافتنا من السخرة والعونة وجميع تلك المظالم ، قال : ورفعت من شأنى ما لم أحسه بعد هذا ، لمن نال أكثر وأكثر

٣٦٦ — وفى أثناء طبع هذا الكتاب أطلعنى شقيقى البكباشى عبد الحى على هذه القسيمة ، عثر عليها فى أوراق أبينا ، وهى مستند يدل على بقاء الإعزاز للعلماء — وقد أخذت صورتها بالزنكوغراف :

٣٦٧ — وحدثنى أبى أن الخديوى عباس الأول كان يجىء الأزهر ويحضر به درس الشيخ البيجورى فيجلب له كرسى قش صغير من قهوة بلدية أمام باب المزينين ، يجلس عليه بجوار المستمعين .

٣٦٨ — وملك مصر الملك فؤاد الأول يقابل عصبته فى أيام التشريفات ثم يكون العلماء أول الداخلين عليه ، ومن ورائهم سائر رجال المملكة .

٣٦٩ - وحدثنى أبى (الشيخ سليمان ابراهيم النورى) المتوفى سنة ١٣٢٢هـ وكان رحمه الله من علماء التشريفة السابقين قال : ماكان أحد يجلس وتنزل له القهوة فى أيام التشريفات غير الأمراء والعلماء ، وغيرهم يقابلهم رب القصر وهو واقف فيسلمون وينصرفون . وقال : كان لعلماء التشريفة يوم سبت من كل أسبوعين يلقون فيه ولى الأمر ، يجلس إليهم وتدور القهوة عليهم ويتكلم معهم ويسمع مايقولون ؟ وتسمى هذه التشريفة الصغرى لا يلبسون فيها كسا التشريف إنما هم بملابسهم عليها الفراريج .

٣٧٠ - أقول : (والنُّورى) نسبة إلى بلدنا كوم النور من أعمال مديرية الدقهلية ، حدثنى أبى أن أول من لقبه به شيخه المرحوم الشيخ ابراهيم السقا ، وكان أبى تلميذه الأول وقارىء الكتاب فى درسه على عادة أهل العلم فى ذلك الزمن ، قال رحمه الله : لما زار السلطان عبد العزيز مصر أمر لعلماء الأزهر ببضعة آلاف وزعت عليهم ، فكتب كل شيخ أسماء طلابه وجاء مدير الأوقاف يوزعها عليهم ، وجلس فى مسجد محمد بك أبو الذهب قبالة الأزهر ، فكان يدعو كل شيخ إذا وصل الدور إلى كشفه فيقعد معه حتى يصرف لتلميذيه ، قال أبى وكنت فى ذلك الوقت شاباً أتغالى فى ملابسى ، وكنت أصبغ الجلباب عند « الصباغ » أبى صاحب النتيجة المشهورة ولا يصبغ عنده إلا الأثرياء ، وعلى قفطان بلدى وزيى فى ذلك الوقت مع الشباب وجيه ، فلما نادى الكاتب باسمى (الشيخ سليمان النورى) تلفت الحضور جميعاً وجئت فسمعت الباشا يقول للشيخ السقا وهو بجواره ماهذا الاسم « النورى » ؟ فأجابه الشيخ : أنه نورى ، أى نورى أنا فضحك الباشا وسر .

العلم — والعمل

٣٧١ — أومضنا لك فى هذا الكتاب بلمحات من علم النور الذى يهدى به الله ، ويسمو صاحبه حتى يعلو على ظلمة المادة فتذل له المادة بعناصرها ، العلم الذى أعزه أهله ورقوا له حتى استعبدهم فاستعبد لهم من سواهم ، وذاقوه فعرفوا أنه لا حدود له ، وعرفوا بسعته تقصيرهم فيه فجدوا له ونهموا ، وطالب العلم منهوم لايشبع — (٣٦٤) قيل لأبى عمرو ابن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : مادامت الحياة يحسن به اهـ .

٣٧٢ — وكانت الدنيا كلها دار علم لهم يتنقلون فى أقطارها كما يتنقل أطفال اليوم فى غرف المكتب ، فعادتهم إذ ذاك الرحل والنقل وهواهم فى التلقى والتلاقى عادة متبعة وشنشنة معروفة — (٣٦٦) قال ابن الأثير فى مختصره : كان أبو سعد واسطة عقد البيت السمعانى ، رحل فى طلب العلم والحديث إلى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها ، وسافر إلى ماوراء النهر وسائر بلاد خراسان عدة دفعات ، وإلى قومس والرى وإصبهان وهمذان وبلاد الجبال والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد التى يطول ذكرها ويتعذر حصرها ، ولقى العلماء وأخذ عنهم وجالسهم وروى عنهم واقتدى بأفعالهم الجميلة وآثارهم الحميدة ، وكانت عدة شيوخه تزيد على أربعة آلاف شيخ أهـ .

٣٧٣ — قال أبو أسامة : ما رأيت رجلا أطلب للعلم فى الآفاق من ابن المبارك ، وقال ابن المبارك : حملت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف منهم — قال العباس بن مصعب فى تاريخه : وقع لى من شيوخه (ابن المبارك) ثمانمائة ، وقد جمع ابن المبارك الحديث والفقه والعربية

والشجاعة والسخاء والتجارة[1] والزهد والشعر والفصاحة والحج والغزو وقيام الليل ومحبة الفرق له .

٣٧٤ — وقال السيوطى العالم المصرى المشهور فى ترجمته لنفسه : سافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور الخ وذكر العلوم التى رزق التبحر فيها ، والعلوم التى أحاط بها وقال : لو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك من فضل الله ، لا بحولى ولا بقوتى الخ [2] .

٣٧٥ — وقد أفادهم (العلماء) الانقطاع إلى العلم سعة فى أنظارهم ، وبركة فى عقلهم ومعقولهم ، وغذاء تاما لمداركهم ، وقواهم العقلية ، وفيما وقفنا عليه من أحوالهم مدهش يعجب له من يسمعه حتى ليخاله بعيداً عن التصديق ولكنه الواقع الذى أفاده الانقطاع له والتوفر عليه ، وفى كثرة ما يروى عن جمهرة من العلماء قرينة صادقة على حصوله وصحة وقوعه ، فقد روى أن الإمام أحمد بن حنبل صاحب المسند والمذهب المشهورين كان يحفظ ألف ألف حديث .

٣٧٦ — وقال يحي بن معين : كتبت يدى هذه ستمائة ألف حديث وكتب له المحدثون بأيديهم ستمائة ألف وستمائة ألف — وخلف يحي هذا من الكتب مائة قمطر ، وأربع حباب شرابية (جمع حب وهى الخابية) مملوءة كتباً وانتهى اليه علم علماء الأقطار حتى قال أحمد بن حنبل فيه : كل حديث لا يعرفه يحي بن معين فليس هو بحديث .

---

(١) (تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٥٤)

(٢) (ص ١٤١ جـ ١ حسن المحاضرة)

٣٧٧ — وأملى شمس الأئمة السرخسى كتابه « المبسوط » نحو خمسة عشر مجلدا ، وهو فى السجن باوزجند ، كان محبوساً فى الجب بسبب كلمة نصح بها الخاقان ، وكان يملى من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو فى الجب ، وأصحابه فى أعلى الجب ، وقال عند فراغه من شرح العبادات : هذا آخر شرح العبادات باوضح المعانى وأوجز العبارات ، املاء المحبوس عن الجمع والجماعات . وقال فى آخر شرح الإقرار : انتهي شرح الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الأسرار ، إملاء المحبوس فى مجلس الأشرار . وله كتاب فى أصول الفقه وشرح « السير الكبير » أملاه وهو فى الجب ، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج فأطلق ، فخرج فى آخر عمره إلى « فرغانة » فأنزله الأمير حسن بمنزله ، ووصل إليه الطلبة فأكمل الاملاء(١) .

٣٧٨ — وقال الخطيب فى تاريخه : كان للواقدى ستمائة قمطر كتب وكان يقول : ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه ، وحفظي أكثر من كتبي ، قال ابراهيم الحربي : الواقدى أعلم الناس بأمر الاسلام ، حدث الكلبي أنه سمع الواقدى يقول : ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ؟ فإذا أعلمني ، مضيت إلى الموضع فأعاينه ، ولقد مضيت إلى (المريسيع) فنظرت إليها ، وما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه أو نحو هذا الكلام . قال فحدثني ابن منيع قال : سمعت هرون القروى يقول : رأيت الواقدى بمكة ومعه ركوة فقلت أين تريد ؟ فقال أريد أن

---

(١) ص ١٥٨ الفوائد البهية فى تراجم الحنفية

أمضى إلى حنين) حتى أرى الموضع والوقعة . قال العباس : وحدثنى من أثق به وهو أبو أيوب بن أبى يعقوب قال : سألت إبراهيم الحربى قلت :أريد أكتب مسائل مالك ، فأيما أعجب ، مسائل ابن وهب أو ابن القاسم ؟ فقال لى : اكتب مسائل الواقدى ، فى الدنيا أحد يقول سألت مالكاً والثورى وابن أبى ذئب ويعقوب (أبا يوسف) غيره ؟ أرادا أن مسائل الواقدى أكثر لأنه جمع ، ولا يقتصر على جمع ماعند إمام واحد(١) .

٣٧٩ ـ أقول : وطريقة الواقدى هذه طريقة « الجامعين » المستحدثين الذين يزعمون أنهم سبقوا الأوائل فى نهج تحقيق المسائل ، فالواقدى المؤرخ الفحل يرى ويكتب ، ويسمع ويكتب ، وهو على مايكتب قادر محيط ، إن شاء وسع وإن شاء اختصر ، فقد عرف عنه أنه يجمع روايات الرجال وأحاديثهم وينسجها فى برد ينشره ، فرغبوا إليه أن يميز رواية كل راو ويسردها وحدها ، فأخبرهم أن هذا يطول ، فرضوا أن يطول ، فغاب عنهم جمعة ، وأفرد روايات المحدثين عن غزوة « أحد » وجاءهم بها عشرين مجلداً ، فجفلوا وسألوه أن يرجع إلى سبيله ، الأول بعد أن عرفوا غور بحره وبعد ساحله .

٣٨٠ ـ وقال أبو على القالى : كان أبو بكر بن الأنبارى يحفظ فيما ذكر ثلثمائة ألف شاهد فى القرآن الكريم ، وقيل له : قد أكثر الناس فى محفوظاتك فكم تحفظ ؟ فقال : أحفظ ثلاثة عشر صندوقا ، وقيل : إنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً للقرآن بأسانيدها ، ومن جملة

---

(١) ص ٦٣ ج ٣ تاريخ بغداد

تصانيف الأنبارى غريب الحديث ، قيل إنه خمس وأربعون ألف ورقة ، وكتاب شرح الكافي وهو نحو ألف ورقة ، وكتاب الهاءات نحو ألف ورقة ، وكتاب الأضداد ، وكتاب الجاهليات ، وهو سبعمائة ورقة ، والمذكر والمؤنث ما عمل أحد أتم منه ؛ ورسالة المشكل رد فيها على ابن قتيبة ، وأبي حاتم .

٣٨١ — وكان أبو عمرو : المعروف بغلام ثعلب ، مشغولا بالعلوم واكتسابها عن اكتساب الرزق والتحيل له ، فلم يزل مضيّقاً عليه ، وكان لسعة علمه وغزارة حفظه يملي أكثر تصانيفه بلسانه من غير صحيفة يراجعها ، حتى قيل : إنه أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة فى اللغة .

٣٨٢ — قال الوليد بن يزيد : لحماد الرواية ، بما استحققت هذا اللقب ؟ فقيل لك الراوية ؟ فقال : بأني أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً لقديم ولا محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال : إن هذا العلم وأبيك كبير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثيراً ، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام ، قال : سأمتحنك فى هذا ، وأمره بالإنشاد ، فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم .

(١) ج ٥ ص ١٥٦ أغانى

٣٨٣ - « وفى تاريخ أبى الفداء ج ٢ ص ١٠٥ » كان المتنبى لا يسأل عن شىء إلا استشهد فيه بكلام العرب ، حتى قيل : إن الشيخ أبا على الفارسى قال له يوماً : كم لنا من الجموع على وزن فُعْلى ؟ فقال المتنبى فى الحال : حجلى وظربى . . قال أبو على : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهما ثالثاً فلم أجد . وحسبك من يقول فيه أبو على هذه المقالة .

٣٨٤ - وقرأت فى ترجمة الكسائى - عالم العربية فى عصره - أنه اجتمع يوماً بمحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي حنيفة ، فقال الكسائى : من تبحر في علم يُهدى إلى جميع العلوم ، فقال له محمد : ما تقول فيمن سها فى سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائى : لا ، قال محمد : لماذا ؟ قال الكسائى : لأن النحاة تقول ، المصغر لا يصغر ، قال محمد : فما تقول فى تعليق الطلاق بالملك ؟ قال : لا يصح ، قال : لم ؟ قال : لأن السيل لا يسبق المطر اه .

٣٨٥ - وهذا لعمرى علم النور ، وهذا وحقك نور العلم ، صفى نفس العالم حتى ما عاد يحبسها حجاب . وبهذا القدر قدر العلماء أنفسهم وقدرهم الناس . قال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة ، فاختلفوا فى ذلك ، ودخل أحمد بن أبى دؤاد فعدهم واحداً واحداً بأسمائهم وكناهم . فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلا فمثل أحمد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالم لميفة فمثل أمير المؤمنين الذى يفهم عنه ، ويكون أعلم بما يقوله منه .

٣٨٦ - ومن قصة ابن أبى دؤاد ، يرى لمع من حال موظفى الدولة

الأولى ، فلم تلك مناصبهم لتبعدهم عن العلم ، أو لتقصيهم عن الانتظام فى الجلة من المنقطعين له ، بل رجال لا تلهيهم أعمالهم عن العلم وتتبعه والاستزادة من مناهله ، والقيام فى مجالسه بما ينادى باستحقاقهم لمناصبهم وتفوق أقدارهم على مراتبهم ، حتى يتقارض الخليفة والقاضى الثناء علناً ، والتصابى فى العلم جهاراً .

وهذا قاض آخر ، لم يشغله مجلس القضاء عن مجالس العلم بل تكاد تشربه ، إذ كان القضاء فيما مضى والعلم صنوى مجلس واحد ينتظمه المسجد الجامع أو دار القضاء العامة ، قال اللكنوىّ : كان لنوح بن أبى مريم ، قاضى مرو الذى يلقب بالجامع ، لأنه كان جامعاً للعلوم ، كان له أربعة مجالس : مجلس الأثر ، ومجلس أقاويل أبى حنيفة (وقد تفقه عليه) ، ومجلس النحو ، ومجلس الشعر والأدب (١) .

٣٨٧ — وهذا ذكر لنابغة الزمان وحافظ الإسلام أبى عبد الله محمد ابن إسماعيل البخارى صاحب « الصحيح » الذى عكف المسلمون عليه بعد القرآن ، أخذناه طُرفا من تاريخ بغداد للحافظ أبى بكر (ج ٢) فقد ألهم البخارى حفظ الحديث وهو فى الكتاب ثم رقت درجته حتى ردّ على شيخه « الداخلى » وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وسمع عنه جلة الشيوخ وهو ابن سبع عشرة ، وصنف تاريخه المشهور وهو ابن ثمانى عشرة ، وخرّج كتاب الصحيح من ستمائة ألف حديث ، وسمعه تسعون ألف رجل ، ولم يضع فيه حديثاً إلا اغتسل وصلّى ركعتين ، ونظم تراجمه بين قبر النبى صلى الله عليه وسلم ومنبره ، ويصلّى ركعتين لكل ترجمة .

هذا الحافظ العظيم الذى كان يضارع مالكا فى الفقه والحديث ،

---

(١) ص ٢ ٣٢١ الفوائد البهية

ويجلس له مسلم صاحب « الصحيح » جلسة السائل المتعلم ، وتقابله الأمصار إذا دخلها مقابلة الفاتح ، ويخشع العلماء فى حضرته خضوع من يظلهم الجبل ، نشأ مشغولاته بالحديث ، مشغولا عما عدا العلم ، حتى روى عنه أنه منذ ولد إلى أن مات ما اشترى شيئاً ولا باعه ، حتى الحبر والكاغد الذى يحتاجه ، كان يكلف غيره بشرائه ، وروى أصحابه ممن عاشره أنه كان يقوم بالليل بضع عشرة مرّة فيوقد السراج ويخرج أحاديث ، فيعلم عليها ويقول البغدادى : إنه رحل فى طلب العلم إلى سائر محدّثى الأمصار وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق كلها وبالحجاز والشام ومصر ، وقد ذكر البخارى ، أنه كتب عن ألف شيخ وأكثر ، وقال ابن النضر : دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ورأيت علماءها فكلما جرى ذكرى البخارى فضّلوه على أنفسهم ، وقد وطن له نبوغه من صغره نفوس أهل الكبر حتى لقبوه : الكبش النطاح ، ويذكر ابن إسماعيل اختلافه معهم فى الصبا لسماع الحديث ستة عشر يوما على مشايخ البصرة والطلبة يكتبون وهو لا يكتب حتى عابوا عليه ما يضيع ، فقال لما أكثروا : أخرجوا ما كتبتم فى تلك الأيام ، فإذا بالمكتوب خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها عن ظهر قلب ، وعُرف عنه هذا النبوغ فكان أهل المعرفة فى البصرة يعدون خلفه وهو فى الطريق حتى يجلسونه كرها فيستملى عليه الألوف. هذا العظيم نشأ كما قلنا مشغولا بالعلم فترك ما عداه ، ويروى عمر بن حفص الأشقر أنهم فقدوه أياما من كتابة الحديث قال : فطلبناه فوجدناه فى بيت وهو عريان وقد نفد ما عنده ولم يبق معه شىء ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبا وكسوناه ثم اندفع معنا فى كتابة الحديث اه. هذا الفتى العارى ، هو الذى كان يدخل الأمصار الحواضر فيتنادى الناس بمقدمه ويتعادون لسماع الحديث عنه حتى يبلغ مجلسه عشرين

ألفاً أو يزيدون . ومن عجب أن يكون معه فى زمنه حفاظ الإسلام أبو زرعة بالرىّ ، ومسلم بنيسابور، والدارمى بسمرقند ، وبقية أصحاب الأسانيد قريب من زمنه قبله أو بعده بقليل ، وكذلك الفحول فى بقية العلوم ، أزمانهم كانت واحدة أو متقاربة مما يعجب له متتبع تاريخ الإسلام ويبلغ به عن خصب الإسلام ونماء العلم بين أهله فى تلك الأحقاب .

٣٨٨ — ولا نترك القلم حتى نروى العجيبة التى وقعت للبخارى فدلت على أن الله يختص بفضله من يشاء ، وهي إعلان سماوى عن المدى المدهش لقُوى العقل البشرى فى الإنسان . قال ابن عدىّ : سمعت عدّة مشايخ يحكون ، أن محمد بن إسماعيل البخارى قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة رجال كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوها على البخارى ، وأخذوا منه موعد المجلس فحضر ، وحضر جماعة أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ، ومن البغداديين ، فلما اطمأنّ المجلس بأهله ، انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخارى : لا أعرفه ، فسأله عن آخر ، فقال : لا أعرفه ، فما زال يلقى عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخارى يقول لا أعرفه ، فكان الفهماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون : الرجل فهم ، ومن كان منهم غير ذلك يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الفهم ، ثم انتدب رجل آخر من العشرة فسأله على حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال البخارى لا أعرفه ،

فسأله عن آخر فقال : لا أعرفه ، فسأله عن آخر فقال :لا أعرفه ، فلم يزل يلقى عليه واحداً بعد آخر حتى فرغ من عشرته والبخارى يقول لا أعرفه ، ثم انتدب إليه الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة والبخارى لا يزيدهم على لا أعرفه ، فلما علم البخارى أنهم قد فرغوا ، التفت إلى الأول منهم فقال : أما حديثك الأول فهو كذا ، وحديثك الثاني فهو كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة ، فردّ كل متن إلى إسناده ، وكل إسناد إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك وردّ متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها وأسانيدها إلى متونها ، فأقرّ له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل(١).

أقول : لقب البخارى عند العلماء هو (أمير المؤمنين فى حديث سيد المرسلين).

٣٨٩ – وفى ترجمة الإمام « الاوزاعى » عالم أهل الشام ، أنه أفتى فى سبعين ألف مسألة . وهذا البحر الخضمّ يقول عنه أبو الفداء فى تاريخه « ص ٧ ج ٢ » : إن قبره فى قرية على باب بيروت يقال لها : (خنتوس) لا يعرفه أهلها وإنما يقولون : ههنا رجل صالح ؟؟ وبلغنى أن هذه القرية أصبحت اليوم متصلة ببيروت وتسمى باسم « الأوزاعى ».

٣٩٠ – ومن هذا الفضل الذى آتاه الله من شاء من عباده العلماء حتى تراءت لهم الحقائق ونفذ نورهم فأضاء لهم قواعد العلوم واتسع عقلهم فحاز ما وسعه الطوق البشرى منها ، لا يعجب القارىء إن قلت له في علوم « أبى يوسف » القاضى الذى اشتهر بالفقه : إن الفقه كان أقلّ علومه نعم فأبو يوسف صاحب أبى حنيفة الأول ، وناشر فقهه وضابطه ، والذى

---

(١) ص ٢١ ج ٢ تاريخ بغداد

يعرف طلاب مذهب الحنفية أن مسألة من مسائله لا تمر حتى يكون لأبي يوسف فيها قول بالموافقة أو المخالفة ، أبو يوسف هذا الذى بلغ بفقهه أن كان « قاضى الشرق والغرب » فى زمن الرشيد ، وإن كان أول قاض فى الإسلام خوطب بـ « قاضى القضاة » ، وإن كان بفقهه فى قضائه قد نفع الدولة ورفعها ، وحلّ كثيراً من مشاكل الخلافة وأمر الملك ، ونظّم القضاء ورتب أمور العدل : أبو يوسف هذا الذى مضى لك فى الكتاب أن فقهه رفعه حتى أكل « كما تنبأ أبو حنيفة له » الفالوذج بدهن الفستق مع الخليفة ، ويقول ابن عمارة : إنه رآه يوماً مع زُفر (صاحب أبى حنيفة) افتتحا مسألة عند أبى حنيفة من حين طلعت الشمس إلى أن نودى بالظهر ، فإذا قضى لأحدهما على الآخر قال له الآخر : أخطأت ما حجتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبى يوسف على زفر حين نودى بالظهر ، فقام أبو يوسف ، قال : فضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال : لاتطمعنّ فى الرياسة بأرض يكون هذا بها .

أقول لك : وأبو يوسف صاحب هذا الفقه وصاحب هذه البسطة فيه وصاحب هذه الرياسة به ، أقول لك ما رواه البغدادى عن هلال بن يحيي قال : كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازى وأيام العرب ، وكان أقل علومه الفقه ، اه فانظر إلى عالم النور وعلمائه ، هذا فقه أبى يوسف الذى صنع له وبه ما صنع ، هو أقل علومه فقس ما كان أكثر علومه وسبح الله[1]

٣٩١ — وكذلك فاسمع عن « إسحق الموصلى » نادرة الفلك فى الغناء والموسيقى ، والذى بذّ الأوائل ولم يلحقه أحد فى الأواخر ، الحاذق فى الفن فلا توجد آلة من آلات الموسيقى إلا ويعزف عليها ، ويكون المجلى وبقية الحذّاق من المعروفين فيها بالسباق يجيئون خلفه ، والمغنى علماً وفناً ، فهو

---

(١) ص ٢٤٦ ج ١٤ تاريخ بغداد

صاحب إنشاء وتلحين وأداء ، وهو من صغره الى مماته يقرّ له الفحول بالرياسة ويخشونه فى حضرته وفى غيبته ، ثم يزيد عن الفن والعلم ، فيخترع ويضع القواعد لها ، ويترجم الكتب اليونانية بعد ذلك فتجىء طبق ما فكّر وعلى استقامة ما ابتكر ، وهو فى كل ذلك لم يسبق إلى تعلّمها ولا طلع على سلالم العلوم التى لاينال هذا المنال الا بتسلقها ، إسحق الموصلى هذا الذى ملأ سمع الدنيا وسكّر عيون أهاليها بفنه وبغنائه ، يقول صاحب كتاب الأغانى : إن الغناء كان أصغر علومه وأقلّ ما حواه عقله قال أبو الفرج : موضع « إسحق » من العلم ، ومكانه من الأدب ، ومحلّه من الرواية ، وتقدمه فى الشعر ، ومنزلته فى سائر المحاسن ، أشهر من أن يدلّ عليه فيها بوصف ، وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم بهوإن كان الغالبَ عليه وعلى ماكان يحسنه ، فإنه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ، ولم يكن له فى هذا نظير ، فإنه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقى ، وألحب للناس جميعاً طريقه فأوضحها ، وسهل عليهم سبيله وأنارها ، فهو إمام أهل صناعته جميعاً ، ورأسهم معلمهم ، يعرف ذلكمنه الخاص والعام ، ويشهد به الموافق والمفارق ، على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدهم بغضاً لأن يدعى اليه ويسمى به ، وكان يقول : لوددت أن أضرب كلما أراد مريد منى أن أغنى ، وكلما قال قائل إسحاق الموصلى المغنى ، عشر مقارع ، لا أطيق أكثر من ذلك ، وأعفى من الغناء ولا ينسبنى من يذكرنى إليه ، وكان المأمون يقول : لولا ماسبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء بحضرتى ، فما أعرف مثله ثقة وصدقاً وعفة وفقهاً ، وقد روى الحديث ولقى أهله ، مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وهشيم بن بشير وإبراهيم بن سعد وأبى معاوية الضرير وروح بن عبادة

وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز ، ولذلك روى ابن المنجم أن إسحاق سأل المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لامع المغنين فأجابه ، ثم سأله بعد حين أن يدخل مع الفقهاء ، فأذن له ، فكان يدخل عليه ويده في يد يحيى بن أكثم قاضي القضاة . وفي زمن الواثق كان إسحاق إذا قدم عليه ، يحضر مع الجلساء بغير عود ويديه الواثق ، ولا يغني حتى يقول له غنِّ ، فإذا قال قدّم له عوداً حتى يفرغ فيرفع من يده إكراماً له وبراً (١) .

٣٩٢ — ولا نفوت الفصل قبل أن نعطره بذكر الإمام (إبراهيم النخعي) الذي انتهت إليه رئاسة العلم بالكوفة (نبذة ١٩) والذي إذا أطلق اسمه (إبراهيم) لاينصرف إلا إليه من غير حاجة إلى تعريف آخر ، وفيه يقول الشعبي : ماترك إبراهيم بعده أعلم منه ، فقيل له : ولا الحسن وابن سيرين ؟ فقال : ولا الحسن ولا ابن سيرين ولا من أهل البصرة ولا من أهل الكوفة ولا من أهل الحجاز ولا الشام الخ . هذا العالم العظيم ذكر ابن قتيبة عنه في كتاب (المعارف ص ١٦٠) أنه حُمل العلم عنه وهو ابن ثمان عشرة سنة ، وكان روايةَ علمه حمّاد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة ، وبروايته عنه عرف ولقب ، ويقول ابن خلكان : إنه رأى أمّ المؤمنين عائشة ، وكان يدخل إليها ، وساق في « الخلاصة » ثبت من أخـذ عنهم وأخذوا ، وفي سائر كتب العلم الإسلامي قل أن تجد كتاباً خلا من ذكره . ورث إبراهيم هذا العلم كله ومات وسنه ست وأربعون ؛ وحاز هذه الشهرة العلمية وهو يفرّ منها وهي تتبعه . قال في الخلاصة : كان لايتكلم إلا إذا سئل وقال مغيرة المحدّث : كنا نهاب إبراهيم كما يهاب الأمير ، قال الأعمش :

---

(١) (ج ٥ ص٤٩ ، ٥١ — ج ٦ ص ١٦٢ أغاني)

كان إبراهيم يتوفى الشهرة ولا يجلس إلى الاسطوانة ؛ هذا الفحل العبقرى كان من موالى النخع ، ولكن يظهر أن العرب ضنوا به ؛ فهو فى أكثر كتب النسب موصول النسبة بالعرب ، حتى قال « يونس » النسّابة الراوية : قد ولدته العرب ومع هذا الجلال العلمى الذى برق به فى عمره القصير ، يحكون عنه أنه كان مزّاحا ، ويقصّون من مزاحه مع العلماء قصصاً فكهة مؤدبة ؛ ولما حضره الموت جزع جزعاً شديداً ، فقيل له فى ذلك ، فقال : وأى خطر أعظم مما أنا فيه ؟ إنما أتوقع رسولا يرد علىّ من ربى ، إما الجنة وإما بالنار ، والله لوددت أنها تلجلج فى حلقى إلى يوم القيامة ، وصدق الله العظيم « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

٣٩٣ — أقول : إنى مهما تفننت فى وصف العلم وذكر أثره ، وذهبت أجمع الشاهد والمثل على عجبه بلوغ أمره فلست بمدرك ماصنعه القاضى إياس بن معاوية ، فقد كشف عظيمة من عظائمه وسجلها فى حكمه وهو على قضاء البصرة ، أكبر القاضى شأن العلم وأعظمه حتى أقامه مقام السيادة والحرية ، وجعله يفعل لصاحبه ما يفوق حدّ الإنسانية ويخرج به عن مرتبة البشرية ، فقد روى ابن قتيبة فى كتاب المعارف ص ١٦٢ : أنّ إياساً هذا أجاز شهادة عبد العزيز بن صهيب وحده ! وعبد العزيز محدّث وثقه أحمد ابن حنبل ، كان عبداً مملوكاً وأبواه مملوكين ، تجاوز إياس لعلمه عن رقه مع أنه لا شهادة لرقيق ، وقبلها منه وحده والشهادة لاثنين ، إذ رأى القاضى أن فضل العلم وصدق العالم يغنى عن العدد والحرية (٣٩٤) ولا يدخل أحد على حكم إياس وهو الذى بقى من القرن الأول إلى يومنا هذا مضرب المثل فى الذكاء والفراسة والفطنة ، ولا يتهمه فى حبّ الحق وقد قضى وشهد على نفسه به ، ففى ترجمته أنه قال : ماغلبنى أحد قطّ سوى رجل واحد ،

وذلك أني كنت فى مجلس القضاء بالبصرة ، فدخل على رجل شهد عندى أن البستان الفلانى وذكر حدوده هو ملك فلان ، فقلت له : كم عدد شجره ؟ فسكت ثم قال : منذ كم يحكم سيدنا القاضى فى هذا المجلس ؟ فقلت : منذ كذا . فقال : كم عدد خشب سقفه ؟ فقلت له : الحق معك ، وأجزت شهادته (٤٩٥) ولابأس أن نستطرد لذكر توليته القضاء حتى نمكن للقارىء من رأى إياس فى معجزة العلم . وأن رأيه فيها وفى إتيانها بالعجب رأى مستقل ثابت غير جامح ولا مزعزع ، إذ كان لم يطلب القضاء وإنما طلبه القضاء ، ودافع عن نفسه أن يتولاه فأبى فضله عليه إلا أن يقلده أولو الأمر تقليده . فهو إذ يرى وإذ يقضى ، يكون الرأى ما يراه إياس ، وكفى بالرأى متانة أن ينسب إلى إياس ، وبالقضاء حقاً أن يكون قضاء إياس . كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة ، واليه على العراق : أن اجمع بين إياس بن معاوية ، والقاسم بن ربيعة الحرشى ، فول قضاء البصرة أنفذهما ، فجمع بينهما ، فقال له إياس : أيها الأمير ، سل عنى وعن القاسم ، فقيهى المصر ، الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، وكان القاسم يجيئهما وإياس لا يجيئهما ، فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به ، فقال له : لاتسأل عنى ولا عنه ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، أن إياس بن معاوية أفقه منى وأعلم بالقضاء ، فإن كنت كاذباً فما يحل لك أن توليني وأنا كاذب ، وأن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل قولى ، فقال إياس للأمير : إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف ، فقال عدى لإياس أما إذ فهمتها فأنت لها ، واستقضاه . فيرى من هذا التحليل أن إياساً فيما أجاز به شهادة عبد العزيز وهو المملوك ابن المملوك ، وأجازها

منه وحده لا ثانى معه ، إنما فعل ذلك كشفاً منه عن عظيمة العلم ، وأنها تقوم لصاحبها مقام الحرية والعدد ، وهو كشف يسجل بالفخار للكاشف أو المكتشف .

* * *

٣٩٦– وكما قلنا إن علم النور يرفع الحجب عن عيون علمائه حتى يبصروا ما وراء حدودهم ، مثله عندهم مصداق ما يروى عن السيد المسيح « الغنى يعطي ويزاد » فالعالم الحق فى ازدياد ابداً ؛ وعلمه فى نمو دائماً وعقله ببركته يتسع ويكبر فى مدى يمده الله من فضله على نماذج ماروينا كذلك نقول : إن العلماء عرفوا حق العلم فراعوا معه الأدب فى التزام حده وتوزعوا شيعاً كل فريق لزم فرعاً واحتاز فناً وامتاز بفنن ، وفى هذا التخصص برع المختص وفرع ، وعرف به ونفق ، وقامت شهرته عليه فاحترمها الناس له ، واحترم المشهورون أنفسهم فهم يعملون بها ويعلمون الناس أن يعرفوها ولا يتخطوها – وكان حظ العلم من هذا التخصص وفيراً ، فإنه يخيل إلى أن العالم المختص تنشأ له حاسة سادسة خاصة بما التزمه وتفرغ له ، هذا البخارى سمع شيخه يروى عن سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم ، فقال له : يا أبا فلان إن أبا الزبير عن إبراهيم ، فانتهره ، وكان البخارى ابن إحدى عشرة ، فقال له لم يرو ارجع إلى الأصل إن كان عندك ، فدخل ونظر فيه ثم خرج فقال : كيف هو يا غلام ؟ قال : هو الزبير بن عدى عن إبراهيم – فأخذ الشيخ قلمه وأحكم كتابته وصدقه[1] .

---

(١) (ص ٧ ج ٣ تاريخ بغداد)

ومثل هذا كثير الحاصل فى تراجم المحدثين حتى إنهم ليدركون من متن الحديث حقيقته . وقد سمعت فى (نبذة ٣٨٢) ما قاله حماد الراوية عن حاسته التى يعرف بها الشعر القديم من المحدث بمجرد سماعه :

٣٩٧ — وقال أبو عبيد : أنشدنى « بشار » فى شعر الأعشى

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وأنكر هذا البيت وقال : هذا بيت مصنوع مايشبه كلام الأعشى قال أبو عبيد : فعجبت لذلك ، فلما كان بعد عشر سنين كنت جالساً عند يونس فقال : حدثنى أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت ، وأدخله فى شعر الأعشى وذكر البيت (وأنكرتنى الخ) فجعلت حينئذ أزداد عجباً من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر [1] .

٣٩٨ — قال على بن عبد الكريم : زار ابن جامع المغنى ، إبراهيم الموصلى فأخرج ثلاثين جارية ، فضربن جميعاً طريقة واحدة وغنين فقال ابن جامع : فى الأوتار وتر غير مستو ، فقال إبراهيم : يا فلانة شدى مثناك ، فشدته فاستوى ، فعجبت أولا من فطنة ابن جامع لوتر فى مائة وعشرين وتراً غير مستو ، ثم ازداد عجبى من فطنة إبراهيم له بعينه[2] .

أقول : لا عجب ، فإن التخصص يفعل العجب ، فقد حدثنا أستاذنا أحمد فهمى العمروسى بك ، وكان يدرس لنا علم (تاريخ الإنسان الطبيعى) فى مدرسة القضاء الشرعى ، وذكر المرحوم الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد وأنه كان لمرانته على التحرير لا يبالى أن يكتب الناس معه ،

(١) ص ٢٣ ج ٣ أغانى
(٢) ص ٣٩ ج ٥ أغانى

أو يكتب وهو يسمع لهم ويحدثهم ، ويكتب وهو يصرف أمور جريدته ويخرج الكلام الجيد ولايقطع سلاسته مايكون قد قطعه أثناء الكتابة ، فعجبنا فقال الأستاذ العمروسى : لا تعجبوا ، إن الشيخ عليا ، رجل أصبحت أنامله بالمرانة تعقل .

٣٩٩ — ولهذه الميزة أوغل علماء السلف فيها ، ووزعوا الناس بينهم على علومهم ، فأتقنوا هم ، واتسعت دائرة العلوم فى عصرهم ، وتابعهم أهل زمنهم على التزام حدودهم ، ولذلك لما قيل لسفيان الثورى : رأى مالك أحب إليك من رأى أبى حنيفة ؟ قال : أكتب حديث مالك فإنه كان ينتقى الرجال ، والفقه صناعة أبى حنيفة وصناعة أصحابه كأنهم خلقوا له ، وسئل الأعمش المحدث فى مسألة فقال : إنما يحسن جواب هذا النعمان بن ثابت ، وأظنه بورك له فى علمه .

٤٠٠ — ومن ألطف ما أورده مثلا على التخصص واحترام العلماء له وتفرغ كل لهمه منه ، أن أبا حنيفة كان عند الأعمش المحدث ، فسئل عن مسائل ، فقال لأبى حنيفة ماتقول فيها ؟ فأجابه قال له : من أين لك هذا ؟قال: من أحاديثك التى رويتها عنك ، وسرد له عدة أحاديث بطرقها فقال الأعمش : حسبك ، ماحدثتك به فى مائة يوم تحدثنى به فى ساعة واحدة ؟ ما علمت أنك تعمل بهذه الأحاديث ، يامعشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة .

٤٠١ — ومع أن المجتهدين مابلغوا مرتبة الاجتهاد إلا ببلوغهم الغاية فى جميع العلوم الشرعية واستكمالهم آلات الاجتهاد وكلها من العلوم العربية والأدبية والمقاييس الحكمية الخ الخ فإنهم وهم من هم : وقفوا ووقف الناس

بهم على العلم الذى اجتهدوا له وفيه وهو الفقه ، وكانوا هم يسألون أهل الذكر فى غيره ، ويعدوهم الناس فى غيره إلى غيرهم ، وفى ترجمة الواقدى قال محمد بن صالح : سئل مالك بن أنس عن المرأة التى سمت النبى صلى الله عليه وسلم بخيبر مافعل بها ؟ فقال : ليس عندى بها علم وسأسأل أهل العلم ، فلقى الواقدى فسأله فقال : الذى عندنا أنه قتلها ، فقال مالك : لقد سألت أهل العلم فأخبرونى أنه قتلها(١) .

٤٠٢ — ومن أدق ما رأيناه فى التزام حدود الاختصاص ، أن الأصمعى كان لا يفسر شعراً يوافق تفسيره شيئاً من القرآن ، وقد ساق (صاحب الجمهرة) جملة من القول امتنع الأصمعى عن الكلام فى تفسيرها لأنها وردت فى القرآن ، فمن باب ما يجىء على فعل وأفعل ، بان لى الأمر وأبان ، ونار لى وأنار ، إلى أن قال سرى وأسرى ، امتنع الأصمعى عن الكلام لأنه فى القرآن ، فقد قرىء « فأسر بأهلك » وأسر بأهلك ، وسرد أمثالا لذلك ، ونسج هو على منواله ، فمن ذلك أنه قال : الأثام لا أحب أن أتكلم فيه ، لأن المفسرين يقولون فى قوله تعالى : « يلق أثاما » : هو واد فى جهنم(٢) .

٤٠٣ — بل الأعجب من هذا ماذكره الخطيب أن الواقدى مع ماكان له من سعة العلم وكثرة الحفظ ، كان لا يحفظ القرآن ، وقد وقعت له قصة فى هذا مع المأمون إذ طلب إليه أن يصلى الجمعة غدا بالناس فامتنع فصمم المأمون فاعتذر بأنه لا يحفظ سورة الجمعة ، فقال له المأمون : أنا أحفظك ، واشتغل معه ، كلما حفظ نصفها الأول وانتقل للثانى نسى الأول

---

(١) ص ٨ ج ٣ تاريخ بغداد .

(٢) ص ٢٠٥ ج ٢ المزهر .

فإذا عاد لحفظه نسي الثاني حتى تعب المأمون ونعس ، ووكله لعلي بن صالح فكذلك كان حاله ، حتى استيقظ المأمون وسأل عنه فأخبره عليّ : فقال المأمون له : هذا رجل يحفظ التأويل ولا يحفظ التنزيل ، وتركه .

٤٠٤ — وهذا حنين بن اسحاق اشتهر بالطب والترجمة ليكتب الحكمة وعرفه الناس بهذا فحسب ، مع أنه كان شاعراً خطيباً فصيحاً لسناً ، لزم الخليل بالبصرة حتى أتقن العربية ، وهو الذى أدخل كتاب العين إلى بغداد .

٤٠٥ — وإليك مثلا نابها على احترام الملوك لتخصص العلماء حتى ما يتعدونهم ، وحتى ليرسل الخليفة « هشام » إلى الكوفة فى إحضار راوية ليسأله عن بيت من الشعر ربما كان فى حاضرته دمشق من يفتيه ويفيده ، ولكن كما قلت هى حرمة التخصص ، والقصة طلية يحكيها صاحبها ، قال حماد الراوية : كان انقطاعى إلى يزيد بن عبد الملك ، فكان هشام يجفونى لذلك دون سائر أهله من بنى أميــة فى أيام يزيد ، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام ، خفته فمكثت فى بيتى سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخوانى سرّا ، فلما لم أسمع أحداً يذكرنى سنة ، أمنت فخرجت فصليت الجمعة ثم جلست عند باب الفيل فإذا شرطيان قد وقفا عليّ فقالا لى : يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر ، فقلت فى نفسى : من هذا كنت أحذر ، ثم قلت للشرطيين : هل لكما أن تدعانى آتى أهلى فأودّعهم وداع من لا ينصرف إليهم أبداً ثم أصير معكما إليه ؟ فقالا : ما إلى ذلك من سبيل ، فاستسلمت فى أيديهما وصرت إلى يوسف بن عمر وهو فى الإيوان الأحمر ، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ، ورمى إليّ كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر ، أما بعد : فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الرواية من يأتيك به غير مروّع ولا متعتع ، وادفع إليه خمسمائة دينار ، وجملا مهريا يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق ، فأخذت الخمسمائة الدينار ، ونظرت فإذا جمل مرحول ، فوضعت رجلي في الغرز ، وسرت اثنتي عشرة ليلة حتى وافيت باب هشام ، فاستأذنت فأذن لي ، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب ذهب ، وحيطانه كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب خزّ حمر ، وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه ، فسلمت فردّ عليّ ، واستدناني فدنوت ، حتى قبّلت رجله ، وإذا جاريتان لم أر قبلهما مثلهما ، في أذني كل واحدة منهما حلقتان من ذهب فيهما لؤلؤتان تتوقدان ، فقال لي : كيف أنت يا حماد وكيف حالك ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قلت : لا ، قال : بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر من قاله ، قلت : وما هو ؟ فقال :

فدعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق

قلت : هذا يقوله عدىّ بن زيد في قصيدة له ، قال فانشدنيها ، فأنشدته :

بكر العاذلون في وضح الصبـ ـح يقولون لي ألا تستفيق

ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موهوق

لست أدرى إذ أكثروا العذل عندى ، أعدو يلومني أو صديق

زانها حسنُها وفرع عميم وأثيث صلتُ الجبين أنيق

وثنايا مفلجات عـــذاب لا قصار ترى ولا هن روق

فدعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينـــة فى يمينهـــا إبريق

قدمته على عقار كعين الـــد يك صفى سلافهـــا الراووق

مزة قبل مزجهـــا ، فإذا ما مزجت ، لذ طعمها من يذوق

وطفت فوقهـــا فقاقيع كالدر صغار يثـــيرها التصفيق

ثم كان المزاج مـــاء سماء غير ما آجن ولا مطـــروق

فطرب هشام ، وقال : أحسنت ياحماد ، سل حوائجك ؟ قلت : كائنة ماكانت ؟؟ قال : نعم ، قلت : إحدى الجاريتين ، قال : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما ، وأنزله فى دار أعدت له فوجد الجاريتين وأقام مدة عنده وصله بها بمائة ألف درهم(١) .

٤٠٦ — ونرى من المناسب هنا أن ننقل كلمة للسيوطى يؤخذ منها بيان الطريقة الأولى فى العلم والتعلم أيام طبقة الحفاظ ، ساوى فيها بين الحديث واللغة ، وهو القائل (علم الحديث واللغة أخوان يجريان من واد واحد) قال : وظائف الحافظ فى اللغة أربع : إحداها : وهى العليا ، الإملاء ، كما أن الحفّاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء ، وقد أملى حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير ، فأملى ثعلب مجالس عديدة فى مجلد ضخم ، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة رأيت منها مجلداً ، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنبارى وولده أبو بكر مالا يحصى ، وأملى أبو على القالى خمسة مجلدات ، وغيرهم ، وطريقتهم فى الإملاء كطريقة المحدثين سواء يكتب المستملى أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا فى يوم

---

(١) ص ١٥٨ ج ٥ أغانى .

كذا ويذكر التاريخ » ثم يورد المملى بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير . ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره ، وقد كان هذا فى الصدر الأول فاشياً كثيراً ، ثم ماتت الحفاظ وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد ، واستمر إملاء الحديث ، ولما شرعت فى إملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجددته بعد انقطاعه عشرين سنة ، من سنة مات الحافظ أبو الفضل بن حجر ، أردت أن أجدد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره ، فأمليت مجلساً واحداً ، فلم أجد له حملة ولا من يرغب فيه فتركته ، وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجى ، له أمالى كثيرة فى مجلد ضخم ، وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، ولم أقف على أمال لأحد بعده(١) .

٤٠٧ — كذلك يحسن بنا هنا الإلمام بطرف من العلم فى المغرب ، فنورد وصفاً أجمله العلامة « المقرى » للعلم ببلاد الأندلس فى كتابه نفح الطيب ، وقد ألفه سنة ١٠٣٩ بعد أن ارتحل من بلاده ونزل القاهرة وخدم العلم الشريف بالأزهر المعمور ، وهو وصف خاص بالعلوم الشرعية ، إذ يظهر أنها كانت طلبة السائلين عن حال تلك البلاد فى ذلك الزمن ، أما علومها الاجتماعية والآلية ، فينبوءك غيره عنها فى غير هذا الكتاب ، وكفى بعز الأندلس القديم شافياً ومجيبا . قال رحمه الله : وأما حال أهل الأندلس فى فنون العلوم ، فتحقيق الإنصاف فى شأنهم فى هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز ، فالجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم ، يجهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس ، لأن هذا عندهم فى نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار

---

(١) ص ١٩٩ ج ٢ المزهر .

إليه ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم فى جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك ، ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرءون جميع العلوم فى المساجد بأجرة ، فهم يقرءون لأن يعلموا ، لا لأن يأخذوا جاريا ، فالعالم منهم بارع ،لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم ، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظاً عظيما عند خواصهم ولا يتظاهرون بها خوف العامة ، فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلقت عليه العامة اسم « زنديق » ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة ، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن على ماذكره الحجازى ، والله أعلم . وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة ، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه بـ « الفقيه » وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى ، فقيه ، لأنها عندهم أرفع السمات ، وعلم الأصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ، حتى إنهم فى هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل

وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة ، وهم كثير و البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكلّ عالم فى أىّ علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحقّ للتمييز ، ولا سالم من الازدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والعوامّ كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أنّ شخصاً من العرب سمع كلام « الشلوبينى أبى علىّ » المشار إليه بعلم النحو فى عصرنا ، الذى غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه ، لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه ، والخاصّ منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجرى على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات فى الرسائل ، وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبلُ علم عندهم ، وبه يتقرّب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل ، والشعر عندهم له حظّ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظّ ووظائف ، والمجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم(١) .

٤٠٨ — وبهذه السنة التى التزمها علماء الإسلام فى التخصص والتوزع ، أمكن للمؤرخين والمحصين أن يتحصلوا على مجموعات هائلة من أسماء علماء ، لولا وسمهم بسمة خاصة بهم لضاعوا أو لاستعصى حصرهم وغدا بذلك لكل علم بل لكل فرع طبقات ، انتظم فيها كل عالم اشتهر فى نوع خاص ، نظم من أجل شهرته هذه فى سلك رجالها وإن كان له أثر ظاهر فى طبقة أخرى ، وافتتح بذلك باب جديد « لعلم الرجال » ألفت

(١) ص ١٠٢ ج١ نفح الطيب .

فيه الكتب التي لا تحصى [1] ، فعندنا طبقات الأدباء وطبقات الشعراء وطبقات النحاة وطبقات اللغويين وطبقات الفقهاء (بعدد مذاهب الفقه) وطبقات المقرئين وطبقات المحدثين وطبقات الحاسبين والفلكيين والمنجمين والمهندسين والأطباء والصيادلة والوزراء والقضاة ورجال المغازى والسير الخ الخ ، بل الأعجب من هذا كله أن قد ألف فى طبقات المصورين والمزوقين ، ورأيت « المقريزى » ينقل عن كتاب طبقات المصورين فى « خططه » وهو يتكلم عن العمائر الإسلامية . والمكتبةُ العربية الإسلامية لا يكاد يخطر ببالك وأنت فيها نخاطر عن بحث أو موضوع إلا رأيت فى البحث كتبا

(1) أكبر فخر لعلماء هذا الفن ما وصلوا اليه من استقراء حال الصحابة وتوريخهم ، وذكر أحاديثهم ، وترتيب وفياتهم ، وهو عمل فوق الجهد البشرى اذا علمنا أن عدد الصحابة عند موت النبى صلى الله عليه وسلم كان (١١٤٠٠٠) وأن حياة أكثر الصحابة كانت قبل الاسلام ، معدومة فيها الوثائق التى يستند اليوم اليها المؤرخون وتواتيهم بالعون والمدد ، وقد تابعوا هذا الجهد العظيم بتتبع رواة الحديث أيضا طبقة بعد طبقة فورخوهم جميعا ، وذكروا أحوالهم وأسماء مشايخهم وأسماء تلميذيهم وسنى مواليديهم ووفياتهم ، وهم عدد لايحصره الا خالقه ، فبرهنوا على مقدار التضحية والبذل لخدمة الفن ، وعلماء رجال الحديث هم واضعو طريقة « النقد التحليلى » فهم يتعرضون للرواة ويشرحون حياتهم شرحا يعرفون به حالاتهم وأحوالهم ، وما يتبينونه فيها يأخذون منه حكم الثقة فى رواية الراوى أو تضعيفها أو تضييعها على مراتب معلومة فى باب « الجرح والتعديل » ، وعلى نهجهم درج علماء الرجال فى بقية الطبقات الأخر التى اشتغل علماؤها بغير الحديث ، ويرى من هذا أن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والاشتغال به رواية ودراية فن تفرد المسلمون به لا نظير له عند غيرهم من الأمم . وأحكم ما فيه مما يسمو بفخرهم أحكامهم التى نصبوا أنفسهم لاصدارها على الأحاديث المنسوبة للرسول ، ووسم كل حديث منسوب بسمة خاصة به تبين منزلته فى أخذه دليلا شرعيا ومقدار ما يوجبه هذا الدليل ، على أن نهاية الفخر هو تصديهم لأحاديث أخرى وضعها مختلقون ونسبوها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فهم تتبعوا تلك الاقاويل على كثرتها وتشعبها ، ووصلوا بسبرهم الى مصدرها حتى كذبوا نسبتها للرسول وأقاموا الدليل على كذبه . وهذا عمل فوق المجد يدل على تمام اليقظة والتنبه لذلك المقام النبوى السامى الذى يؤخذ كل ما يصدر ، منه على العين والرأس ، فنقوه من اللصيق والدخيل حتى يبقى جلاله ومكانه فى المستوى اللائق به ، وردوا عن أمته آنات الكذب والاختلاق واحداث ما لم يأت به شرع خاتم النبيين وسيد المرسلين . وهذا عمل يفوق كل تقدير ويرفع أصحابه الى عليين ، رضى الله عنهم أجمعين .

وتخاطرك مؤلفين حتى فيما لا يظن ولا يكون ، مما يدل على تضخم العمران واتساع الحضارة وانتشار المدنية اللاتى تحكيها هذه الكتب وتوضع فيها تلك المؤلفات وكانت معلوماتها مادة تأليفها ، وهى فى الوقت نفسه تكاد تصور لك ما تراه فى عصرنا هذا الذى تظن رقيه فى مصرنا أو فى غيرها من ممالك الحضارة ، كأن ما نحن فيه صورة مكررة لما قد كان تصديقاً لقول الحكيم سليمان : لا جديد تحت الشمس. وقد وقع لى من مطالعتى مقابلات كثيرة بين ما يقصه التاريخ الماضى وبين ما نشاهده فى الزمن الحاضر ، فألفت فيها كتابا سميته (دورة الزمن) لا موضع للنقل منه الآن وإن كان فيه ما يقضى بالعجب ويستدعى ضرب المثل (ما أشبه الليلة بالبارحة) حتى المستشفيات الطيارة (المتنقلة) وإفراد المرضى المعدين[١] وجواز السفر ورد من لا جواز له[٢] وحكم تسليم المجرمين والمراسلة بينهم بين ملك الروم والمسلمين[٣] وإعداد روايا الماء فى داخل المساكن لإطفاء الحريق[٤] وقيام العلماء بكتابة مذكرات يومية[٥] بل أكثر من هذا أقول لك حتى « خزان أسوان » فكر فى إنشائه مهندس مسلم بالعراق قبل عصرنا هذا بعشرة قرون[٦]. وعندى كشف

---

(١) ص ٣٣ ج ٣ ، ٣٢ ج ١٤ اغانى .
(٢) ص ٤٦ ج ٨ أغانى .
(٣) ص ٢ ج ٢٠ أغانى
(٤) ص ٢٢ ج ٣ صبح الاعشى .
(٥) ص ١٦١ ج ١ المقريزى .
(٦) خطر ببال المهندس البصرى أبى على الحسن بن الحسن بن الهيثم ، أن يضبط النيل ، ويحفظ ماءه ويصرفه حسب الأحوال ، وأن يستعين فى عمله هذا بالجنادل أى الشلالات قبلى أسوان اذ ينحدر الماء عندها من موضع عال أى أن يبنى الخزان فى هذه المنطقة . ووصل خبر هذه الفكرة الى الحاكم بأمر الله فسير اليه فى السر (لتنافس الخلافتين الفاطمية والعباسية اذ ذاك) جملة من المال ليحضر مصر ، فحضر وأكرمه الحاكم وسير معه بعثة فى النيل من الصناع المتولين العمارة بأيديهم ليستعين بهم على هندسته ، ووصل مكان الشلال واختبره من جانبيه ورأى بعد اقامة الخزان فوقها الخ .

مدهش بعمليات أطباء العرب الجراحية والتشخيصية وطرقهم فى العلاج ، كعملية تفتيت الحصوة داخل المثانة بمسبر ركبت قطعة ألماس فى طرفه (صبح الأعشى) ، وكإخراج السلعة من تحت عين السيدة سكينة بنت الحسين ورفع حدقتها (الأغانى) وكمعالجة استسقاء الخليفة الواثق بطريقة التنور المسخن (ابن جرير) ، واستخراج العصارة المعدية من جوف الحجاج الثقفى لبحث مرضه (ابن خلكان) ولطف حيلة جبرائيل ابن بختيشوع لبسط الحرارة فى حظية الرشيد حتى استرسلت يدها ، وإنقاذ صالح بن بهلة الهندى لصهر الرشيد بطبه بعد أن سطعت روائح المباخر فى جنازته (اخبار العلماء) الخ الخ مما يخفض من غلواء بعض المعاصرين العاقين لأسلافهم الصالحين ، الذين اجتهدوا حتى أدخلوا فى طبهم معرفة مهاب الرياح ، وطبيعة المناخ ، واستخدموا له الألوان ، والأنغام ، بله الأوهام .

ومن يقرأ كتب العلوم الاجتماعية الإسلامية يتجلى له العالم الإسلامى فيما مضى بحضارته وسيادته وقوته وما أعدته القوة له من آلات الدفاع فى البر وفى البحر ، وعلى الثغور والحدود ، وما قام به العلم بسائر أقسامه من أجل تمدينه ورفاهيته وقاية وعلاجا وسعادة وإسعادا حتى كانوا بعلومهم سادة الدنيا وذادتها ، وصدق لهم قول الله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة — كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » وقد فصل الحق آياته للمسلمين الأولين ، وهم يعلمون عاقبة الأخذ بها سعادة فى الدين والدنيا ، فعرفوها وتعلموها وعملوا

بعلمهم فيها ، فآتاهم الله من ثمرات العلم ما رقوا به ذلك الرقى العمرانى ، وسادوا به فى المجتمع سيادة لم يرو التاريخ مثيلها لغيرهم حتى الآن وواتتهم الدنيا مواتاة صدقت فيها النبوءة النبوية فيما رواه البخارى عنه صلى الله عليه وسلم : « يوشك الفرات أن يحسر عن كنز ذهب » وقد حسر زمن العباسيين ، ولو ظلوا على ما أمرهم به نبيهم فى قوله تماماً لهذا الحديث (فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً) لظلوا فى عزهم ، ولكن فتنتهم الدنيا كما فتنت من كان قبلهم . وقد ورد فى البخارى أيضا من كتاب « الرقاق » عنه صلى الله عليه وسلم ، إذ جاء أبو عبيدة بمال من البحرين ، ووافته الأنصار فى صلاة الصبح فقال عليه السلام : « أبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم » .

وانى أوجز لك القول عن مبلغ الحضارة فى القرن الرابع الهجرى بذكر مشهدين لم يتخلل بينهما نصف القرن ، وقع أولهما فى عاصمة المشرق « بغداد » والثانى فى « قرطبة » عاصمة بلاد الأندلس والمغرب ، وقد تكفل بهما فحلان من العلماء الحافظ أبو بكر فى (تاريخ بغداد) والعلامة المقرى فى (نفح الطيب) .

وليس من موضوعى أن أتبسط ، وإنما هو استطراد للبيان عن ومض من نور تلك الحضارة جر قلم « الحافظ » إلى الإفاضة فى وصف بغداد فحدث عن « دار الخلافة » فيما أنها وحدها كانت مثل مدينة « شيراز » وزف رسول ملك الروم . وقد قدم بغداد وافداً على الخليفة

المقتدر سنة (٣٠٥هـ) زفة تكاد صحف كتابه تطير بوصفها برقاً ولمعاناً ، ويطير معها قلب القارىء اهتيالا وخفقانا ، وقد جلس المقتدر للرسول فى قصر « التاج » من قصور الخلافة ، جلسة سجد لها التاريخ فى عصره ، ويحق للتاريخ أن يسجد لتلك العظمة التى تبص من خلال وصفها فى قصورها ، وزينتها ، وفى جحافلها وعدتها ، وفى حاشيتها وبهجتها ، وفى هولها وضخامتها ، حتى قيل إن عدد ماعلق من ستور الديباج المذهبة بالطرز المصدرة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطيور ، ثمانية وثلاثون ألف ستر ، وعدد البسط التى فرشت فى الممرات والصحون لدوس القواد والرسل من باب العامة إلى حضرة المقتدر ، اثنان وعشرون ألف قطعة ، سوى مافى المقاصير والمجالس مماكان للنظر والفرش ، وقد رسم للرسل أن يدار بهم على قصور الخلافة ، وكن يخدم فيها أربعة آلاف خادم من البيض ، وثلاثة آلاف من السود ، وسبعمائة حاجب ، وأربعة آلاف غلام ، وبها دار جمعت من أصناف الوحش مايقرب من عدد الناس ، أخرجت وقد استأنست فهى تتشممهم وتأكل من أيديهم ، وفيها أربعة أفيلة لكل فيل سبعة نفر من السند والزراقين بالنار ، ومائة سبع كل سبع فى يد سباع يجرونها بالسلاسل والحديد الخ الخ مما يهول ويطول ، إنما ننقل هنا ما ذكره فى وصف دار الشجرة ، وهى شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، قال : ـــ دار الشجرة ـــ وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها ذهب ، وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق

الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر ، وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً ، على خمسة عشر فرسا ، قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفى أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد فى « الناورد » خببا وتقريبا . فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد ، وفى الجانب الأيسر مثل ذلك(١) .

٤٠٩ ــ وبعد هذا التاريخ لأقل من خمسين سنة تكرر المشهد نفسه فى الغرب ، وكان الماثل فى حضرة الخليفة ملك اسبانيا نفسه ، ففى سنة ٣٥١ هجرية هرع الملك « اردون بن أدفونش » ومعه عظماء مملكته مستجيرين بالحكم بن الناصر ، وهو ينزل « الزهراء » مدينة العظمة والجمال ، فجلس لهم فى المجلس الشرقى منها ، الذى كان يسمى « المؤنس » وفيه « الحوض الأخضر » . وقد جرد المقرى قلمه مستبقا مع الحافظ البغدادى ، وفى عظمة بغداد وعظمة « الزهراء » وجلال الملك فى هذه وتلك مستبق عريض لتلك الأقلام الطوال ، وتكاد الصورة تكون طبق الأصل فى الهول والفخامة ولذلك نقتصر على وصف ذلك الحوض ، قال المقرى(٢) .

وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الانسان فجلب من القسطنطينية وقالوا : إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله ، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل فى البحر ، ونصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ، صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ،

---

(١) ص ١٠٣ ج ١ تاريخ بغداد .

(٢) ص ٢٦٢ ج ١ .

وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من افواهها .

٤١٠ – وقال : وفى الزهراء المجلس المسمى (قصر الخلافة) وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ الصافى لونه ، المتلونة أجناسه . وحيطان هذا المجلس مثل ذلك ، وجعلت فى وسطه (اليتيمة) التى اتحف الناصر بها (أليون) ملك القسطنطينية ، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة ، وفى وسط المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد مواليه فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طار بهم مادام الزئبق يتحرك ، وهذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه فى الجاهلية ولا فى الاسلام وإنما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم (١) .

٤١١ – ولا أقفز بالقارىء من بغداد إلى قرطبة دون أن أعرج به على « مصر » وهى كانت جنة الدنيا ، ولا أريد أن ألقى بالقلم فى مناد حها فهى لا حدود لها من عظم عظمتها وسامق مدنيتها ، وقد تكفل « القلقشندى » فى كتابه « صبح الأعشى » بما اكتفيت به ، وظنى وهو من دولة المماليك أن لو كان فى زمن الأيوبيين ما استطاع أن يسجل تلك المفاخر الفاطمية

---

(١) ص ٢٤٦ – ج ١ نفح الطيب .

التى قلد تمثالها الشاعر « عمارة اليمنى » مرثيته المؤثرة البليغة وقد كتبها بدمه الذى أهدره « السلطان صلاح الدين » فيما أهدره من دماء الأوفياء لتلك الدولة التى وفت للحضارة أعظم الوفاء ، والقصيدة مشهورة ومطلعها .

رميت يادهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

وإنى أكل حساب « السلطان صلاح الدين » إلى رب السماء فقد مر بى زمن وأنا أوازن بين حسنات ذلك السلطان فى حروبه الصليبية وبين سيئاته فى تخريب المملكة الفاطمية ، وهممت أن أتفرد للحكم وكتابة أسبابه ، لولا أن الزمن مضى وانقضى ، ولا حاجة بنا إلى نبش القبور — إلا أنى أقيد هنا من آثار الصنعة المصرية نقلا عن « تنيس » وكانت من مدن الصنائع متخصصة بحوك الثياب الشروبية التى لايصنع مثلها فى الدنيا ، قال المقريزى(١)

وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له « البدنة » لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب ، بصناعة محكمة لاتحوج إلى تفصيل ولا خياطة ، تبلغ قيمته ألف دينار وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو ساذج بغير ذهب مائة دينار عيناً غير طراز تنيس ودمياط — اه

---

(١) ص ٢٨٦ ج ١ .

العمل

٤١٢ – قلنا إن العلم يستفتح العلم ويزداد النور بالنور ، وبذلك الصفاء الإلهى اخترق العلماء حجب الكائنات ووقعت على أيديهم المعجبات ، وهم كانوا أعاجيب ربنا ويبقون آيات قدرته فى خليقته بما يراه الناس فيهم ومنهم ، ومن هذا الاستعلاء العلمى جاءهم العز بعد أن جاءهم الفتح من عند ربهم وتم لهم الغلب على غيرهم بما أعدوه فى أنفسهم من عدد العلم ، وبما أعدهم به العلم للعلو والمزيد ، وغاية هذا كله فى أنفسهم حصانة النفس وحفظها ، وأن تكون أول من يتذوق ثمرها وينتفع بخيرها ، وفى ذلك يقول الإمام الشافعى : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نبل مقداره ، ومن تعلم اللغه رق طبعه ، ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . اه

٤١٣ – أى إن غاية العلم العمل ، وهذه نتيجة لازمة للعلم وإلا كان عبثاً من العبث ، ولياً للعلم عن قصده من الصلاح والإصلاح ، بل خلعا لربقة العلم من عنق العالم أن لا يعمل بما يعلم ، وخيانة ظاهرة للمجتمع يستحق عليها صاحبها المقت من الله ومن الناس ، وخليق به أن يكون مطروداً من تلك الحظيرة الطاهرة ، قال أبو الدرداء : لا تكون عالماً حتى تكون بالعلم عاملا ، وقال : إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لك قد علمت ، فماذا عملت فيما علمت ؟ وقال : ويل للذى لا يعلم مرة ، وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات .

٤١٤ – ذلك بأن وظيفة العلم هى أن يكون إمام العمل ، وأن يبين السبيل للعامل كيف يصل ، والعلم لا يتخلف عن وظيفته فهو يقوم بها من طبعه ، فإن سُمع وأطيع فذاك العلم المنتج ، وإن عصى وخولف فكأنه لا علم ، بل يوشك أن يطمس على قلب صاحبه .

٤١٥ – وقال بعض السلف : العلم يهتف بالعمل ، فإن أجاب حل وإلا ارتحل . وما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل وهو من أعظم أسباب حفظه وثباته قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » وقد أخبر الحق أنه يجــزى المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون قال تعالى : « والذى جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون »

٤١٦ – ومن أحسن ما يجزى به العالم ، زيادة علمه ، وحكمه فيه قال تعالى: « ولما بلغ أشدّه آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين ».

قال بعض العلماء « تقول الحكمة من التمس فلم يجدنى فليعمل بأحسن ما يعلم وليترك أقبح ما يعلم ، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفنى » .

٤١٧ – وقال « ابن القيم » : لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلا على العلم الذى يصحبه العمل كما سئل سعد بن إبراهيم عن أفقه المدينة ؟ قال : أتقاهم ، وسأل « فرقد السبخى » الحسن البصرى عن شىء فأجابه ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك ، فقال : الحسن ثكلتك أمك ، فريقد ، وهل رأيت بعينيك فقيهاً ؟ إنما الفقيه الزاهدُ فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الذى لا يهمز من فوقه ، ولا يسخر ممن

دونه ، ولا يبتغى على علم علمه الله تعالى أجراً[1] .

٤١٨ — وذكر « العتبي » أن المسجد الحرام جمع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة أيام تآلفهم بعهد معاوية بن أبي سفيان ، فقال بعضهم : هلم فلنتمنه ، فقال عبد الله بن الزبير : منيتى أن أملك الحرمين وأنال الخلافة ، وقال مصعب : منيتى أن أملك العراقين وأجمع بين عقيلتى قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وقال عبد الملك بن مروان : وإن منيتى أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية ، فقال عروة : لست فى شىء مما أنتم فيه ، منيتى الزهد فى الدنيا والفوز بالجنة فى الآخرة وأن أكون ممن يروى عنه هذا العلم ، قال : فصرف الدهر من صرفه إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله ، وكان عبد الملك لذلك يقول : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ، فلينظر إلى عروة بن الزبير[2] .

٤١٩ — ولذلك لما سئل ابن المبارك : من الناس ؟ قال العلماء ، قيل فمن الملوك ؟ قال الزهاد ، قيل فمن السفلة ، قال الذى يأكل بدينه[3] .

٤٢٠ — وهذا بيان « الطريقة النبوية » فى التعليم والقصد من العلم عن عثمان وابن مسعود وأبىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر ، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً[4] .

٤٢١ — ولذلك القصد العملى من العلم ، لا تعجب من تبطؤ بعض العظماء فى الاستظهار إذ كان قصدهم الأجل هو استظهار العمل لا لوك اللسان ، ففى « موطأ مالك » : أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة

---

(١) ص ٩٤ مفتاح

(٢) ص ٢٩٩ ك

(٣) ص ١٢٩ ج ١ مفتاح

(٤) ص ٣٩ ج ١ تفسير القرطبى

« البقرة » ثماني سنين يتعلمها ، وذكر عبد الله عن أبيه قال : تعلم عمر البقرة في اثنى عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزوراً .

٤٢٢ — ولذلك لا تعجب إن قلنا لك ، إن عبد الرحمن بن شبل الأنصارى وهو معدود من علماء الصحابة ، جملة ماله من رواية الحديث أربعة عشر حديثاً(١) .

٤٢٣ — وسيدنا الحسن بن على سبط النبى ، جملة ما رواه عن جده المصطفى ثلاثة عشر حديثاً (٦٧ خلاصة) وما رواه أخوه سيدنا الحسين عن جده ، ثمانية أحاديث(٢) .

٤٢٤ — والعلم تأبى عزته أن يكون لغير نفسه ، وأن يقصد لغير وجهه ، علم الله يجب أن يكون لله ، وعلم الدنيا يجب أن يكون لوجه العلم فى الدنيا ، ووجهه دائما لله ، حنيف للخير العام ونفع عبيد الله العليم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، ومن قصد بالعلم غير العلم ذل وانكب ، ومن سلك بالعلم غير سبيله ضل وتب ، قال أبو يوسف : من طلب غرائب الحديث كذب ، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر ، ومن طلب الدين بالكلام تزندق(٣) .

٤٢٥ — وقال معاذ بن جبل : اعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا .

٤٢٦ — وروى أبو داود والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة .

---

(١) ص ١٩٧ خلاصة .

(٢) ص ٧١ خلاصة .

(٣) تذكرة الحفاظ .

٤٢٧ — ولما كان العلم للعمل ، فإنهم ما كانوا يرون الكسل ، وفى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ بالله من العجز والكسل ، ولذلك درج ورثته من علمائه على سنته فكانوا لا يرون العطل ولا يقبلون العاطل (١) قال فى « المعارف ص ١٥٢ » كان حمدان مولى عثمان ، عامله على البصرة ، فكتب إليه فى عامر بن عبد الله العنبرى التابعى ، أنه لا يأكل اللحم ولا يغشى النساء ولا يقبل الأعمال ، فكتب إليه عثمان أن يطلبه ، فإن كانت فيه الخصال فسيره ، فسأله فقال : أما اللحم فإنى مررت بقصاب يذبح ولا يذكر اسم الله فإذا اشتهيت اللحم اشتريت شاة فذبحتها ، وأما النساء فإن لى عنهن شغلا ، وأما الأعمال فما أكثر من تجدونه سواى ، فقال له حمدان : لا أكثر الله فينا أمثالك وسيره إلى الشام للغزو فمات هناك .

٤٢٨ — والعمل بالعلم متشعب النواحى مختلف المظاهر ، ضارب فى جميع طرق الحياة للوصول إلى حفظ النفس وقناعتها ، والقيام بأمر الله فيما خلق الإنسان له من العمل لدينه ولدنياه حتى يفوز بسعادتيهما ، والإخلاص فى العمل برعاية حق الله فيه غاية العامل العالم ، وعليه مدار خيره وخير الناس جميعاً . وإلى هذا المرمى نظر عمر إلى « أبى رافع » وهو يقرأ ويصوغ ، فقال يا أبا رافع : أنت خير منى ، تؤدى حق الله تعالى وحق مواليك محاضرات الأدباء » وأبو رافع هذا من كبار علماء التابعين ، كان مولى لامرأة اختلفت الأخبار فى تعيينها (٢).

---

(١) كتب المقرى فى وصف أهل الاندلس يقول : (وأما طريقة الفقراء فى مذهب أهل الشرق فى الدورة التى تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب فى الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية ، واذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، فلا تجد بالاندلس سائلا الا أن يكون صاحب عذر) ـــ ا هـ

(٢) ص ٧٢١ ج ١ .

٤٢٩ — وقال «أيوب السختياني» المحدّث الناسك الذي أوصى «أبو قلابة» أن تدفع له كتبه فجيء بها إليه من الشام إلى البصرة: كان أبو قلابة يحثني على الاحتراف، ويقول إن الغنى من العافية، ولذلك فقد كان أيوب يبيع جلود السختيان فنسب إليها.

٤٣٠ — و «أبو حنيفة»، كان تاجراً مسعداً، جاءته امرأة تطلب منه ثوب خزّ، فأخرجه لها، فقالت له: إني امرأة ضعيفة، وإنها أمانة فبعني هذا الثوب بما يقوم عليك، فقال: خذيه بأربعة دراهم، فقالت: لا تسخر بي وأنا عجوز كبيرة، فقال إني اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم، فبقى هذا الثوب عليّ بأربعة(١).

٤٣١ — فأنت ترى أن العلم يجتمع مع الصناعة ومع الوظيفة ومع القيام بجميع أعمال الدولة، والعبادة تكون أثناء العمل وبالعمل، لا تشغل صاحبها ولا تقطعه، والدنيا عندهم كما قال صفوان بن محرز: «إذا دخلت بيتي فأكلت رغيفي وشربت عليه الماء فعلى الدنيا العفاء» ليست هي سيدتهم، ولكن كانوا هم أسيادها، إنما يخدمون دينهم بجميع ضروب العمل قياما لله بأداء واجباته في أشخاصهم ومجتمعهم، فهم في الحجّ كما هم في الغزو كما هم في الوظيفة كما هم في الصيام والصدقة، عرفوا اللباب فاستغنوا عن القشور — سمع أبو حرب بن أبي الأسود الدؤلي، وكان محدثاً وشاعراً وولى للحجاج على «جوخى» فلم يزل عليها حتى مات الحجاج، سمع رجلا يقول: من يعشّي الجائع فعشاه، ثم ذهب القائل ليخرج بعد العشاء فقال هيهات، تؤذي المسلمين الليلة؟ ووضع رجله في القيد(٢).

---

(١) ص ٣٦٠ ج ١٣ تاريخ بغداد.

(٢) ص ١٥٠ و ١٥٨ معارف.

٤٣٢ ـ وقيل لمحمد بن المنكدر التابعى ، أحد الأئمة الأعلام ، الذى حدّث عن نفسه أنه كابدها أربعين سنة حتى استقامت ، وكان لايملك عينه من البكاء إذا قرأ حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذ عن عائشة وطائفة من الصحابة ، وروى عنه الزهرى وزيد بن أسلم وخلق كثير ، قيل له : أى الأعمال أفضل ؟ قال إدخال السرور على المؤمن . وقيل له : أىّ الدنيا أحبّ إليك ؟ قال الإفضال على الإخوان(١) .

٤٣٣ ـ وقال الأصمعىّ : أتت أبا رجاء العطاردى إمرأة فى جوف الليل فقالت : يا أبا رجاء ، إن لطارق الليل حقاً ، إنّ بنى فلان خرجوا إلى سعران وتركوا شيئاً من متاعهم ؛ فانتعل وأخذ الكتب بذلك وما تركوه فأدّاه وعاد فصلى الفجر ، وبين المكانين مسيرة ليل للإبل(٢) .

٤٣٤ ـ وأبو عثمان الكوفى المحدّث ، الذى أدرك النبيّ وأسلم وصدق ولم يره صلى الله عليه وسلم وروى عن عمر وعلىّ وأبى ذرّ . قال سليمان التيمى : إنى لأحسب أبا عثمان كان لايصيب ذنباً ، كان ليله قائما ونهاره صائما ، وقيل : أنه حجّ واعتمر ستين مرة وعاش ١٣٠ سنة .

٤٣٥ ـ واللؤلؤى الحافظ العلم ، أعلم الناس بالحديث ، وأملى من حفظه عشرين ألف حديث ، كان يختم القرآن فى كل ليلتين وكان يحج كل سنة .

٤٣٦ ـ والمحدّث البجلىّ أبو الحكم العالم العابد ، كان يمكث خمسة عشر يوما لايأكل ، وكان يحرم من السنة إلى السنة ويقول لبيك : لو كان رياء لاضمحل(٣) .

---

(١) ص ١٥٩ معارف ـ ص ٣٠٨ خلاصة .

(٢) ص ١٤٨ معارف .

(٣) ص ١٩٩ خلاصة التذهيب .

٤٣٧ — وأبو أسماء إبراهيم التيمى الكوفىّ المحدّث العابد القدوة. كان إذا سجد تجىء العصافير تنقر على ظهره، وظلّ أربعين يوماً لم يأكل إلا حبة عنب(١).

٤٣٨ — منصور بن المعتمر السلمى وكان من الحبشة أحد الأعلام المشهورين وثبت له نحو ألفى حديث، صام ستين سنة وقامها، وقد عمشت عينه من البكاء، ولاه يزيد بن عمر القضاء، فقعد للناس وتقدّموا إليه، فجعل يقول: لا أحسن إلى أن عزل — والأسود بن يزيد حجّ ثمانين مابين حجة وعمرة، من المعارف.

٤٣٩ — قيل ليونس بن عبيد: أتعرف أحداً يعمل بعمل الحسن البصرىّ؟ فقال: والله لا أعرف أحداً يقول بقوله فكيف يعمل بعمله؟ ثم وصفه فقال: كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفْن حميمه؛ وإذا جلس فكأنه أمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلاّ له.

٤٤٠ — وأبو زرعة المصرى شيخ الإمام الليث كان يأخذ عطاءه فى كل سنة ستين ديناراً فما يطلع منزله حتّى يتصدّق بها قال ابن وهب: ثم يجىء منزله فيجدها تحت فراشه(٢).

٤٤١ — وقال المبرد فى الكامل: كان الأصمعى لا يفسر ولا ينشد ما كان فيه ذكر الأنواء لقول. صلى الله عليه وسلم: «إذا ذكرت النجوم فأمسكوا» وكان لا يفسر ولا ينشد شعراً يكون فيه هجاء(٣).

٤٤٢ — وروى أبو الفرج عن رجل من أهل الكوفة أن «نصيباً»

---

(١) ص ٢٠ خلاصة.

(٢) ص ٨٢ خلاصة.

(٣) ص ٢٠٧ جـ ٢ المزمر.

الشاعر قدم الكوفة ، قال : فارسانى أبى إليه وكان صديقاً له فقال أقرئه منى السلام وقل له : إن رأيت أن تهدى لنا شيئاً مما قلت ؟ فأتيته فى يوم جمعة وهو يصلّى ، فلما فرغ أقرأته السلام وقلت له، فقال : قد علم أبوك أنى لا أنشد فى يوم الجمعة ، ولكن تلقانى فى غيره فأبلغ ما تحبّ .

٤٤٣ – كان ابن جامع المغنى كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته ، من أحفظ خلق الله لكتاب الله وأعلمهم بما يحتاج إليه ، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلى الصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع الشمس ، ولا يصلى الجمعة حتى يختم القرآن ثم ينصرف إلى منزله .

٤٤٤ – وأكثر ما نقرأ فى تراجم علماء السلف أن كانوا بين الصفوف فى الغزو والجهاد، وأن كانوا آخذين عن ربهم علماً وعملا ، فهذا عبد الله بن المبارك كان يحجّ سنة ويغزو سنة حتى مات منصرفه من الغزو . وسافر مرة من الشام إلى مرو فوجد فى رحله قلماً نسيه صاحبه معه من الشام ولم يجد من يبلغه ، فعاد إلى الشام حتى ردّه إليه . وفى الحرب له وقائع مشهورة فى الشجاعة والإقدام ، قال الحسن بن الربيع : خرج فارس من المسلمين ملثم فقتل فارساً من العدو وكان قد فعل بالمسلمين ، فكبر له المسلمون ، فدخل فى غمار الناس ولم يعرفه أحد ، فتبعته حتى سألته بالله أن يرفع لثامه فعرفته وقلت : أخفيت نفسك مع هذا الفتح العظيم الذى يسره الله على يدك ؟ فقال : الذى فعلت له لا يخفى عليه .

وخرج من الشرك فارس فانتدب له ، فإذا وقت الصلاة ، فسأله التنحىّ وصلى ركعتين ، فلما ذهب إليه ، قال حتى أصلى أنا ، وجعل يصلى إلى الشمس فلما خرّ ساجداً ، قال ابن المبارك : هممت أن أغدر به ، فإذا قائل أسمعه (وأوفوا

---

(١) ص ١٤١ ج ٢ اغانى .

(٢) ص ٦٦ ج ٦ اغانى .

بالعهد إن العهد كان مسئولا) فتركت الغدر ، فلما فرغ قال لى ، لم تحركت ؟ قلت : أردت الغدر بك ، قال : فلم تركته ؟ قلت لأنى أمرت بتركه . قال الذى أمرك بترك الغدر ، أمرنى بالإيمان ، والتحق بصف المسلمين(١).

٤٤٥ – وفى ترجمة الإمام الشافعى لما قدم مصر أنه سافر إلى الاسكندرية ليرابط بثغرها ، وبقى به مدة سبعة أيام ووجهه إلى البحر فى مراقبة الخطر .

٤٤٦ – وكان محمد بن أبى حاتم الورّاق مع الإمام البخارى فى ثغر حربى اسمه (فرير) فكان البخارى يقضى الليل فى التيقظ لجمع الحديث ولصلاة السحر قال ابن حاتم فقلت له : إنك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظنى ؟ فأجابه البخارى : أنت شابّ فلا أحبّ أفسد عليك نومك ، وفى يوم كان البخارى قد تعب فى تصنيف كتاب التفسير فاستلقى على قفاه فقال له ابن أبى حاتم : سمعتك تقول يوما : إنى ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت فأى علم فى هذا الاستلقاء ؟ فأجابه : أتعبنا أنفسنا فى هذا اليوم وهذا ثغر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة ذلك فإن عافصنا العدو كان بنا حراك(٢) فهذا إمام المحدّثين لا يترك العمل لاستخراج الحديث وهو بثغر المسلمين على منظرة من العدو ، ثم هو لا يدع نفسه كلها للعلم بل يعدّها بالراحة انتظاراً للقاء العدو حتى لا يجده فى المعافصة شيئاً مهملا بل رجلا منصوباً للحرب والقتال بسيفه ، كما وجده الجهل بطلا أى بطل بعقله وبقلمه ، فلله درّ علماء العمل إنهم هم الأبرار .

٤٤٧ – وهذه الظاهرة الحربية لم تفقد من علماء الإسلام حتى الزمن الأخير ، فقد سبق أن دللنا إنهم كانوا أهل الحرب والكفاح حتى رست قواعد

---

(١) النور السافر .

(٢) ص ١٤ ج ٢ تاريخ بغداد .

الإسلام الأولى على سواعدهم وسيوفهم ، وبقوا هم أصحاب السيف والقلم فى ملمته العظيمة أيام التتار وأيام الافرنج ، وكتب التاريخ فيها غاصة بأخبار شجاعتهم بسيوف أيمانهم وبسيوف إيمانهم حتى روى عن « ابن تيمية » أنه ركب من دمشق إلى مصر على ظهر ، فوصلها فى بضعة أيام يستصرخها على التتار ثم عاد بعد أن جيشها وتقدم صفوف القتال .

٤٤٨ — وفى كتاب (البطل الفاتح) لصديقنا طيب الذكر والأثر العلامة « داود بركات » رئيس تحرير الأهرام فصل طلى عن جماعة العلماء الأزهريين الذين انتدبوا أنفسهم لقيادة الفرق وتأليفها للانتظام فى سلك الجيش المصرى العربى الذى كان يقاتل فى بلاد الشام برياسة البطل الفاتح ابراهيم بن محمد على ، وقد ارتقوا فيه إلى رتب عسكرية كبيرة يفخر بها أرباب السيف ، ضموا هم فخرها إلى ماحلاهم به الله من العلم الداعى إلى العمل (١)

* * *

أما نموذج موظفى الدولة الإسلامية من فحول العلماء فاليك بعض أسمائهم وفيها الغناء والكفاية للدلالة على مجدها وسبب تقدمها وعظمة موظفيها الذين عظمت بهم وعظموا فيها .

٤٤٩ — الحسين بن حفص الهمدانى قال فيه أبو نعيم : ولى القضاء والفتيا والعدالة والنباهة والرياسة وكان وجه الناس وزينتهم ، كان دخله كل سنة ثلثمائة ألف فما وجبت عليه زكاة قط ، وجوائزه دارة على المحدثين (٢).

٤٥٠ — قبيصة بن ذؤيب المحدث شيخ الزهرى وتلميذ أبى هريرة ،

---

(١) ص ١٨١ كتاب البطل الفاتح .

(٢) ص ٧ خلاصة .

كان على خاتم عبد الملك بن مروان ، وهو الذى أوصل الزهرى لعبد الملك ففرض له(١) .

٤٥١ — ولزم الزهرى هذا وهو (محمد بن مسلم) العالم المشهور عبد الله أخا عبد الملك ، وابنه هشاما ، وكان يزيد بن عبد الملك استقضاه ، وهو الزهرى شيخ الشيوخ يقول فيه الامام الليث : ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب وقال مالك : كان ابن شهاب «شهاب أحد جدود الزهرى» من أسخى الناس ، وتقياً ماله فى الناس نظير ، وقال أيوب السختيانى : ما رأيت أعلم من الزهرى .

٤٥٢ — وقال ابن قتيبة : سلمان بن ربيعة الباهلى أول قاض قضى لعمر بالعراق ثم تنقل به إلى القادسية والمدائن ، وقتل فى أرض الترك فى الغزو ببلدة اسمها (بنجر) وعظامه عند أهلها فى تابوت إذا احتبس عليهم المطر فاستسقوا به ، سقوا — اهـ .

٤٥٣ — وأبو مجلز «لاحق بن حميد» الذى أشخصه عمر بن عبد العزيز من خراسان ليسأله عنها ، ثقة به وتعديلا له ، كان عاملا على بيت المال وعلى ضرب السكة فى خراسان(٢) .

٤٥٤ — وأبو الزناد عبيد الله بن ذكوان الذى يجعله أحمد بن حنبل — أمير المؤمنين فى الثقة بالحديث — ويقول فيه البخارى : أصح الأسانيد (أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة) ورآه الإمام الليث وخلفه ثلثمائة طالب ، كان والى عمر بن عبد العزيز على خراج العراق ، وابنه عبدالرحمن المحدث ولى خراج المدينة ، ولعبد الرحمن هذا ولد محدث اسمه (محمد كان

---

(١) ص ١٥٥ معارف .

(٢) ص ١٦١ معارف .

بينه وبين أبيه فى الولاة ١٧ سنة ، ولقى رجال أبيه ولم يحدث عنهم حتى مات أبوه قبله بإحدى وعشرين سنة فحدث عنهم ، أى أنه احترم أباه فلم يرد أن يستوى معه فى رتبة التحديث فيأخذان معاً عن واحد ، وهو يأخذ عن أبيه .

٤٥٥ — وكان الحسن البصرى كاتب الربيع بن زياد الحارثى بخراسان (٤٥٦) ومحمد بن سيرين كاتب أنس بن مالك بفارس (٤٥٧) والشعبى كاتب شريح القاضى ومتولى كثير من أمور مصعب بن الزبير ، ثم ولى قضاء الكوفة (٤٥٨) وسعيد بن جبير كاتب أبى بردة على القضاء وبيت المال بالبصرة

٤٥٩ — و « ميمون بن مهران التابعى » الذى يقول فيه أبو المليح : ما رأيت أفضل منه ، وأخذ عن الصحابة وأخذ عنه جمع من كبار المحدثين ، كان والياً لعمر بن عبد العزيز على خراج الجزيرة ، ومن كلام هذا الوالى (من أساء سراً فليتب سراً ومن أساء علانية فليتب علانية) — وابنه (عمرو) راوى حديثه ، كان على الديوان — وكان ميمون هذا بزازاً ، فكان يجلس فى حانوته وهو يتولى الخراج ، أى أنه جمع الوظيفة والتجارة والعلم ، وهو علم مسلسل ، فإن ابنه عمراً عالم ، ولعمرو ابنه عبد الله عالم أيضاً .

٤٦٠ — ونزح الإمام الشافعى إلى اليمن حيث تولى عملا فى إمارته مدة من الزمن لم ينقطع فيها عن العالم .

٤٦١ — وكتب أخونا القاضى الشيخ محمود عرنوس جملة فى مجلة (المعرفة ع ٣ س ٣) عن ترجمة محمد بن سعيد البوصيرى منشىء البردة

والهمزية الشهيرتين ، نقل بها أن البوصيرى كان كاتباً على الخراج ثم تولى مباشرة بلبيس ، وهى وظيفة مالية كان صاحبها يشرف على أرض منطقته يباشر ما صلح منها للزرع فيصرف لصاحبه المال والبذر ، حتى إذا نضج الزرع حصل ما صرف ، وجبى الرسم وأخذ العشر الخ ، وهى عملية كانت تعم بلاد القطر حتى أبطلها الناصر محمد بن قلاوون — قال : وقد سئم البوصيرى العمل مع موظفى المباشرة فاستقال من وظيفته ووضع قصيدة لطيفة فى ذم مستخدميها مطلعها :

نقدت طوائف المستخدمينا   فلم أر فيهمو رجلا أمينا

٤٦٢ — والعلامة المؤرخ تقى الدين المقريزى[1] تولى ولاية الحسبة بالقاهرة ، والمحتسب كان فى تلك الأزمان يقوم بأعمال هامة لخدمة الهيئة الاجتماعية ، وقد بقى هذا المنصب حتى أواخر القرن الماضى ، وأعماله الآن موزعة بين النيابة العمومية ومصلحة المكاييل والموازين والبلديات . الخ

وتقى الدين هذا عالم مؤرخ صاحب تآليف كثيرة ذكر « السخاوى » أسماءها وقال : إنها زادت على مائتى مجلد كبار ، وبلغ عدد شيوخه ستمائة نفس وأكبرها كتاب « مجمع الفرائد ومنبع الفوائد » يشتمل على العقل والنقل المحتوى على فنى الجد والهزل بلغت مجلداته مائة — وهو صاحب كتاب « الخطط المقريزية » الذى يروى منه كل وارد ويصدر عنه بالرى كل صادر ، ويكاد يكون نسيج وحده فى نوعه ، وبه طارت شهرة تقى

---

(١) نسبة لحارة فى بعلبك اسمها (حارة المقارزة) وأصله منها وقد جاء أبوه فى مصر حيث ولى كتابة التوقيع فى ديوان الانشاء ، وولد له بماء تقى الدين المتوفى ٨٤٠ هـ .

الدين ، والعجب أن السخاوى يقول فيه : هو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدى : فأخذها وزادها زوائد غير طائلة(١) .

والأوحدى هو شهاب الدين أحمد عاصر المقريزى ، ومات قبله بثلاثين سنة ، قال السيوطى فى حسن المحاضرة : كان لهجا بالتاريخ ألف كتابا كبيرا فى خطط مصر والقاهرة .

٤٦٣ – والشيخ محمود العينى صاحب الزاوية المشهورة بجوار الأزهر والمؤلف الكبير فى القرن التاسع قال السخاوى : لم يجتمع القضاء والحسبة ونظر الأحباس « الأوقاف » فى آن واحد لأحد قبله فيما أظن – اه . فهذا العالم جمع ثلاث وظائف كبرى ، وكان يجيد التركية – ومن خصيصى الملك المؤيد حتى إنه أرسله فى مهمة سياسية إلى بلاد الروم ، ومن العجب أنه كان والمقريزى قد تداولا حسبة القاهرة مراراً ومما يلفت النظر فى ترجمة العينى قول السخاوى : إنه قرأ على « الحسام الرهاوى » مصنفه (البحار الزاخرة فى المذاهب الأربعة) وإنه اختصره فى مجلدين وسماه « الدرر الزاهرة » مما يدل على عنايتهم إذ ذاك بالاطلاع على المذاهب كلها وإن كان الشيخ حنيفاً وله شرح على متن الكنز فى مجلدين يقرأ بالجامع الأزهر يتوعرض فيه لذكر المذاهب (٢) .

٤٦٤ – وسيجىء أن ابن سعد الزهرى المحدث ولى بيت المال فى بغداد ، إلى أشباه هذه الأخبار مما لم نعمد إلى تقصيه بين عمال الحكومة الإسلامية ولكن أردنا أخذ انشاهد منه على قيام العلماء بهذه الوظائف

---

(١) ص ٢٢ التبر المسبوك .

(٢) ص ٣٠٩ التبر المسبوك .

الادارية مما كان الظن أن يتباعدوا عنها ، ولذلك تركنا وظائف القضاء والإنشاء وما أشبهها مما هو خليق بهم وجدير ألا يتولاه غيرهم .

٤٦٥ ـ أما الأعمال الحرة فهذه أمثال منها ـ مالك بن دينار العالم الزاهد الواعظ المحدث ، كان لا يأكل إلا من كسب يده ، كان وراقاً يكتب المصاحف بالأجرة ـ وروى عنه : قرأت فى التوراة : إن الذى يعمل بيده ، طوبى لمحياه ومماته .

٤٦٦ ـ والمهندس العالم العراقى بعد أن رجع من بعثته النيلية(١) . وظهر بعد وفاة الحاكم ، استوطن قبة على باب الجامع الأزهر واشتغل بالتصنيف والنسخ والإفادة ، وكان له خط قاعد فى غاية الصحة ، فكان ينسخ فى مدة سنة ثلاثة كتب ضمن ما يشتغل به ، وهى اقليدس والمتوسطات والمجسطى ويستكملها فى مدة السنة ، فإذا شرع فى نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصرية ، وصار ذلك كالرسم الذى لا يحتاج فيه إلى مواكسة ، فيجعلها مؤونة سنته(٢) .

٤٦٧ ـ وكان « أويس القرنى » وهو سيد التابعين ، يمرّ بالمزابل فيلتقط الرقاع (٤٦٨) وإبراهيم بن أدهم كان يؤاجر نفسه (٤٦٩) وكان سليمان الخواص يلقط (٤٧٠) وكان حذيفة يضرب اللبن (٣) .

٤٧١ ـ وكان « ابن حنبل » يعمل بيده ، ويسوى تراب أرضه ، وربما أخذ القدوم وخرج إلى دار السكان يعمل ، وكان يأمر أولاده أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرضوا للتجارة ، وأصحابه من المالكين أن يلزموا ضياعهم ٤٧٢ وكان السرى بن يحيى يتجر فى البحر ويسافر فى مراكب التجارة ٤٧٣ وخرج سفيان الثورى إلى اليمن يتجر ورأس ماله سبعون ديناراً ،

---

(١) راجع هامش ص ٢٢٩ .
(٢) أخبار العلماء .
(٣) ص ١١ ـ ٣٤ ، من كتاب الحث على التجارة والصناعة والعمل .

ولما مات خلف مائتي دينار ، فسأل سائل من أين كان له مائتا دينار وهو زاهد العلماء ؟ فقال يوسف بن أسباط : كان يضع الشيء بعد الشيء مع إخوانه فبورك له فيه .

٤٧٤ – وكان أبو يزيد البسطامي بستانياً ٤٧٥ وكان سيرين أبو محمد بزازاً (٤٧٦) ومجمع الزاهد خائطا (٤٧٧) والمسيب أبو سعيد زياناً . ومر بك أن أبا حنيفة كان خزازاً ، وميمون بن مهران كان بزازاً ، والواقدي كان حناطا ، وغلام ثعلب مطرزاً (٤٧٨) وساق في القاموس في مادة « ب ز ر » جملة أسماء من العلماء كانوا بزازين يبيعون البزر قال : والبزار بياع بزر الكتان أي زيته بلغة البغاددة ، وإليه نسب دينار أبو عمرو ، وخلف بن هشام ، والحسن بن الصباح ، وبشر بن ثابت ، وإبراهيم بن مرزوق ، ويحيى بن محمد ، وعبيد بن عبد الواحد ، وأحمد بن عمرو صاحب المسند ، وأحمد بن عوف بن جدير ، وجعفر بن محمد العبدي البزارون .

٤٧٩ – ويطول بي القول وأخرج عن موضوعي لو تتبعت صناعات العلماء وأعمالهم ، وإنما مثلتُ لأبين الفكرة عند العلماء أنهم كانوا يعملون ، ويفضلون العمل ويقدمونه ، ويجعلونه أداة كسبهم ومادة عيشهم من غير أن يتخذوا العلم أو يجعلوه في نفسه متجراً ومادة ربح وشرك مال . وهم في هذا ورثة صاحب الدين صلى الله عليه وسلم الذي ورثهم علمه ، وكان خير العاملين وسيد من دعا إلى العمل وعمل من غير توان ولا كسل . ولأبي بكر أحمد الخلال « محرر المذهب الحنبلي » المتوفى سنة ٣١١ هـ رسالة « في الحث على التجارة والصناعة والعمل » منها يبين الروح الذي تلبس رجال العلم فساقهم إلى العمل ، وانتشر في الأمة حتى نبا بها عن العطل ، ولا غرو أن يسودوا وهم عبيد الرب الذي ينعى عليهم في الآية الشريفة

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » ويقول لهم : وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، إن الله بما تعلمون بصير » ولم يحاسب إلا على العمل ، ولم ينظر إلا إلى العمل ، ويجعل رسوله العمل أول واجب الحياة حتى ليقول صلى الله عليه وسلم : « إن قامت على أحدكم القيامة وفى يده فسيلة فليغرسها » وهذا منتهى ما يصل إليه المجتمع فى تعمير الدنيا .

٤٨٠ — عن هشام بن عروة عن أبيه عن جده قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى الجبل فيجيء بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ويستغنى بثمنها ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه » .

٤٨١ — وعن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فشكا إليه الفاقة ، ثم رجع ، فقال يا رسول الله: لقد جئتك من أهل بيت ما أرانى أرجع إليهم حتى يموت بعضهم ، فقال له : انطلق هل تجد من شيء ؟ فانطلق فجاء بحلس وقدح ، فقال يا رسول الله : هذا الحلس كانوا يفترشون بعضه ويلبسون بعضه ، وهذا القدح كانوا يشربون فيه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من يأخذهما منى بدرهم ؟ » فقال رجل أنا يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم « من يزيد على درهم » ؟ فقال رجل : أنا آخذهما باثنين ، فقال « هما لك » قال فدعا الرجل ، فقال : اشتر فأساً بدرهم وبدرهم طعاماً لأهلك ، قال : ففعل ، ثم رجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال « انطلق إلى هذا الوادى فلا تدع حاجاً ولا شوكا ولا حطباً ولا تأتنى خمسة عشر يوماً » فانطلق فأصاب عشرة دراهم ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : « فانطلق فاشتر بخمسة دراهم

طعاما وبخمسة كسوة لأهلك » فقال : يا رسول الله ، لقد بارك الله فيما أمرتنى ، فقال « هـذا خير من أن تجىء يوم القيامة فى وجهك نكتة المسألة ، إن المسألة ، لا تحل إلا لثلاثة : لذى دم موجع ، أو غرم مفظع ، أو فقر مدقع (١) » .

٤٨٢ — وسئل « الفضيل بن عياض » عن الرجل يقعد ينتظر الرزق فى بيته ثقة بالله ؟ فقال : لم يفعل هذا الأنبياء ولا غيرهم ، وقد كان الأنبياء يؤاجرون أنفسهم وكذلك آجر النبى نفسه وأبو بكر وعمر ، يقول الله : « وابتغوا من فضل الله » فلا بد من طلب المعيشة — وبشر بن الحارث كان لا يرى غير الاكتساب — ومحمد بن مقاتل يقول : ينبغى للرجل أن ينظر رغيفه من أين هو ؟ ودرهمه من أين هو ؟ وسفيان الثورى يقول فى كسب الحلال : إعمل عمل الأبطال .

٤٨٣ — وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أطيب الكسب فقال « عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور » وكان أبو يوسف الغسولى يقول : إنه ليكفينى فى السنة ١٢ درهما لكل شهر درهم ، وما يحملنى على العمل إلا ألسنة هؤلاء القراء ، يقولون : أبو يوسف من أين يأكل ؟ ومن لطف أبى يوسف هذا ودقته فى الفهم قوله : أنا أتفقه فى مطعمى من ستين سنة » فهو فى عمله لطعامه يرى أنه يتفقه ويدبر ولا ينسى الله وذكره .

٤٨٤ — وقد ذكر « الخلال » بعض الأنبياء العظماء فقال : كان داود لا يأكل إلا عمل يده ، وكان يخطب الناس على منبره وإنه ليعمل الخوص بيده ، فيعمل منه القفة أو الشىء ، ثم يبعث به مع من يبيعه ويأكل ثمنه .

---

(١) ص ٣٠ كتاب الخلال

وكان سليمان ابنه ، يعمل الخوص بيده ويأكل خبز الشعير .

والنبى إدريس كان خياطا ، وكان يتصدق بما فضل من كسبه بعد قوته — وكذلك كان لقمان خياطا — وكان زكريا تجاراً .

٤٨٥ — وقد مر أن النبى كان يعمل وآجر نفسه ، وأبو بكر وعمر ، وكان على رضى الله عنه يعمل حتى تدبر يده ، وأصحاب الرسول يعملون ، وكان أبو بكر أتجر قريش حتى دخل فى الإمارة ، وسأل رجل سيدنا علياً عن إزار غليظ عليه ، فقال : اشتريته بخمسة دراهم ، إن أربحنى فيه درهما بعته .

٤٨٦ — ومر « سفيان الثورى » بقوم جلوس فى المسجد الحرام فقال لهم : مايجلسكم ؟ قالوا : فما نصنع ؟ قال : اطلبوا من فضل الله ولا تكونوا عيالا على المسلمين :

٤٨٧ — وقال عمر : « يأيها الناس كتب عليكم أن يأخذ أحدكم ماله فيبتغى فيه من فضل الله عز وجل ، فإن فيه العبادة والتصديق ، وايم الله لأن أموت فى شعبتى رحلى وأنا أبتغى بمالى فى الأرض من فضل الله ، أحب إلى من أن أموت على فراشى ، ولو قلت إنها شهادة لرأيت أنها شهادة » وهذه عظمة عمر ، يرى العمل والموت فى سبيله كأنه شهادة فى سبيل الله .

٤٨٨ — ونفكه القارىء بقصة صياد السمك بل « قاضى القضاة » فقد أخذ حب العمل على قلبه وزهد أن يتناول راتبه من بيت المال ، واستطاع بعظمة نفسه أن يجمع بين خدمة دينه ودنياه ، وأن يعمل لكسبه بيده مع أنه يخدم المجموع بعلمه ويجوز له أن يتناول عليه مايكفيه ولكنها عظيمة حب العمل وفخر العامل ، قال فى السر الصفى :

الشيخ شمس الدين البساطى قاضى قضاة المالكية ، كان مع جلال قدره زاهداً فى الدنيا ، يأكل من صيد السمك ، فكان يخرج فى الغلس بشبكته فيصطاد ما يبيعه بقوت ذلك اليوم وهو فى هيئة الصيادين ، ثم يجئ من خوخة فى بنته فيدخل منزله ويلبس ملابس القضاة ، وهى الشاش والطيلسان والملوطة البيضاء ، ويخرج من الباب إلى الدهليز ، ويجلس بين القضاة للحكم بين الناس ، وكان فى عصر واحد مع شهاب الدين ابن حجر المحدث الكبير (١) .

٤٨٩ — وقد ساق ابن قتيبة فصلا فى صناعات الأشراف ننقله وإن كان فيه غير العلماء ، قال : كان أبو طالب يبيع العطر وربما باع البر وكان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه بزازاً ، وكان عثمان بزازاً ، وكان طلحة بزازاً وكان عبد الرحمن بن عوف بزازاً وكان سعد بن أبى وقاص يبرى النبل ، وكان العوام أبو الزبير خياطاً وكان الزبير جزاراً ، وكين عمرو بن العاص جزاراً ، وكان العاص بن هشام أخو أبى جهل حداداً وكان عامر بن كريز جزاراً ، وكان الوليد بن المغيرة حداداً ، وكان عقبة بن أبى معيط خماراً وكان عثمان بن طلحه الذى دفع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح البيت خياطاً ، وكان قيس بن مخرمة خياطاً ، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت واللادن ، وكان عتبة بن أبى وقاص نجارا وكان أمية بن خلف يبيع البرم ، وكان عبد الله بن جدعان نخاساً ، له جوار يسعين ويبيع أولادهن ، وكان العاص بن وائل أبو عمرو بن العاص يعالج الخيل والإبل ، وكان النضر بن الحارث ابن كلدة يغنى بالعود ، وكان الحكم بن أبى العاص أبو مروان بن الحكم كذلك ، وكذلك كان حريث أبو عمر وقيس الفهرى أبو الضحاك ومعمر جد

---

(١) ص ٢٢ جـ من كتاب السر الصنى فى مناقب الحنفى

عمر بن عبيد الله وسيرين أبو محمد ، وكان يزيد بن المهلب اتخذ بستاناً فى داره بخراسان وهو واليها ، فلما ولى قتيبة بن مسلم جعله لإبله : فقال له مرزبان مرو : هذا كان بستاناً وقد جعلته لإبلك؟ فقال قتيبة : إن أبى كان (اشترنان) يعنى جمالا الخ الخ .

٤٩٠ — وقد سقنا هذا الخليط من أصناف العمل وفيه أسماء بعض الفطاحل الذين بنوا المملكة الإسلامية ، ورفعوها على أعناقهم رفعة لايزال بنيانها مشمخراً إلى يومنا هذا رغم معاول الهـدم والتخريب التى تتناوله ولا تفتأ تنزل به ، لنقول للأمة التى تطاول الدنيا فى زماننا هذا برجالها وتفخر على الناس بخروج عظمائها من بين طبقات العمال والصناع خروج الناهضين المصلحين المجلين وتدلّ بروحها العام أنه شمل طبقاتها ، وعز وقوى حتى ليطلع منها أقوى الرجال وأعظم النفوس . فنحن نقول وننشر صحف تاريخنا وتراجم عظمائنا : إن الأمة الإسلامية الأولى كانت أعزّ نفرا وأعظم قبيلا ، وأقوى روحا ، وأسمى غاية ، وأفضل رجالا ، وأكرم سياسة وأنبل مقصداً ، فكانت خير أمة أخرجت للناس .

ولى كتاب فى « أصول المشهورين » مبين فيه أن قوة العظمة فى أمتنا كامنة فى كل فرد منها كمون النخلة فى النواة لايبعد عليه فى ظرفه أن يظهر وأن يثمر ، وإذ نقول هذا للفاخرين نهيب بأبنائنا الغافلين : أن هذا تراث آبائكم فاحفظوه ، وفخرهم فلا تضيعوه ، وسبيلهم فاسلكوه ، ومقصدهم فأدركوه ، فربكم الذى يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين » ويقول : « فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » فالعمل العمل ، وحىّ على خير العمل ، إن الله لايضيع أجر من أحسن عملا .

٤٩١ – وترانا لم نعرض لأعمال الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا نقلنا من فضائلهم وعظائمهم ، فأولئك قوم هم ملائكة البشر ، كانوا متصلين « بالدينامو » الأعظم ؛ فاستطاعوا بقوة التيار أن يقلبوا الدنيا تلك القلبة ، وأن يبنوا الإسلام هذه البنية ، فحديثهم عجب ، وتاريخهم طرب ، والفرد منهم بأمة ، والأمة منهم بعالَم مجموع ، وحسبك أن ترى فى كل صحابى رجلا فدائيا ، يفادى بنفسه وبماله وبأهله فى سبيل دينه ، وإعلاء كلمته وإصلاح أمته ، لايبغى على ذلك إلا إرضاء الذى فى السماء عرشه وفى الأرض فرشه ، ولا يرى نفسه فى المجموع شيئا ، ويرى العمـــل ، لإسعاده كل شىء ، فهم مثل الكمال الأعلى ، وهم لمن تبعهم قدوة الغاية المثلى ، لذلك استحقوا أن يكونوا خير القرون ثم يليهم مَن بعدهم ، ثم الذين بعدهم إلى قرننا هذا ، لاأدرى مافيه من خير ، إلا أنى أعطر الكتاب بنفحة من تلك النفحات العلى ، وانقل عن ريحانة الأمة وسيد شباب أهل الجنة الحسن بن على سبط النبى ما ذكره فى الخلاصة قال :

وحج الحسن خمس عشرة حجة ماشيا ، وخرج من ماله مرتين ، وقاسم الله عزّ وجلّ ماله ثلاث مرات ، حتى كان ليطى نعلا ويمسك نعلا ويعطى خفا ويمسك خفا(١) .

وهذا كما ترى ، عنوان كتاب ضخم عن « أعمال الصحابة » فيه كل جليل وفيه كل عظيم وفيه سر الله القادر على كل شىء ، وقد صنع بهم ولهم كل شىء ، إنما سقته للترويح عن نفسى إذا أرانى حرجا كلما جاءتنى الأنباء من أمريكا وبريطانيا عن تلك الهبات الهائلة التى يتقدم بها أفراد من تينك الأمتين تكاد تقطع نفوس الأمم ، لعل القارئين أن يسمعوا أو أن يعلموا ، وأن يعرفوا السر فى تقدم الأمم .

---

(١) ص ٦٧ خلاصة .

٤٩٢ — ربما هال بعض القراء ما رويته عن قوة العلم وإمدادها صاحبها بذلك المدد ، أو استعظم ما نقلته من عمل العاملين واستكثره ، فأذكره بسر الإخلاص وقوة العادة وفائدة الاستمرار والمداومة ، وأعود به إلى نفسه عسى أن يروضها على نحو خاص ، فيرى من الرياضة دليل ماسمع ، أو يتحرى فى محيطه وينتبه لما يرده من أنباء الناس ، ففى هذا مقنع يسلمه إلى حقيقة العلم وصفاء نوره ومقدار قوته ، وإلى حقيقة العمل ونتيجة الاستمرار عليه وكثرة ماينتج به ، وإلى تصديق حكم العادة إذا وجه نفسه بها وجهة الخير التى روينا عن رجالها ، حتى فى هذا الزمن من انقطع إلى شىء من الأشياء ، فإنه يراه قد استكنهه وأحاط به وقدر عليه ، وفى ذلك يقول السيد المسيح لرجاله وقد سألوه عن سر مايأتى به من الخوارق : اعملوا عملى ثم قولوا لهذا الجبل انطرح فى البحر ينطرح ، ولما نفس صيام (محافظ يورك) فى إيرلندا وقد بقيت التلغرافات تواتينا به سبعين يوماً من بضع عشرة سنة — وقوة الحافظة والذاكرة والمفكرة لا تزال بسلامتها فى أرباب السلامة ، وهم الذين يحملون اليوم لواء العلم والعمل ، فلا ينغض القارىء برأسه لهذا الباب : باب العلم والعمل ، وإنما يشمر لولوجه والاستباق فى رحابه ، والله يختص برحمته من يشاء .

٤٩٣ — وهذا سر من الأسرار تجلى للمصطفى صلى الله عليه وسلم ولزمه ودعا إليه ، ففى البخارى من كتاب « الرقاق » أن عائشة رضى الله عنها ، سئلت : أى العمل كان أحب إلى النبى صلى الله عليه

وسلم ؟ قالت : الدائم . وقالت : كان أحب العمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يدوم عليه صاحبه ، وسئل هو صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال أدومها وإن قل ! نعم فالقليل مع الديمة كثير ، ومن يراجع منا أعماله المتكررة بعد حين فإنه يجدها من الكثرة بحيث يعجب ، وهؤلاء كتاب الصحف اليومية ننظر إلى مجموعات صحفهم فيأخذنا هولها كما يأخذنا إذا نظرنا إلى ضخامة التآليف اللاتى ألفها العلماء وكثرة مجلداتها فنقول عاجبين : متى ألفوها وجمعوها ؟ ولكن قوة الاستمرار تدفع هذا العجب ، وتأتى هى ، وقد جمعت تفاريقها ، بالعجب ، كما أن هذه القوة نفسها فى سعتها وتوسيع حوزها تخرق الحجب ، وتظهر صاحبها كأنه خارق للعادة التى يجرى عليها وفيها المستهترون الآكلون المتمتعون .

٤٩٤ — فى ملعب « السرك » ترى الرجل يصارع السبع ، والفتاة تمشى على الحبل ، والفتى يحمل من الأثقال ما لا يحمله الثور ، والخيل والكلاب والقطط والسمك والطير تلعب ألعاباً منظمة مرتبة ، مما علموها ومرنوها ، كأنها ذوات إدراك ونطق ، وتقوم الجوقة فيه بحركات لو سمعت بها لظننتها كذبا ، هل تصدق أن ولداً يقف على سلك مشدود فى جو السماء يصعد على كتفيه رجلان فى يد كل منهما إنسان وهو يجرى بهذا الجمع خببا على متن السلك ، كأنه جواد رامح على طريق واضح ؟

وترى الحاوى فى مشهد من النظارة وقف يعرض أعاجيبه ، يطلع كتكوتا من جيبك ، ويستخرج قرشاً من أنفك ، ويتلقى من الهواء

الصافى منديلا كأن الشمس نسجته له ساعة مد يده ، وينثر الورق الممزق فتلقاه كاغداً منشوراً لزم كل طائر منه عنق كل ناظر ، والخاتم تقبض عليه فى يدك ثم تفتحها فلا يكون فيها ، وأمامه عمود من علب داخل بعضها فى فهو يفتحها علبة علبة إلى أن يصل إلى أصغرها فإذا بخاتمك فى داخلها : إلى أمثال هـــذا العجب المدهش ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، بلى إنه سحر المرانة وبصر التجربة وسر الإتقان والسلامة الخارجة من دوام العمل وكثرة الاستعمال ، ومن هذا التفرع والتخصص لهذا العمل كان ما تراه فى الملعب وما تنظره فى المشهد من الراكض والحاوى ، واللطف فى كليهما ، ألا ترى خطأ ولا تخيب تجربة ، كأن الحذق غطى كل خبيئة فى هذا وذاك ، إذن فاعلم أن العالم إن هو إلا متفرغ متخصص ذو مرانة وتجربة ودوام واستمرار جعلته هو علمه أو عمله للذى تفرغ له واستقر فيه حتى شربه أو تشربه ، فالعالم الذى قويت حافظته حتى حوت مثل مارونيا ؛ أو اتسعت مفكرته حتى أخرجت المجهول من المعلوم وكشفت عن الدقيق غير المفهوم ؛ والعامل الذى صلى وصام وحج وقام وغزا وهام ، وصاحب الخلق الباذل الشجاع المؤثر الباخع نفسه لترى آثار خلقه طالعة من مصادرها لا مقطوعة ولا ممنوعة ، إعلم أن هذا وهذا مثلهم مثل من تراه فى الملعب أو المشهد عكف على شيئه حتى أجاده ، وتفرغ لفنه حتى أبدعه ، ثم جاءك العجب من بدعه وإجادته ، كلا الرجلين متخصص ، ولكن العالم بدلا من أن تراه فى الملعب على سلك من كتان ، تنظره فى المعمل على سلك من عرفان ، وبدلا من أن يسلك درب الحاوى فى خفة اليد فيطلع الكتكوت من الجيب ، قد خف بها حتى أطلقت نور الكهرباء من تقطير الفحم ، ونصب وسط المصباح شبكة من أسلاك

دقيقة يلعب النور فوقها فتراه حقيقة نافعة تخدم العالم النائم ، وكذلك سنة الخليقة فى انتفاع الوسنان من الصاحى ، وفى خدمة العالم للعالم .

واليوم فى عصرنا هذا لا تزال الدنيا بخير ، فشيعة العلم لا تزال قائمة ، والعلم لا زال نوراً ، ولكن النور يطلع اليوم من الغرب ، وكان فيما مضى يطلع من الشرق ، وهالته من العلماء تبع له يخفون به حيث كان ، ويظهرون معه أين ظهر ، وهذه دورة من دورات الزمن ، « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . — فالدولة فى عصرنا هذا لناحية من نواحى هذا الكوكب الأرضى ، والله وحده وقد خلقه من غير أن يشهدنا خلقه ، هو الذى يعلم عدد نواحيه التى فج هذا النور فيها من بدء خلقه ، وعدد النواحى الباقية منه اللاتى قدر لها أن يفج فيها ، ومقدار ما يدوم بها ووقت ينتقل منها « وكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » .

فيأيها القارىء نحن الطاعمين الكاسين الآكلين الشاربين ، عالة على العلماء العاملين ، نأكل من فتاتهم ، ونعيش بفضلهم ، ونحن وفى أعناقنا طوق منهم ، هم الذين أضاءوا الليل ومهدوا النهار ، وهم الذين اكتنفونا فى المكتب وفى الدار ، وهم المعنون وحدهم بنا يبحثون ويجدون وينقبون ويضحون فيما ينفعنا ويهنينا ، أيقاظ ونحن رقود ، حركة ونحن خمود ، هم الأحياء وأصحاب هذه الحياة ونحن فى الحق ضيوفهم الثقلاء لولا كرمهم وطيب نفوسهم تراهم ، ومن فرط صفائهم لا تعرفهم فترى المرء منهم فرداً وهو أمة ، وتعامله على قدم المساواة وهو سماء ومن دونه أرض ، ولكنه العلم، العلم من طبعه يورث الحلم، ويملأ نفس صاحبه بقيمة العلم ، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ، فالعالم كلما اتسع أفقه عرف صغره بالنسبة للأفق

الأعلى ، وفى قصة الخضر وموسى ، أنهما لما ركبا البحر وقع عصفور على سكان السفينة فنقر من البحر نقرة ثم طار ، فقال الخضر لموسى ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من البحر ، فهذا الكون الذى يقف كل عقل دون تصوره ، وينقطع الخيال ولا يتكهنه يعرف العلماء عظمته فهم لها مقدرون ، ولعظمة صاحبه ساجدون ، وبعجزهم أمام قدرته مؤمنون ، وهكذا تقوم الساعة ويبقى الكون مجالا لاستباق العقول ولاستخراج ما فيه من محصول ثم لا يكون هذا المجال مهما عرض وطال إلا كالحلقة فى البرية لا تحس بينهما تناسباً بالكلية ، والله واسع محيط وما يعلم جنود ربك إلا هو ، سبحانه العالم بما كان وما يكون .

إذاً فأطفال العلوم معذورون إن قاسوا بعقولهم الصغيرة ، أو وزنوا بمعارفهم الحقيرة ، حتى إذا كبروا عرفوا ، وهم إن عرفوا جهلوا ، وهكذا المعرفة الصحيحة بابها الجهل ، أى جهل ماعدا علمه ، وإقراره بجهله لغير ما يعلمه فهو إذاً بجد لمعرفته ، وفى هذا الجد سعادته وسعادة المجموع .

٤٩٥ — لما توفى أبى أقامنى الناس مقامه ، وعلماء الطبيعة يقولون : إن الوظيفة تُكَوِّن العضو ، فكذلك كونى مقامى ذاك ، فانطلقت أطلب العلم الذى طلبه أبى مجداً يقظاً مستفيداً ، وكنت أسمع بعلم المنطق وأرى تشادق المتمرسين به ، فحضرت دروسه فيما حضرت ، وتلقيت كتاب « إيساغوجى » فيه ، فراعنى منه تقاسيمه ، وأخذ سمعى بطنين أبوابه ورنين فصوله ، فما أن حصلته حتى انتفخت غروراً به ، وكلما قعدت فى ملأ هجس فى خاطرى طاوس الغرور يشحم فؤادى فأتساءل فى نفسى ، ترى هؤلاء الجمع أيعرف أحد منهم علم المنطق ؟ ولبثى المنطق فى ملازمته ردحا من الزمن

لم يطل ، فقد كنتُ بعد ثلاث سنين فى مدرسة القضاء الشرعى أناظر فاضلا منطقياً فى علم المنطق ، وأتولى فى المناظرة طرف المنع ، أقرر أن علم المنطق لافائدة منه ولا حاجة إلى تعلمه ، وأن الاشتغال به مثله كنقل التمر إلى هجر إذ كل إنسان بطبيعته هو منطقى ، والفطرة الإلهية قائمة فى النفس تؤدى هذا العمل الذى صنع المناطقة فيه صناعة يريدون أن يثقلوا بها كاهل العلم ، وهو خليق أن يتفرغ للبحث عما يكمل البشرية ، ويتعلم الطلبة به ما ينفعها ويسد نقصها ويملأ فراغها ، ومن عجب أن أرى العلامة السيوطى على هذه الفكرة وقد ألف رسالة سماها « صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام » ثم رأيت بعد حقبة أن « ابن القيم » ينهج هذا المنهج فى كتابه : « مفتاح دار السعادة » ويحمل على هذين العلمين أو الصناعتين حملة موفقة منتظرة من أرباب النظر ، وهكذا ترانى كلما ازددت فى علمى قيراطاً ، زاد إدراكى قنطاراً ينقص ما عندى بالنسبة للمحصلين ، ويخس قيمته إزاء جواهر المقتنين ، واتسع أفق النظر حتى ما أرى تلك الحجب والحدود التى غطت على فى سابق زمنى ، وارتفعت أمامى فيما مضى من عمرى ، ولذلك ترانى إذا خاطبنى غيرى ، سهل على خطابه واتسعت أذنى لكلامه ، وعذره عندى موقفى مثله فيماسبق . وإدراكه فيما سيأتى ما أدركت ، وهى الحقيقة التى نطق بها سيد الخلق بقول الحق « لكم دينكم ولى دين »

٤٩٦ ــ وفى مثل هذا المعنى يقول الشعبى : العلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله ، ومن نال الشبر الثانى صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله ، وأما الشبر الثالث فهيهات لاينال أحد أبدا . وحكى الماوردى أنه ألف كتاباً فى البيع أعجب به وتصور أنه اضطلع بعلمه ، فجاءه أعرابيان يسألانه فلم يجد لهما جواباً وأجابهما تلبيساً من

حلقته فكان هذا واعظه علمه ألا يزهى (١) .

٤٩٧ — ولما كان الاخلاص رائد من كتبنا فيهم من العلماء ، والقصد السليم غاية ذوى الأخلاق منهم ، والعلم من طبعه سليم لا يعرف النقص ، صاف لا يخالطه كدر ، فعلماء الحق لهـذا مخلصون بطبعهم ، لا يعرفون إلا الإخلاص ولا يبالون بغيره بالة ، فتلك التقاليد والفراريج والأوسمة والأربطة والشارات والاعتبارات والدرجات كلها حواشٍ لا طائل تحتها ، وتظاهر قد يجر التظاهر ويخفى الكبائر ، ويدخل بصاحبها باب التفاخر ، ويقعد به ، ويقيده ويحبسه فى حـدود وعادات ، ويربطه بسيور ويلفه فى أقماط خاص منها كلها علماء الإخلاص ، فلذلك تراهم فى بحبوحة الحق الذى خلقهم وعلمهم ، وأمر نبيه أن يقول لهم « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . الآية » فهم يستبيحون طيبين الاستمتاع بنعم الله ، حالين بالزينة التى أخرج الله ، مستغنين بطبعهم عن التطبع ، وبجوهرهم عن التصنع .

٤٩٨ — كان عبد الملك المشهور بابن جريج المحدث الذى قال فيه أحمد: إذا قال أخبرنا ، وسمعت حسبك به ، كان يصوم الدهر إلا ثلاثة أيام ، وقال الشافعى : استمتع ابن جريج بتسعين امرأة الخ (٢) .

٤٩٩ — وبكر بن عبد الله المزني التابعى أحد الأعلام الذين أخذوا العلم عن الصحابة وأخذه عنهم الخلق الكثير ، وكان ثقة ثبتاً مأموناً ، قال ابن قتيبة : كان بكر حسن اللباس جداً ، كانت قيمة كسوته أربعة آلاف درهم ، وكان نُطَسَة (نزكا) اشترى طيلساناً بأربعمائة درهم فأراد الخياط

---

(١) ص ٥٧ أدب الدنيا والدين .

(٢) ص ١٦٢ ج ١ تذكرة الحفاظ .

أن يقطعه وذهب يذر تراباً على موضع القطع فكفه بكر ، وأمر بكافور فسحق ثم ذر عليه(١) .

٥٠٠ — ومحمد بن بشير قاضى قضاة الأندلس فى القرن الثانى ، وبعدله تضرب الأمثال ، قاهر نفسه فى شهواتها ، والحالف على أنه لا يسر للولاية ولا يستوحش من العزل ، كان يرى على باب المسجد يوم الجمعة داخلا وعليه رداء معصفر وفى رجله نعل صرارة ، وله جمة مفرقة ، ثم يقوم فيخطب ويصلى وهو فى هذا الزى . وكان يجلس للقضاء بين الناس فإن رام أحد من دينه شيئاً وجده أبعد من الثريا . جاءه رجل لا يعرفه فلما رأى ما هو فيه من زى الحداثة من الجمة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء فى يديه توقف وقال : دلونى على القاضى ، فقيل له هاهو ذا ، وأشير إليه فقال : إنى رجل غريب وأراكم تستهزئون بى ، أنا أسألكم عن القاضى وأنتم تدلونى على زامر ، فصححوا له أنه القاضى ، فتقدم إليه واعتذر ، فأدناه وتحدث معه ، فوجد عنده من العدل والإنصاف فوق ما ظنه فكان يحدث بقصته ، هذا القاضى الذى حسبه الغريب زامراً ، تقدم له الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وهو صاحب الأندلس وهو موليه ، تقدم له بشهادة لعمه بعد إلحاح من عمه فيها ، وقد أحضر الحكم فقيهين وكتبها أمامهما ، وأشهدهما عليها ، فأخذها العم فردها القاضى ، واستشاط العم غضباً ، ورجع إلى الحكم ينعى عليه سلطانه ويحرضه على الايقاع به ، فقال له الحكم : وهل شككتُ أنا يا عم فى هذا ؟ إن القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فعل ما يجب عليه ، وسد دونه باباً كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحسن الله تعالى

(١) ص ١٥٨ المعارف .

جزاءه ، فغضب العم ، قال الحكم : إنى قضيتُ الذى يجب لك على (وهو الشهادة) ولست أعارض القاضى فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله ، وقد تبرع عاتب بسؤال القاضى فى هذا ، فقال لمن عاتبه : يا عاجز أما تعلم أنه لا بد من الإعذار فى الشهادات (ليلاحظ عليها المشهود عليه ويطعن فى الشاهد إن كان له طعن أو دفع) فمن كان يجترىء على الدفع فى شهادة الأمير لو قبلتها ؟ ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه . وفى قصة أخرى أنه حكم على (ابن فطيس) الوزير ولم يعرفه بالشهود فرفع الوزير ذلك إلى الحكم متظلماً ، فأومأ الحكم إليه ، فكتب القاضى له : ليس ابن فطيس ممن يعرف بمن شهد عليه ، لأنه إن لم يجد سبيلا إلى تجريحهم ، لم يتحرج عن طلب أذاهم فى أنفسهم وأموالهم ، فيدعون الشهادة هم ومن ائتسى بهم ، وتضيع أموال الناس ، إلى أمثال هذه القصص مما كان الحكم يراهن عليه خواصه أن قاضى الأندلس لا تأخذه فى الحق لائمة ويصدق الحكم ولا تكون ثياب القاضى بناظرة شيئاً إلى عدله ، ولا للظاهر المزيف تأثير فى دينه وصحة نظره .

٥٠١ — ولقد عوتب ابن بشير هذا فى إرسال لمته وفى لبسه الخز والمعصفر فقال : حدثنى مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر وكان سيد القراء كانت لمة ، وأن هشام بن عروة فقيه المدينة كان يلبس المعصفر ، وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخز .

٥٠٢ — وكان الإمام مالك يلبس الثياب العدنية الجياد ؛ ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثلة ، ولا يغير شيبه .

٥٠٣ — وأيوب السختيانى الناسك الذى يضرب المثل بنسكه ، كان يحلق

شعره فى كل سنة مرة ، فإذا طال فرقه ، قال حماد بن زيد : وكان قميص أيوب يشم الأرض ، هروى جيد ، وله شعر وارد ، وشارب واف ، وطيلسان كردى جيد ، وقلنسوة متروكة ، لواستسقاكم على النسك شربة من ماء ما سقيتموه اه ، وهو أيوب الذى كان يستسقى به الغمام .

٥٠٤ – وداود الطائى العالم العارف الذى تعبد وجلس فى بيته عشرين سنة ، وترك الكلام حتى قيل له : « الأصم » يقول الفضل بن دكين : كنت إذا ريت داود ، رأيت رجلا لا يشبه القراء ، عليه قلنسوة سوداء طويلة مما يلبس التجار .

٥٠٥ – إلى أمثال كثيرة ترى الثياب فيهـا غير منظور لها نظر المقصرين اليوم ، فقد تكون كما رأيت ذات قيمة وبهاء ، وقد تكون أخلاقا يدخل بها النضر بن شميل على المأمون فى مرو ، وعذره حرمرو (نبذة ٣٥١) فالثرب هو الثوب ، قال ابن قتيبة : كان عبد الله العنبرى خيرًا فاضلا . رآه عثمان فى دهليزه فرأى شيخاً ثطاً (قليل شعر اللحية) أشعى (منتفش الشعر) فى عباءة ، فأنكر مكانه ولم يعرفه ، فقال يا أعرابى أين ربك ؟ فقال بالمرصاد . ومن جواب العنبرى ، بأن فضل اللابس على الملابس .

٥٠٦ – وفى ترجمة الإمام الغزالى لما تجرد عن الدنيا وراض نفسه على الحقائق ، ورفض وراء ظهره كل مظهر ، أنه دخل دمشق فى ذى العامة وجلس على باب « الخانقاة السميساطيه » إلى أن أذن له فقير مجهول فابتدأ يكنس ميضأة الخانقاه ويخدمها ، فاتفق أن جلس يوماً فى صحن الجامع الأموى وجماعة من المفتين يتمشون فيه ، وإذا بقروى جاء

يستفتيهم ، فلم يردوا عليه جواباً ، والغزالى يتأمل ، فلما رأى ألا جواب له عند أحدهم وعز عليه أن يضيع ، دعاه وأفتاه ، فأخذ القروى يستهزىء به ويقول : إذا كان المفتون ما أجابونى ، فكيف يجيب فقير عامى ؟ كل ذلك والمفتون يرون ويسمعون ، فلما فرغ الغزالى من كلامه مع القروى ، دعوا القروى وسألوه عما حدثه به العامى ، فشرحه لهم فسعوا إليه ، وتعرفوا به ، وسألوه أن يعقد لهم مجلساً فوعدهم يوماً وسافر من ليلته هرباً . ثم غادر دمشق كلها فى جولانه بالأرض إذ دخل إحدى المدارس فيها فسمع المدرس يقول : قال الغزالى . ويدرس من كلامه ، فخشى الأستاذ أن يعود لنفسه العجب ، وتابع الجولان . فهذا الغزالى فى زى العامى الفقير هو الغزالى العالم الذى تشد إليه الرحال ، لم يحجب زيه علمه ، ولا منع المفتين الرافلين أن يسألوه فيضاً من بحره ، ولم ينسخ تجرده من المظاهر علمه وقد حوته الدفاتر ، فهو إذ يسمع بأذنيه العلماء يقولون قال الغزالى ، يخاف على نفسه وقد تسامت إلى شرف الإخلاص ، أن يدخل عليها هامس مما يدب فى زواياها فيعقد لها شراكا يكاد لا يسلم منه ابن آدم ، فطوبى للمخلصين(١) .

٥٠٧ — وهنا رواية تريك ما يفعل الإخلاص بصاحبه ، يصفى جوهر نفسه ، ويسمر أهداب عينه فى قرارة جلجانه ، روى رجاء بن حيوة : العالم الضخم الوجيه ، النافذ الكلمة عند بنى أمية لصلاحه وتقواه وفضله ونبله ، وكان يجالس الخليفة عمر بن عبد العزيز ، روى أنه بات ليلة عنده فهم السراج أن يخمد فقام إليه ليصلحه ، فأقسم عليه عمر ليقعدن ، وقام هو فأصلحه قال : فقلت له : تقوم أنت يا أمير المؤمنين ؟ فقال قمت

---

(١) ص ١٠٥ ج ٤ طبقات الشافعية

وأنا عمر ورجعت وأنا عمر . قال وأمرنى عمر بن عبد العزيز أن اشترى له ثوباً بستة دراهم ، فأتيته به ، فجسه وقال : هو على ما أحب ، لولا أن فيه لينا ، قال فبكيت ، قال فما يبكيك ؟ قال أتيتك وأنت أمير بثوب بستمائة درهم فجسسته وقلت : هو على ما أحب لولا أن فيه خشونة، وأتيتك وأنت أمير المؤمنين بثوب بستة دراهم فجسسته وقلت : هو على ما أحب لولا أن فيه لينا ! فقال يارجاء : إن لى نفسا تواقة ، تاقت إلى فاطمة ابنة عبد الملك فتزوجتها ، وتاقت إلى الإمارة فوليتها ، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها ، وقد تاقت إلى الجنة فأرجو أن أدركها إن شاء الله عز وجل ، وقال رجاء : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب ، باثنى عشر درهما ، وكانت قباء وعمامة وقميصا وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة .

٥٠٨ — كذلك رأينا منهم من يمتع بالسماع ويشوف أذنه للصوت وقلبه عالق مشدود بملاوى الإيمان ، قدم عكرمة مولى ابن عباس وهو من هو (نبذة ٢٥٦) إلى البصرة فاجتمع إليه علماء الحديث فبينما هو يحدثهم سمع صوت غناء فقال : اسكتوا فنسمع ، ثم قال : قاتله الله لقد أجاد أو ما أجود ما غنى ، فهذا عكرمة يقطع الحديث ويتسمع ويستسمع أصحابه وهنا ظاهرة صريحة : لم ينكر أحد على عكرمة وفى اليوم الثانى عاد بعضهم إليه وتخلف بعض تبعاً لانتهاج كل وجهته ، وكان ممن عاد أيوب السختيانى ويقول يزيد بن هارون راوى الخبر : قد أحسن أيوب ، ولتعلم قيمة هذا الاستحسان نريك قيمة يزيد بن هارون هذا المستحسن ، فهو أحد الأعلام المشهورين من تابعى التابعين أخذ عنه علماء الحديث ومنهم الإمام أحمد بن حنبل وفيه يقول : كان حافظا متقنا ، وقال أبو حاتم إمام لايسأل عن

مثله ، وقال يحيى بن أبى طالب : اجتمع فى مجلسه سبعون ألف رجل ، وأظن فى هذا التعريف كفاية(١) .

٥٠٩ — وأبو مروان التيمى ابن الماجشون العالم ابن العالم الذى كان يذاكر الشافعى فلا يعرف الناس كثيرا مما يقولان لتعالیهما بالفصاحة عليهم : الشافعى تأدب بهذيل فى البادية ، وابن الماجشون تأدب فى خؤولته من كلب بالبادية أيضا ، والفصيح الذى يضرب به المثل حتى سئل أحمد بن المعدل الناثر الفحل فقيل له أين لسانك من لسان أستاذك عبد الملك بن الماجشون ؟ فقال كان لسان عبد الملك إذا تعايا ، أحيى من لسانى اذا تحايا ، المحدث العالم الذى دارت عليه الفتيا فى زمنه ، كان مولعا بالغناء ، ويقول ابن حنبل إنه قدم عليهم بغداد ومعه من يغنيه(٢) .

٥١٠ — والكمال بن الهمام شيخ الحنفية وقد بلغ مرتبة الاجتهاد ، يقول السيوطى عنه : إنه كان علامة فى الموسيقى(٣) .

٥١١ — وننقل هنا طرفة أتحفنا بها صاحب تاريخ بغـداد عن عالم محدث فحل من شيوخ المدينة نزل بغداد فى القرن الثانى فلاقاه علماؤها بما يليق بمثله جلالة وغزارة علم حتى يروى البخارى عنه أن عنده سبعة عشر ألف حديث فى الأحكام سوى المعازى ، وتولى فيها بيت المال وكان أبوه من قبله على قضاء المدينة وكلاهما ممن يسأل عنه فى الحديث ، ذاك هو إبراهيم بن سعد بن إبراهيم الزهرى . قال الحافظ أبو بكر الخطيب : قدم إبراهيم بن سعد الزهرى العراق سنة أربع وثمانين ومائة ، فأكرمه

---

(١) ص ١٥٧ معارف
(٢) ٣٦٠ ك
(٣) ١٨١ الفوائد البهية

الرشيد وأظهر بره ، وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منه أحاديث شيخ الزهرى فسمعه يتغنى ، فقال : لقد كنت حريصا على أن أسمع منك ، فأما الآن فلا سمعت منك حديثا أبدا، فقال إذاً لا أفقد إلا شخصاك ، على وعلى إن حدثت ببغداد ، ما أقمت حديثا حتى أغنى قبله ، وشاعت هذه عنه ببغداد ، فبلغت الرشيد فدعا به ، فسأله عن حديث المخزومية التى قطعها النبى صلى الله عليه وسلم فى سرقة الحلى فدعا بعود ، فقال الرشيد : أعود المجمر ؟ قال ، لا ، ولكن عود الطرب ، فتبسم ففهمها إبراهيم بن سعد ، فقال : لعله بلغك يا أمير المؤمنين حديث السفيه الذى آذانى بالأمس وألجأنى إلى أن حلفت ؟ قال ، نعم . ودعا له الرشيد بعود ، فغناه :

يا أم طلحة إن البين قد أفدا   قل الثواء لئن كان الرحيل غدا

فقال الرشيد : من كان من فقهائكم يكره السماع ؟ قال من ربطه الله قال : فهل بلغك عن مالك بن أنس فى هذا شىء ؟ قال ، لا ، والله إلا أن أبى أخبرنى أنهم اجتمعوا فى مدعاة كانت فى بنى يربوع ، وهم يومئذ جلة ومالك أقلهم من فقهه وقدره ، ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون ، ومع مالك دف مربع وهو يغنيهم :

سليمى أجمعت بينا   فأين لقاؤها أينا
وقد قالت لأتراب   لها زهر ، تلاقينا
تعالين فقد طاب   لنا العيش تعالنا

فضحك الرشيد ووصله بمال عظيم(١) .

٥١٢ — وهناك ملح فى منتهى الطرافة رواها مؤرخو العلماء عن

(١) « ص ٨٤ ج ٦ تاريخ بغداد »

جمع منهم كان يمزح ويحب المزاح ، منهم أبو العالية (نبذة ٢٥٩) والشعبى (نبذة ٣٣٢) والأعمش (نبذة ١٢٣) والنخعى (نبذة ٣٩٢) وشريح القاضى الأشهر ، انساقوا فيه إلى طبائعهم الطيبة انسياق الأدب مع الترويح مما تجرى به البشرية فى مجارى الطيب الحلال ، ويدفع عنهم السأم والكلال ، كما روينا عن شيخنا سيد بن على المرصفى فى الدرس قصيدة مطلعها هذا البيت :

لابد للجد من هزل تجد به   تلك النفوس التى طبعها الملل

٥١٣ — كذلك معاملاتهم اطردت مع اليسر والسهولة حيث يكون الحال ، فهذا شقيق بن سلمة الأسدى من سادة التابعين ، تعلم القراءات فى سنتين ، وقال عاصم بن بهدلة : ما سمعته يسب إنساناً ، وقال يحيى بن معين : ثقة لا يسأل عن مثله ، صاحب الحصن يكون فيه هو وفرسه ، فإذا جاء الغزو نقضه وهب لغزوه ، وإذا رجع أعاده . هذا الكامل المكمل كانت أمه نصرانية .

٥١٤ — والحسن البصرى يكون فى المسجد يجيئه الناس للفتوى فيسبقه الفرزدق الشاعر بجوابه فى المسألة من شعره والحسن يستمعه ولا يجبهه ، قال أبو بكر الهذلى : إنا الجلوس عند الحسن إذ جاء الفرزدق يتخطى حتى جلس إلى جانبه ، فجاء رجل فقال يا أبا سعيد : يقول الرجل لا والله ونعم والله فى كلامه لا يريد اليمين ، فقال الفرزدق : أو ما سمعت ما قلت فى ذلك ؟ قال الحسن : ما كل ما قلت سمعوا ، فما قلت ؟ قال قلت :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله   إذا لم تعمد عاقدات العزائم

ثم لم ينشب أن جاء رجل آخر ، فقال يا أبا سعيد : تكون فى هذه

المغازى فنصيب المرأة لها زوج ، أفيحل غشيانها ولم يطلقها زوجها ؟ فقال الفرزدق : أوما سمعت ماقلت فى ذلك ؟ قال الحسن : ما كل ما قلت سمعوا فما قلت ؟ قال قلت :

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبنى بها لم تطلق(١)

٥١٥ — وبُسر بن سعيد العالم الزاهد المتحنث ، رافق الفرزدق فى الحج ، وركبا فى محمل واحد ركبة تحدث بها الناس عجباً ، وطار بها الفرزدق فرحا ، وكان سعيد يقول : ما رأيت رفيقاً خيراً من الفرزدق ، ويقول الفرزدق مثل ذلك(٢) .

٥١٦ — إلى أمثال هذه الشواهد مما يطول شرحه ويعيى ذكره درج العلماء فيها على سجيتهم ،ولم يروها قادحا فى إخلاصهم ، فلم يحفلوا بماعداه ولم يجعلوا له تلك القيمة التى يعلقها أرباب الظاهر على المظاهر ، ويتمسك بها عباد الظهور ، وقد جعلوا زادهم فيه فيتل القشور وإن ضاع اللب وغاب اللباب ، فهمهم فى العين لا القلب ترمش هى ولا يبالون أن يطمس هو ، وإن كان عليه الحساب وبه المرجع والمآب .

٥١٧ — ولا أنتقل من هنا حتى أنقل للقارىء كتابين حول هذا المعنى ، تداولهما فحلان من شيوخ العلماء ، ويدور نظرهما حول الحلال والاستمتاع به ، أحدهما يرى أن يؤدب نفسه بخشونته ، والثانى يرى فى قرنه باستغفار ربه ما يجبر نعومته ، وكلا النظرين ينصب حول الإخلاص ويرومه ويريده ، وهو غاية النظرين وقبلة الرجلين — كتب يحيى بن يزيد النوفلى إلى الإمام مالك رضى الله عنهما يقول :

---

(١) « ص ١٤ ج ١٩ أغانى »

(٢) « ص ١٥٥ معارف »

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخرين

من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس « أما بعد » فقد بلغنى أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطىء ، وتجعل على بابك حاجباً ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت إليك المطى وارتحل الناس ، واتخذوك إماماً ورضوا بقولك ، فاتق الله يا مالك وعليك بالتواضع . كتبت إليك بالنصيحة منى كتاباً ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام — فكتب إليه مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد ، سلام الله عليك « أما بعد » فقد وصل إلى كتابك فوقع منى موقع النصيحة والشفقة والأدب ، أمتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيراً ، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق ، وأحتجب وأجلس على الوطىء ، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى ، فقد قال الله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام .

وقد علق الإمام الغزالى فى « الأحياء » على كتاب مالك بقوله : (فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، وأفتى بأنه مباح ، وقد صدق فيهما جميعا) ثم علل اعتراف مالك بالنصيحة بأنه مما يقوى نفسه على الوقوف على حدود المباح ، حتى لا يحمله ما هو فيه على المراءاة والمداهنة والتجاوز إلى المكروه لأنه متمكن فى نفسه من

الإنصاف ، ويخشى على غيره ممن لا يقدر على ضبط نفسه أن يحمله التنعم بالمباح على الوقوع فى الخطر ، إذا كان ممن لا يخاف ولا يخشى ، قال : لأن خاصية علمــاء الله الخشية ، وخاصية الخشية التباعد من مظان الخطر (١) .

وإنى أعلق على هذا بلفت القارىء إلى هذا الأدب العالى بين أسلافنا العلماء، فهم فى آرائهم أحرار يتبادلونها ، وقد التزم كل منهم حده وأخلص لله ولأخيه نيته ، فالناصح يسر بنصيحته ، ويطمئن من كتب إليه على حفظه، والمنصوح يتقبل النصيحة بقبول حسن ، ويدلى بحجته فى عمله مع الإنصاف للكاتب ، والغزالى بينهما ، ونزعته صوفية تميل إلى الاخشوشان والانقباض عن بحبوحة الحلال ، مع هذا يقيم ميزان النصفة بين الرأيين ويوجه فى أدب جم نص الوجهتين ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

المظاهر

٥١٨ ــ فالمطلب أمام هؤلاء الثلاثة الأعلام ، وهم علماء الظاهر والباطن ، هو الخشية الداعية إلى الإخلاص ، والحاملة على قصد السبيل ، ونصفة الاعتدال ، واعتياد اللباب دون القشور ، وألا يغفل عن ذكر الله أيان يكون من منازل الحلال ومتع المباح ، وهذا هو الغرض الأول والآخر من العلم والتعلم . وللوصول إلى هذا القصد حمل السلف طلبته على إدراكه، ورأوا من وسائل ذلك تركهم الخيرة لهم فى انتهاج السبل ، وهمهم منهم كان الغاية لا الوسيلة ، وأدبهم معهم أدب النفس قبل أدب الطرس ، فكانت الحرية فى العلم وطلبته واسعة المناحى متنوعة المرامى ، وعمل الشيخ أن يأخذ بيد الطالب فيضع رجله على السلم ، فان صلح للصعود علا ، أو خاب سقط وهوى . وهذا الوضع لم يك مضبوطاً ولا معلماً بل لكل طريقته

---

(١) « ص ٦٠ ج ١ كتاب الاحياء »

ووسيلته ، وقد مر بك أن الأندلس لم تكن بهـا مدارس وأن العلم كان في الجوامع ، وكذلك الحال في الشرق إلى أن بنيت فيه المدارس بعد قرون (نبذة ٣٠٣ ، ٤٠٧) وهي لم تك تفرق عن المساجد إلا بانحيازها عن أمكنة العبادة واختصاصها بطلبة العلم ، والعمل على تفرغهم للعلم ، وبقى في جوارها الدور والمجالس يغشاها الطلاب ويقعد بها العلماء وهم كانوا دوارين متنقلين يستفيدون ويفيدون ، أشبه بتيار الكهرباء يجرى على الأسلاك ويملؤها نورا ، فأينما أدار المرء مقبض السلك أضاء ، في الشارع والدار والحديقة ، وهي شنشنة قديمة توزع بها الحكماء على طبائعهم ومرامى أنظارهم ، ففي قديم الزمان كان أفلاطون إذا حضره أصحابه للتعلم قام على رجليه وألقى عليهم الدروس من العلم ، وهو يمشى حول البساتين فيأخذون عنه ما يلقيه عليهم وهم على تلك الحال ، فسموا المشائين بذلك ، وهذه الفرقة الشائعة الذكر يقابلها فرقة الرواقيين ، وهم شيعة « كرسفس » أصحاب المظلة ، فقد سموا بذلك من اسم الموضع الذى كانوا يتعلمون فيه ، وهو رواق الهيكل في معبد أثينا ، وانتشرت هاتان الطريقتان بين أهل العلم ، وحجة الأولين أنهم يعلمون وهم يمشون كيما يرتاض البدن مع النفس ، ورأى الثانين للتفرغ والتخصص ، وكلا الطريقتين خير .

وفي زمن الإسلام درج العلماء على رغبات نفوسهم ، اللاتى يكون منها رشح العلم وثمر الفائدة ، ودرج معهم الطلبة على التبنى لهم ، والقيام بخدمتهم . (٥١٩) ففي ترجمة الطبيب (جورجيس بن بختيشوع) أن الخليفة المنصور لما استقدمه إلى بغداد من « جنديسابور » وتم علاجه على يده ، قال له يوماً : من يخدمك ههنا ؟ قال تلامذتي ، فوجه إليه

خوادم فردهن « ابن القفطى » . (٥٢٠) وكذلك كان الطلبة كالطير يسقط حيث ينتثر الحب ، فقد تدخل الجامع فترى حلقة واسعة يضيق بها ، وبجوارها حلقة لا ترى بجنبها من أثر الحيرة للطلبة يحضرون على من يشاءون ، وفى تاريخ بغداد أن الإمام الشافعى لما دخل بغداد وفى الجامع ما يقرب من خمسين حلقة ، فما زال يقعد فى حلقة حلقة ، يقول لهم قال الله وقال الرسول ، وهم يقولون قال أصحابنا ، حتى ما بقى فى المسجد حلقة غيره(١) .

٥٢١ — ومن أثر هذه الحرية تقرأ فى كثير من تراجم العلماء أنهم تركوا مذاهبهم التى نشأوا عليها ، أو عدلوا آراءهم التى قالوا بها ، أو برعوا فى فنون علقوها وكان الظن ألا يكونوا من رجالها . ومن هذا الميدان الفسيح برز السباق العظام ، وحفل تاريخ العلماء بكواكب كالدرارى تضىء فى سماء الإسلام وتعشى عين كل جبار أشر . وترى المغرورين بهيئة الغرب الآن أنها هيئة كانت عندنا إلى زمن قريب ، وسنة خططناها وسلكناها وأنتجت نتاج الخير الذى نعيش فيه ونحيا فى فخاره إلى أن يأذن الله للغائب أن يؤوب .

الأزهر

٥٢٢ — هذا الأزهر المعمور كان إلى زمن « والدى » بالصفة التى ذكرتها : مباءة علم ومباءة حرية ، القيمة فيه للعلم لا غير ، والتباهى فيه بالمعرفة فحسب ، وما يزال الطالب يجد فى طلبه وهو على سليقته وهوى طبيعته يطلب العلم الذى يشاء على الشيخ الذى يريد حتى يحس فى نفسه أنه استوى ، وأن له أن يجلس فيعلم ، فيمتحن نفسه فى نفسه

---

(١) « ص ٦٨ ج ٢ »

بشيوخه الذين تلقى عنهم أو باخوانه الذين زاملهم ، فقد يجيزه الأولون ويقر له الآخرون ، فيجلس إلى اسطوانة بعد أن يعلن عن ذلك ، ويجتمع له الشيوخ والطلبة يمتحنونه امتحانا عاما علنا ، لا شفيع له فيه إلا علمه الذى فى صدره ، ولسانه الذى يبين عنه ، ومن ذلك اليوم المشهود يسلك فى سلك المدرسين ويجاز له أن يقعد للتدريس والتلقين ، ومنهم من كان يفتن عن نفسه ويجلس قبل أوانه فيلقى من عزة العلم ذلا لا ينساه ، أو يعود فى المرة الثانية وقد استعد واستكمل .

ومن العجب أن طريقة الأزهر تلك التى انصرف عنها ، هى التى جاءتنا اليوم من أوربا ، نحسبها حديثة وهى عندنا من القديم ، ولكن التقليد كما يقول « ابن خلدون » من شأن الضعيف — هذه الحرية فى الدرس وفى الشيخ وفى الحضور من نظام الجامعات ، وهو نظام الأزهر — وهذا « التيز » الذى يأخذون به الشهادات هو « التعيين » الذى كان عندنا ، وقد أدركت امتحان الأزهر للعالمية ، كان بأن يعطى التلميذ موضوعات فى العلوم يذاكرها فى أيام محدودة ، ويجيء يوم الإمتحان يناقشه فيها الممتحنون ، وقبل هذه الطريقة كانت الطريقة التى رويتها قبل قانون الشيخ المهدى وهى الطريقة العلنية الجامعية ، ومن لطيف اللغة العربية أن تؤدى الكلمة معنيين فكذلك قولى هنا « الجامعية » يصح أن يكون منسوبا إلى الجامع وإلى الجامعة وكلا المعنيين أردت . بل لقد مشى الأزهر على طريقة « التيز » نفسها ولا تزال رسائل العلماء الذين أجيزوا منه بهـــا تتداول مطبوعة فى سوق الوراقين ، كذلك تلك الفراريج والشارات التى شنت الغارة فيها زماناً على مرتديها من الأزهريين ، هى اللاتى نرى طلبة الجامعة وأستاذيها يرتدونها ويتميزون بها ، ولا ضير أن

يكون قماشها أو زيها على نمط جديد فالإشارة واحدة – وهذا التخصص والتفرغ للعلم الواحد أو الفن الواحد ، كذلك كان الحال فى أزهرنا المعمور الذى أخرج الفحول ، وعلم الوادى ، فلما التبس النظر على ذوى النظر أغفلوا هذا النظام المستوى واستبدلوا به نظاما لما ينضج فارتحل حمام المسجد من الأزهر إلى واد غير ذى زرع أو به زرع غر ظله ، ولكن لا حب فيه ولا ثمر وحسب الناس أن هذه الزخارف من الكراسى والكراسات وكشف الحضور وكشف الغياب وتسمية العلوم ووسم الطلاب تغنى من العلم شيئاً ، وتبنى من الهباء بيتا ، وتصوغ الطالب الفارغ صوغ العالم النافع فكانت النتائج تابعة للمقدمات ولن تجد لسنة الله تبديلا .

٥٢٣ – لقد ذر قرن الألف فى رأس الأزهر ، واشتعل بهامته شيب التجارب ، وقد جلت حتى تكاد ترى تحت كل شعرة منها تجربة ، بقى الأصلح منها فيه فاستقام به وقام له ، وانقضت حقب على جدرانه وهو رأسى القواعد مستطيل الأعالى ، فسايرته ست دول وسايرها سير الهادى بهداية الخريت ، وسجل التاريخ له مننا علقت بأعناق الأجيال من أبناء القرون العشرة ، فاليوم لانرى معهداً فى الدنيا له فخار الأزهر أو مجد الأزهر ، ومنة الأزهر ، إلى ماقبل الاحتلال ، وهو ذلك الطود الأشم الذى ينشد له مهيار فى أهله بصدق :

قومى استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رءوس الحقب

ثم بدأ الكلام فيه وزاد ، واشتد ورمى بالزبد ، وانقضى عمرنا ونحن نسمع هذه الكلمة تقال وتردد ، وتلت وتعجن ، كلمة « إصلاح الأزهر » و « النهضة بالأزهر » الخ الخ ، كأنما كان هذا الجامع الناقع فى ألف سنة

إلا خمسين عاما ، بعوزة فى الخمسين الباقية مافاته فى ألف إلا خمسين ، ولا أغالى إن قلت أن التجنى بلغ عليه حتى كاد يراد بهذا الشيخ الأشمط أن يصفف شعره ويزجج حواجبه ويمنطق خاصرته ، غاشية سكرت العيون من فتنة المدنية الواغلة ، فأخذوا يفصلون للأزهر ثيابا وتفاصيل ، ويمدون له صورا وتهاويل ، ويبرقشون ويزخرفون ، مما يخشى أن يكون القصد منه طمسه ، أو الغرض فيه نقضه ، ولكن الله غالب على أمره ، والذى حفظه ألفاً يحفظه ألفين ، عصمة لدينه ووقاية لشرعه وهداية لعباده ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، فقد بدا شعاع الأمل يشع ، وريح الفرج يهب ، ورأى أبناء الحداثة لما انكشفت لهم الغاشية ، أن هذا الإصلاح المنشود له ، كان فيه وبه ، وأن طريقته التى سار عليها هى طريق من جاء بها ، وقد ظنها طريفة فإذا بها تليده ، واستعظم فى رفده تمره ، فإذا به ينقله إلى «هجر» ولو جمع ما كتب فى إصلاح الأزهر ، لملأ مجلدات تملأ صحفه ، لو كان مافيها كله صدق لقضى بحق على ألف جامع وجامعة ، ولكنه كلام كان معناه فى بطن القائل ، وكلام أكثره كان لغير وجه الله ، فرده الله على مكثره ، ويوشك الزبد أن يجفأ ويبقى ماينفع الناس . فجلال هذا الجامع أولى به حفظه ، وأفضل له رعايته ، وأن يبقى فى المسلمين بقية مما ترك آل محمد ، تحمله الملائكة ، وقد حفظته أرواح الأطهار الأبرار ، الذين ورثناه عنهم فى بنيانه ، وتقضى الأمانة أن يبقى على ميراثه فى عنوانه ، وإن شئنا له زدنا رعاية لاتبديلا ، ووقاية لاتغييراً ، فالأزهر إنما هو أزهر بطريقته وأزهر بهدايته ، وأزهر بمسكانته ، فلا على المصلح أن يستبدل ببلاطه خشب الأبنوس ، وبحصرة بسط الديباج ، وبخزائنه العود والصندل ، ثم لا عليه أن يفيض على بنيه مما آتاه الله ، وعلى علومه مما هدى الله ،

ويبقى البيت بذلك معموراً ، والمسجد نوراً ، وقد هم من كان قبلنا فى زمن قريب هذه الهمة فبدأها ولم يتمها ، وكان أن رعى له حرمته فاسترقد من أغصانه المتهدلة فروعا نماها ، وصنع فيها ما أراده بحكم الزمن فبقى الأزهر لذلك عالياً فوق حكم الزمن يطل على بنى الدنيا بوجهه الأبيض باقياً على الأبد ، ونحن ننشد فى جنباته نشيد الافتخار به ، والاعتزاز بجانبه ، صائحين بقول شاعر الحماسة :

لنا جبل يحتله من نُجيره   منيع يردُّ الطرف وهو كليل

أما التلاعب بابن الألف ، والهدجان حول هذا الصرح ، نبغى له الجلاجل والخلاخل ، ونريد منه ما يراد من الأحداث والعيايل ، ونرومه على أن يطأطىء رأسه العالى ، لنقلد عنقه قلائد الزخرف والبهرجة وأطواق الصنعة والتعمل ، فقد سبق لشيخنا المرحوم الشيخ حسونة النواوى أن صرح فى مريدى ذلك بكلمته المدوية حين رأوا أن من إصلاحه تسمية الجامع بالجامعة ، قال الشيخ : إن الجامع مذكر والجامعة مؤنثة أفمن الإصلاح هذا التأنيث ؟؟ وهذا قول يغنى عن التعليق ، وسيظل الأزهر على عظمته وضخامته ، كلما جيء له بما يسمى إصلاحا لايلائم ، وهو أبو الإصلاح الطبيعى ، ينشد قول جرير :

وابن اللبون إذا مالز فى قَرَن   لم يستطع صولة البزل القناعيس

٥٢٤ — ولا يحسب القارىء أنى جامد أو عدو للإصلاح ، لا، ولكن أقول إن هذا الأزهر كائن حى ، حياته قوية وعمره مديد ، وقد ثبتت قوة حياته ببقائه طول هذا العمر ، وهو فى أطواره كلها يحيا بقوة التطور ، فقدرته التى تصلحه يجب أن تكون منه لا وافدة عليه نتيجة

إحساس داخلى لا فيضاً من أثر خارجى ، وهو بإصلاحه هذا النفسى ، يتطور إلى ما ينبغى ؛ وينشىء ما يحفظه ويبقيه شأن الكائنات الحية ، فإن إفرازها الذى يحفظها نابع من غدد مخلوقة فيها ، وإنما يضمن البقاء باستمرار الغذاء . فيجب أن يغذى الأزهر بما من شأنه أن يتغذى به ، ثم هو بطبعه وقوته وبوظيفته يعمل على بقاء الأصلح ، وإن مؤسسة لها ألف سنة ضربت جذورها فى أساس الحياة القومية ليست كالمؤسسات الحديثات ، اللاتى تحوطها النظرة العجلاء ، وتحتوشها اليد القابضة ، بل فى هذا المعهد قوى هائلة وكثيرة ، ظاهرة وخافية ، لها عوامل متعددة تعمل له وتضمن بقاءه والخير كل الخير فى التباعد عن وضع العقبات لها ، وإقامة الحواجز فى طريقها ، وإنما تلامس ملامسة الحكمة ، وتواتى على بصيرة يراعى فيها طبيعة ما يرادمزجه ، وخاصية ما يرى إدخاله ، ومراعاة دقيقة تدرس فيها خواص العناصر متفرقة ، وخوصها بعد مزجها حتى تعرف النتيجة من المقدمة ويلمرك الشىء قبل وقوعه . ويكون من خطا للغاية قد قدر لرجله قبل الخطو موضعها وعرف لسيره قبل المشى طريقه ، إذ ذاك يطرد السير ، وتضمن ثمرة الأزهر التى أسس من أجلها ، وحفظ لنوالها : وسيبقى إن شاء الله مؤتياً أكله كل حين بإذن ربه . — وأنى أروى هنا عن المرحوم الشيخ على بوسف ، وقد سمعته يتكلم فى مثل هذا الشأن قال : إن السبب فى أن ما يوضع للأزهر من إصلاح ، لا يثمر فيه ، هو أن الواضعين له فريقان : فريق يعرف الأزهر ولا يعرف الإصلاح ، وفريق يعرف الإصلاح ولا يعرف الأزهر ، ومع اجتماعهما فإن كلا من الفريقين لا يعرف أن ينتفع بما عند صاحبه فى وضع ما يراد وضعه ، فلهذا يجىء الإصلاح على غير المطلوب ، وتكون النتيجة على خلاف ما أمل . اه

وحدثنى كثير ممن طلب العلم فى انجلترا ، أن بها جامعات قديمة يعنى القوم بالمحافظة عليها ورعاية قديمها فى بنائها وفى تقاليدها وفى التزام طريقها حتى لقد روى لى أن بها أمكنة متهدمة لا يزيلونها وإنما يرممونها ، وأن فيها تقاليد من أحكام العصر الأول لم يغيروها ولا تغيروا من قيامهم بها ، وأنهم مع هذه المحافظة عليها لا يأبون أن يأخذوا من الجديد ما يلائمها ، ويتناولوا من المستحدث ما يشد أزرها من غير أن يطغى عليها ، فلذلك بقيت بطابعها الأول تحمل فضل القديم من غير أن تنسى ميزة الحديث ، وهكذا لكل مؤسسة يراد لها البقاء والدوام طريق تسلكه ، لتؤدى مهمتها فى الحياة من غير أن يضطرب عليها السير فتضل بين الطرق ، أو تنتقل إلى حال لا مقام لها به وتضطلع بوظيفة لا تغنى فيها أو لها ند يقوم بغنائها ، فتضيع بين القديم والجديد (راجع نبذة ١٠٥) .

المعارف

٥٢٥ — ولقد امتدت الغاشية فأظلت معارف الحكومة فهى تدير مدارس الحكومة وأبناء الأمة فيها كما تدير « ماكينة » المصنع آلاته لتخرج أشياءها مصنوعة صنع المدير كما شاءت إرادته ، لا كما يشاء العلم ومن أجله أنشئت .

إن كل أمة صالحة من أمم « المدنية الفاضلة » ترسى قواعدها فى التعليم على أجوبتها الصحيحة لهذة الأسئلة الثلاثة التى تحصر الفائدة من العلم ، ولا فائدة به ومنه إلا بصحة الجواب وكمال الأجوبة .

والأسئلة هى : (أولا) لماذا نتعلم ؟ (ثانياً) كيف نتعلم ؟ (ثالثاً) متى نتعلم ؟ ولعل القارىء لمح من كتابى أجوبة أسلافنا على أسئلة العلم ؟

وعرف صحتها وأدرك أن أمم الحضارة اليوم تسير فى تعليمها على مذهبها وأن النتيجة فى كلا الفريقين هى ذلك التقدم الذى تقدمناه فيما مضى ، والرقى ، الذى يشاهد اليوم فى فريق تلك الأمم .

وأجوبة أسلافنا على الأسئلة هى : عن السؤال الأول – نتعلم لنعمل – وعن السؤال الثالث – نتعلم مدى الحياة – وعن السؤال الثانى كان جوابهم مع الظروف والحلات فى حدود الإرادة والاختيار ، وهو ظاهرة من ظواهر اختلاف البيئة والطور ، فلكل طور من الزمن كيفية ، ولكل بيئة صلاحية أو كما يقول مثلهم : (لكل شيخ طريقه) – والكيفية هى أهون الأجوبة ما دامت الغاية محددة ، وما دام العنصر وهو المتعلم حاضراً غير محدد ولا مقيد .

٥٢٦ – وقد بقى سؤال رابع لم ندرجه فى الأسـئلة الأولى وهو : (ماذا نتعلم ؟) . إذ أن هذا السؤال متفرع من السؤال الأول ، فإنا إذا علمنا جواب السؤال الأول ، وهو : أننا نتعلم لنعمل ، كان تعيين ما نتعلمه متحتما فى العلم الذى نعمل به ، أى أنا إذا نصبنا الغاية التى نسعى لها عبدنا السبيل الموصلة إليها ، فالذين يطلبون سعادة الأخرى يتعلمون علومها ، والذين يطلبون سعادة الدنيا يتلقون فنونها ، فنحن نتعلم لنعمل بما نتعلم ، أى لنعمل على حصول السعادة التى يبغيها طالب الحياة ، وهذه الحياة قد يقتصر صاحبها على حياته الدنيا ، وقد يمدها إلى حياته الثانية ، فيكون الحاصل من هذا أن المقصود بالعمل إنما هو العمل للسعادة وهو مطلب العقل الأول ، إذ لا يريد عاقل إلا أن يكون سعيداً ، فالعلم سواء أكان علم الدنيا أم علم الآخرة غايته العمل به لتحصيل السعادة ، فالسعادة هى غاية

الغاية ، وإن اختصرت فقل : إن الغاية من العلم تحصيل السعادة ، ولما كان العلم هو إمام العمل فقد صلح أن نقول : إنا نتعلم لنعمل ، ونتيجة هذا لدى العاقل أن يفهم من العمل : العمل للسعادة ، وقد قصرنا غاية العلم على العمل ؛ لأن من يعلم قد يعلم لعمل لا يحصل السعادة وهو عمل الشر وكثيراً ما هو ، وصح لهذا أن نقول : الغاية الأولى من العلم العمل ، ولذلك بقيت الحكمة فى توجيه العلم وتوجيه العمل لتحصيل السعادة وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم . ولما كان الإسلام يدعو إلى سعادة الدارين فإن علماءه جعلوا غايته العمل لتنويلها ، فمزجوا فى العمل الخلق الذى يعبرون عنه بالورع ، أو خشية الله ، فالعالم العامل يعمل وهو بعمله يراعى الحصول على هذه السعادة ، فيستقيم بعمله لينيله عمله المستقيم مرامه ، والعلم عندهم علم عبادات ، الغاية منه أداؤها على وجهها ، وعلم معاملات الغاية منه السير فى الدنيا على وفق أحكامها ، وعلوم أخرى يجعلونها فرض كفاية ، الغاية منها العمل لإصلاح المجتمع ، والعامل بها يكون ناظراً إلى نيل سعاده الدارين أيضاً ، وعلوم الدنيا الصرف ، القصد منها أن يعمل بها عاملها للعيش فى دنياه ، ممسكا بأسباب الحياة ، ليستعين بها على أن يحصل سعادة الآخرة ، والسعاده الأخروية التى تنال بالخير هى مادرج عليه غير المسلمين مما يسميه علماؤهم بالأخلاق وهذه الأخلاق سداها ولحمتها الخير الذى يجعله من لا يعتقد الإسلام دينه ويطالبه ، وهو فى النهايه يلتقى مع غاية الإسلام وإن تعددت الأسماء فالمسمى فى الحقيقة واحد ، والملتقى جميعا فى رحاب الحق تعالى ، الذى وسعت رحمته كل شىء وجعل العلم بفضله مفتاح بابها وجواز الدخول إلى نعيمها ؛ لا إله إلا هو كتب على نفسه الرحمة . فنحن نتعلم لنعمل ، وكل علم لا ينتج العمل فعقيم ، وأعقم منه

العلم الذى لا يؤهل للعمل ، ونحن نعمل لنسعد ، وكل عمل لا يوصل إلى السعادة فشقاء ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه وخلاصة هذا بعبارة عربية مأخوذة من الأحاديث النبوية : أن الغاية من العلم النفع ، وقد استعاذ صلى الله عليه وسلم بالله (من علم لاينفع) أى أن الإنسان يتعلم ليكون نافعاً ، والنفع هنا مطلق يعم نفع نفسه ونفع المجموع ، ويعم نفع الدنيا ونفع الآخرة ، فهذا النفع هو الذى نتعلم له ، وعلى ريح النفع يجب على ربان سفينة العلم أن يوجه دفتها ، وأن يتأكد من ركابها أنهم ما استقلوها إلا لتوصيلهم إلى بره ، فإن قصر بهم عن طلبتهم فقد أساء لهم ، وأساء إلى العلم الذى نصب نفسه لخدمته ، والواجب على الربان بعد هذا أن يكون مقدار النفع الذى يناله طالب العلم موزونا بمقدار جهده فى تحصيله أى أن يكون لكل مرحلة من مراحل العلم نصيب يحصل عليه الطالب لا يحال به ولا يماطل فيه ، وهذا النصيب يتضاعف بتضاعف جهده حتى يحس العامل أنه يجنى ثمرة عمله فيزيد ويطرد فى الصعود ، وفى هذا تحصيل أكبر نفع لأكبر عدد ، مما يرفع المجتمع على جناحين من حضيض الأرض إلى يافوخ السماء .

وبهذا الميزان الحقيقى ، ميزان النفع ، يجب أن توزن المعلومات التى تقدم للمتعلمين ميزاناً محرراً ، منظوراً فيه إلى أسنانهم وبيئاتهم وأطوار زمنهم والظروف المحيطة بهم ، وفى هذا كله تبين حكمة متولى أمور العلم الذين أقامهم الله نظاراً على المتعلمين ، كما قد تركت لحكمتهم كيفية التعليم أى كيف ينقل العلم إلى عقل الطالب ليحوزه من أسهل طريق فى أقرب زمن ،

وفى هذا المجال يبين فضل الإنسان على الإنسان وتظهر آية التلم وبه علم الرب الأكرم ، علم الإنسان مالم يعلم ، وبدون هذا فالتعليم مهزلة أو ضياع أو وبال . ومن المدهش أن يكون القصد من العلم بديهياً وهو النفع فلا يتردد إنسان فى أنه يتعلم لينتفع ، وشاع لهذا قولنا (العلم نافع) حتى اتخذ مثالا فى الدروس على القضايا البديهية ، ثم يجىء المتحذلقرن إلى هذه البديهية فيضعونها تحت النظر ولا يزالون يلتّون فيها ويعجنون حتى يحرق الخبز ويطير الرغيف ، ونصبح فنرى أنفسنا أمام مشكلة من مشكلات يتعثر فى حلها فريق من الأمم ، وصدق الإمام على كرم الله وجهه حيث يقول (العلم نقطة كثرها الجهال) .

مسعى العلم

٥٢٧ — فالغاشية التى لحقت بالمعارف عندنا عمت من خلط الأمر على أولى الأمر فى آخر الأمر حتى جل الخطب وزاد الكرب ، فإن الزمن لا يقف والأرحام لاتتوقف ، فطبقات المدارس تتخرج وتتراكم وهى نبات ذلك النظام الفاسد فلا ريب يعظم الفساد ، ولقد كان بناة هذه المدارس الحديثة ينصبون لها غاية محدودة ، هى إخراج أفراد يديرون دولاب الحكومة ، فلذلك هيئوا من الوسائل على قدر حاجتهم من الغاية ، فلما تولى غيرهم فى العهد الأخير تركوا الغاية على تحديدها ، لم يغيروها ولم يوسعوها ، وانصرفوا إلى الوسائل فأكثروها وزادوها ، فبنوا المدارس ، وأكثروا من طلابها ، فخرجت طبقاتها أفواجا يجيئون إلى الغاية فيرونها أضيق من أن ينفسح بابها لجموعهم . فهم على عتبته عاكفون ولانفراج مصاريعه منتظرون ، والمدارس من خلفهم تلقى عليهم طبقات حدد ، يتكدس اللاحق بها على السابق حتى استفحل الخطروعز والفرج ،

وقصار النظر ينسبون هذه المصيبة للعلم ، والعلم برىء منها ، ما جنى ؟ ولكن جنى المتصدرون للقيامة عليه والتحدث فى أمر التعليم ، إن العلم مجاله فى مسعى معروف بين الصفا والمروة ، صفاه الخُلق ، ومرواه العمل ، ولا يمكن للعلم الذى هو علم أن يسعى فى غير هذا المجال ، والساعى فى غيره هو غير العلم الذى يعرفه العلماء ، ويتصف به رب الأرض والسماء باسم عظيم هو « العليم » إذا فاسلكوا علمنا الحاضر فى سلك آخر ، ومدارسنا ، القائمة سموها باسم مخترع ، واعذروا متخرجيها إن ضاق الحال بهم ، فقد خدعوا وخدع آباؤهم فى استدراجهم إلى هذا المصير الذى وقف مصْر اليوم موقف النعامة بين الأمم ، إن قيل لها طيرى تباعرت أو شيلى تطايرت ، فأبناؤها إن أريدوا على خلق أهل الشرق وآدابهم ، قالوا إنا غربيون ، فإذا طلب منهم أن يعملوا عمل أهل الغرب ويمشوا على سننه قالوا إنا شرقيون ... ؟ !

٥٢٨ — لقد حفى قلمى من سنين وأنا أكتب منذراً بهذا الخطر (١) أدعوا قومى أن يتأسوا بأهل الغرب فى النظر إلى العلم والقصد من التعليم إن كانوا يعافون أن يقال لهم اقتدوا بآبائكم الشرقيين ، فإن أهل الغرب لم يتعبروا أن يلتمسوا الحكمة أنى وجدوها ، فبنوا مداراسهم ووضعوا لوائحها على قاعدتي العلم الصحيح وهما الخلق والعمل ، بل لقد ازدلفت أمة ايطاليا

(١) منذ سنين والمؤلف ينشر مقالات فى صدور الاهرام توقيعها « أبو التلاميذ وعبد العليم » عالجت هذا الموضوع الهام ودخلت عليه من جميع أقطاره واستوى الرأى فيها للكاتب بما ظهر هذه الايام فى تقرير وزير المعارف الذى نشره أخيرا عن التعليم فى المدارس الثانوية واكثره وفق رأينا واجابة ما سألنا ، وهو تقرير جيد طلب الوزير الى أهل الذكر تمحيصه ومواتاته بالمشورة فيه وأولى له أن يمحصه للعمل فيبدأ فى تنفيذه قوات فوات الزمن . وتراجع نبذة ٥٣٧ .

أخيراً إلى ثنية الصفا فألغت اسم « وزارة المعارف » عندها وأسمتها : « وزارة التربية » وكذلك الحال عند بقية الأمم ، كلها نظر إلى الغاية ، والوسيلة زلفى لها .

٥٢٩ – ومن اللطيف أن أرى اليوم في جريدة الأهرام صورة لشيخ ياباني في الثنية والثمانين من عمره يندرج في سلك « جامعة » عندهم وهو من أمة اليابان التى هى شرقية أيضاً ، ولكنها أحست فعرفت ، فطلبت فأدركت ، فأقامت بنهضتها الحجة على أن من جد وجد ، إذ لم تقعد بها شرقيتها الجغرافية أن تشرق كأزهي أمم الغرب فى سماء الحضارة والمدنية ، وهى آية ما أرى ، ودعوة العلم إلى الناس كافة ، إذ كان العلم يوقد مصباحه من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار – راجع نبذ ٦٩، ٧٢، ٧٣، ٧٤ .

سن التعلم

٥٣٠ – أفترى الشيخ اليابانى عرف فى سنه هذه جواب الحسن البصرى فاتبعه باحسان ؟ فقد الحسن رضى الله عنه عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن به أن يطلب العلم ؟ قال : إن كان يحسن به أن يعيش وقيل لبعض العلماء : متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : ماحسنت به الحياة ، وقال أحمد بن حنبل : إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وقال عبد الله ابن بشر الطالقانى : أرجو أن يأتينى أمر الله والمحبرة بين يدى ، ولم يفارقنى العلم والمحبرة . وكذلك قال ابن المبارك وقد آخذه قوم وقالوا : إلى متى تسمع ؟ قال إلى الممات ، وهذه السنة هى التي شرعها الى المعلم الأكرم في قوله : « لن يشبع من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنه » رواه الترمذى . قال ابن القيم : فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم النهمة

في العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين ، وأخبر أن هذا لايزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ه(١)

٥٣١ — فهذه قاعدة اسلامية حدتها اليوم قوانين المدارس النيئة وهى القوانين التى جعلت من المدارس ثكنات يدخلها الجند المحاربون ، فهم يستكشفون عن الطلبة كشفا طبيا كأنما يساقون إلى الرماية والنزال . لايقبلون إلا نظراً محدداً وجسما ممدداً . والعقل عندهم وهو موضوع المدرسة مهمل من هذا الكشف ، وقد جانبوا حكم العقل في هذا ، إذ المعقول ألا يبعد المخرق ولا ضعيف البصر ولا قليل البنية ، وإنما يكتفى بابعاد أرباب العاهات المعدية ، وكذلك هم عن الجامع مبعدون ، كما جعلت همها من العلوم التى تلقنها لطلبتها ، الكلام والنظر ، وكان همهم فيما مضى وهم الراقون فيما حضر إنما هو العمل . قال هشام صاحب الدستوئى : « كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليحدث به ، ولا يطلبه ليعمل به ؟ » ولما كان لب العمل الورع فإنهم أدخلوه فى التعلم ، قال الضحاك ابن مزاحم « أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع » ثم انتقد طريقة الكلام والنظريات فقال : وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام ؟(٢) .

وقال يحيى بن كثير : « العالم من خشى الله ، وخشية الله الورع » وقال الحسن : إن كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك فى تخشعه وبصره ولسانه ويده ، فتراهم فى نظرهم إلى العمل ، لفوه فى ثوب الخلق ، واستطروا منه خشية الله التى بها قوام الخير لهذا العالم ، بل لقد سبق أن روينا عنهم قولهم الذى يتقولون فيه : إن العالم لا يكون عالماً حتى يرى بالعلم عاملا ، كأنهم يربطون النتيجة بالمقدمة ، ولا يرون للمقدمة

---

(١) ص ٨٧ ج ١ مفتاح .

(٢) ص ٥٨ ج ١ احياء .

قيمة حتى تحصل لهم النتيجة ، وزن نتيجة التعلم عندنا بهذا الميزان لترى عمل المتعلمين وخلقهم ... !

٥٣٢ – واعجب معى أن تكون العناية مصروفية للكلام ، والتعليم كأنه وقف على النظريات وتحصيل مالا يغنى من العمل شيئاً ، ولا يفيد فى الحياة كثيراً ، فعندنا فى مصر ثلاث كليات للغة العربية : كلية الأزهر ، وكلية الجامعة ، ومدرسة دار العلوم ، وفوقها كلية الحقوق ، على حين أن مصر وهى بلد زراعى ليس بها إلا مدرسة واحدة للزراعة العليا والمدرسة الحربية لم تقبل فى العام الماضى إلا ثمانية عشر تلميذا والمدرسة البحرية أغلقت بابها فية ولم تقبل تلميذاً واحداً ، وليس عندنا مدارس للصناعات الكيمائية ، ولا معاهد لعمل الأسلحة والذخائر وصنع آلات الدفاع ، ومدارس الصنائع يتخرج المتخرجون فيها وفى رأس كل متخرج منهم فكرة جامحة لكرسى فى الديوان يتبنك عليه ، حتى دواوين العمل فى الحكومة كسكة الحديد لا تحفل أن تمرن فى مصانعها أناسا من بنينا ، أو تعلم من عندها ما تحتاج إليه فى إداوتها ليعملوا إذا عملوا بل ارتكن الجميع على أن ينزل لهم الرزق من السماء ، أو يجيئهم العمال من الخارج ، فشغلوا على النافع ، إلى أن استقل بالنفع عالم النفع – ولله فى خلقه شئون .

مقصد العلم

٥٣٣ – إن القصد من العلم إنما هو النفع ، وليس القصد به التجمل وإن جمال العلم بالعمل به ، قال حبيب بن عبيد : تعلموا العلم وانتفعوا به ، ولا تعلموه لتجملوا به ، إنه يوشك إن طال بك العمر أن تتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه – وهذا لعمرى حال أكثر محصلى العلوم اللسانية وفيهم يقول صلى الله عليه وسلم : من طلب العلم ليجارى به العلماء ، ويمارى به السفهاء ، ويصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار – أما

العلم الذى من شأنه أن يكون نافعاً ولو لم ينتفع به صاحبه ، فليس هو ما تلقنه تلك المعاهد الكثيرة وإنما شأن ما تلقنه هو الشقشقة الفارغة ، والنظريات التى لا طائل تحتها ، والبحوث التى لا تزيد فى الدنيا شيئاً ، ولا تساوى فى الوزن حبة خردل ، وقد روى جابر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم إنى أسألك علماً نافعاً ، وأعوذ بك من علم لاينفع ، فالنبى صلى الله عليه وسلم يسأل العلم النافع ويستعيذ من علم لا ينفع وهو العلم الذى لا نفع فيه كما يستعيذ به من علم شأنه النفع ثم لا ينتفع به متلقيه .

٥٣٤ – وقبل ذلك انظر معى إلى المهيمنين على إدارة التربية والتعليم لتعرف تصريفهم ولتحكم على نظرهم ، فترى أنهم يصرفون فى الأزهر والجامعة والمعارف تسعة وتسعين جزءاً من مجهودهم فى الظرف ، وجزءاً واحداً فى المظروف – والحكومة تصرف لهؤلاء وهؤلاء بضعة ملايين من الجنيهات فى السنة الواحدة ، لو أنك عمدت إلى نتيجتهم التى تصرف لها هذه الملايين فقومتها فى سوق النفع ، ما قامت فى الحق بعشر معشار ما تشترى به ، بل ربما كان إثمها أكبر من نفعها بما ترى من أثرها فى بنينا خلقاً وعملا ، بل روحاً وجسداً ، فقد بقيت إدارة التعليم عندنا تبغى سيرها عوجا وتمشى ببنينا مشية العرضى ذاهبة بهم فى طريق الحياة من إفريز إلى إفريز ، لا تقيمهم إلى الأمام نصا ، ولا تدفعهم إلى المستقبل قدما ، بل خلطت أساليبها فيهم حتى لقد رأينا من زمن قريب أن تقدم طلبة البكالوريا مرة للامتحان وهم على ثلاثة نظم مختلفة لكثرة ما نال البرامج من محو وتغير ! لهذا نشأ الجيل متأثراً بهذه الطريقة السيئة التى

زرعت فيه التردد والترجحن ، وكادت تقلع من العزم والإقدام فوق ما بها فى الأصل من بعد عن الغاية وعرق عن القصد من العلم والتعليم ؛ إذ كان هم المدرسة من طلبتها ، أن تحشوا أمخاخ الأولاد بلفائف من نظريات ومسائل ، يتمولون إنها علم ، وهى فى الواقع حشو فارغ ، لا نفع فى أكثره للتلميذ ، حتى لقد حدثنى أحد وزراء المعارف السابقين أنه وقد أخذ ينظر فى البرامج ، رأى فيما رأى من كتب الجغرافيا التى تدرس فى المدارس الثانوية ، ذكر الرياح الموسمية وعددها وجهات مهابها وأوقات هبوبها وهى اثنتا عشرة ريحاً فى الدنيا ، قال فسألت من يشرف عليها وكان من مؤلفي الكتاب ، فلم يذكرها ، وطلبت إليه بيان الفائدة التى تعود على التلميذ منها فلم يبينها ، وكذلك قل فى أكثر ما يدرس ، حتى إن وزيراً أسبق استطاع أن يختصر عدد العلوم فى المدارس الابتدائية إلى قريب من النصف ويوشك غيره أن يزيدها اختصاراً وأن يهصر العلوم التى فوقها ، وهكذا فى السنين الأخيرة رأينا مدارس مصر أشبه بحقل للتجارب التى لم تنجح منها للآن واحدة ، وسبب هذا فى الغالب أن خططهم إنما هى تخطيط لرسم يقلب المقلبون فيه خطوطه وأوضاعه قبل أن يعرفو حقيقة ما رسم له ، ولم رسم ؟ أو قبل أن يحددوا المطلب الذى يرسم له ، ولأجله يخطط .

تشقيق النابتة

٥٣٥ — ولقـــد تناول الناظرون موضوع التعليم فى مصر بالرأى والاقتراح ، ومضوا ومضى ما كتبوا حبراً على ورق ، وأخطر من هذا فى نظرى ، أن يكون التعليم فى مصر سبباً لشقاء بنيها بل لتشقيقهم ، فحالة المتعلمين بها لا تسر وهى نتيجة ما ذكرنا ، ولكن تشقيق الأمة بالتعليم أفدح خطباً وأنكى جرحاً ، فإن طريقتهم لا تسير فى « التعليم الأول »

كما سارت رواقى الأمم ، وعندها يكون التعليم واحداً ينشىء الجيل كله نشأة متحدة ، يتعلم أفراده سواسية معلومات واحدة على طريقة واحدة فتستمى هذه الأغصان فى منابتها بماء واحد من عين واحدة ، فإذا انتهت هذه المرحلة ، عرج كل فريق إلى ما يبغى ، وسلك من طرق العلم ماينفع ، ولكن مصر ينشأ أبناؤها من صغرهم متفرقين ، بعضهم يلزم مدارس التعليم الإلزامى أو الأولى ، وبعضهم يلحق برياض الأطفال ، ويفترق هؤلاء وهؤلاء من الصغر إلى طريق المدارس الابتدائية أو طريق التعليم الذى يسمونه بالدينى . يتشعب كل فرع بأهله شعباً وأفناناً فلا تجىء سن الحداثة والشباب ، حتى ترى أصحابه طرائق قددا وفرقاً متعددة ، وهم من قبل لم ينشئوا على أمر جامع ، ولا شبوا على وتيرة واحدة ، فتراهم من الصغر قد درجوا وبينهم « تفاريق العصا » ، فلا عجب أن يشبوا متفرقين ، ويعيشوا كما قال المرحوم جمال الدين : اتفق المصريون على ألا يتفقوا .

والواجب لمن يرى الخير فى العلم ويبغى الخير بالتعليم ، أن يوجد « التعليم الأول » لأبناء الأمة جميعاً ، وأن يجعل صقال التربية للنشء الصغار صقالا واحداً ، يصقل به الولد من حيث إنه ابن الأمة ، لا فرق بين غنى وفقير وخفير ووزير ، حتى يضمن لنتاج هذه الأمة وحدة الميل والتفكير ، ويحس أبناؤها مهما لقوا ولاقوا فيما بعد الطور الأول أنهم جميعاً إخوة ، من طينة مشتركة ، استوى نباتها فى تربته وفى غذائه وكانوا جميعاً فى مدرسة العلم ، والعلم رحم كما يقولون .

أفيعجبك أن ترى الأرحام قد دفعت فلذات الأكباد إلى رحاب

هذا الوادى المصرى ، فإذا شموا نسيمه ودرجوا على أديمه ، انقسموا إلى ثلاث شيع : بعضهم يذهب إلى المزرع ، وبعضهم يذهب إلى المصنع ، وبعضهم يذهب إلى المدرسة ، ثم من يذهبون إلى المدرسة ينقسمون إلى ثلاث شيع أخرى ، بعضهم يتعلم فى المدرسة الإلزامية ، وبعضهم يلحق بمدارس التعليم الأولى ، وبعضهم يذهب إلى رياض الأطفال ؟!! فهذه هى أقسام ستة هى تفريق لمجموع العناصر المقبلة على تكوين الأمة ، لايلتقى أحد أقسامه بقسيمه فى مرحلة من مراحل حياته ؟ ويطالبون من بعد ذلك أن يتحدوا ويتفقوا ؟ هذ والدستور يلزم أولى الأمر بتعليم الجل فيفلتون من هذا الإلزام الذى قصد به فى الوقع توحيد النشأه إلى الأخـــذ بظاهر لفظه وإطلاق إلزامه تفلتا يضيع الحكمة من العلم ، ويعطل حكم الدستور ، وتجنى الأمة من ورائه جنا التفرقة الذى طالما حرقت بنارها ، وغصت بمرارتها . وإنه لاعلاج لهذا إلا باتباع ما أراه من وجوب تنشىء الجيل كله على أمر جامع ، وإدخال طبقة الصغار قاطبة فى المدارس العامة التى أقول بتوحيد التعليم فيها . وأن تقوم بخير التربية لقاصديها .

البرامج

٥٣٦ — لست ألوم ولاة التعليم على مايبذلونه من جهد فى تنظيم المدارس وتأثيثها ، وعنايتهم برجالها وقوامها ، فهذا أمر لازم وعمل واجب ، إنما لومى أوجهه لاستغراق هذا العمل مجهودهم ، وذهابه بالغالب الأكثر من وقتهم . فما يشغلون به أنفسهم إنما هو ظرف يعد ويهيأ للمظروف الذى أعد الولاة والموالى لخدمته ، وجعلت هذه الأمور كلها وسائل لإنتاجه والحصول عليه ، ألا وهو — التعليم — فالتعليم هو المخدوم وما عداه الخادم ، والنتيجة لهذا أن يكون هو الأولى والأحق بالعناية والنظر وبالجهد والتضحية ، ولقد مضت علينا بضعة عشر عاما رأينا فيها هذا السيد المخدوم يقلب على جنبيه ،

وينكس رأسه فيشيل رجليه ، ويتعدى على حدوده ومعالمه فيغيرها المعتدى ، يزيدها تارة فى الطور الأول ، ومرة فى المرحلة الثانية ، وأخرى فى الدرجة العالية ، ولوائحه ومناهجه بين يدى نظر المتولى الواحد، يختلف عليها نظره باختلاف شخصه محواً وإثباتا ، وتغييرا وتبديلا . وإدخالا وإخراجا ، وزيادة ونقصانا ، كأن من يعطى أمر التعليم فى مصر واقف له فى كتابه الشروط العشره ، إن شاء استعملها أو شاء أهملها ؟ وكأنما هذه الملايين من أرباب العقول اللدنية ، والذين يعطيهم آباؤهم لمدارسه ، كأنما هم عجينة يتكفؤها بيده ؟ لم يوضع لهم إلى اليوم نهج ولم تنصب لمستقبلهم راية ، ولا عرف الآباء ولا الأبناء إلى أى طريق هم مسوقون . والعلم الذى أمتن الله به على عباده لم يجعل منزلته بينهم هذه المنزلة التى له فى مصر ، ولا هو فى طبعه تليق له هذه الفوضى ويصح فيه ذلك التشويش. فالعقل هو أكرم ماخلق الله . وهو الذى جلاه لنفسه بعد خلقه ، وعرضه على عينه ، ثم أقسم أنه لم يخلق أعز عليه منه ؛ إذ كان به يأخذ وبه يعطى ، فهذا الحوز الكريم ، يجب أن يكون العلم الذى يُودع فيه ، من الكرامة بهذه المرتبة شكلا وموضوعا وعصفا ولبابا ، وإلا نكون قد عملنا على إهدار أغلى جواهر الآدمية ، وأعز عناصر الكونية .

مجلس التربية

٥٣٧ – كذلك ألوم انقسام ولاة التعليم فى مصر ، فلكل منهم ناحية قائمة . وميزانية محددة ، وهيئة خاصة ، كأنما هم ملوك الطوائف فى القرون الوسطى ؟ وهى قسمة ضيزى ، ينال مصر منها بعض ما ألممنا به ، وهو مايشاهده قاطنوها . والواجب أن يكون جميع ولاة التعليم فى مصر مجتمعين على أمر واحد ، يقتسمون بينهم ذلك التراث الإلهى ، قسمة فيها الحظ

والمصلحة للمقسوم ، أكثر مما يراعى فيها القاسم ، فيختص كل فريق منهم بتعليم الفرع الذى يحسنه ، ويتولى قسمه خاصة له ، لا يدخل عليه قسيمه ، فترتفع بذلك الفوضى التى تعم مصر اليوم ، إذ نرى المعاهد الثلاثة تعلم كلها علماً واحداً لطلبة متفرقين ، وكان أولى وأصلح لو تفرغ كل للقسم الذى ينظره حتى يخلص كل قائم لعمله ، فتكثر العلوم بكثرة الأقسام ، وتزيد الفائدة من تعدد أنواع العلوم ، ويأخذ التخصيص فى كل مكان منها حظه من التمكن حتى يثمر الثمرة التى جناها آباؤنا عزا وعلاء(١) ونجنى بدلها حيرة وترددا .

ثم يكون لمجلس هؤلاء الولاة النظر المشرف على سير العلم عامة وعلى إنتاجه النفع للمتعلمين وبالمتعلمين ، ومطالعة أهله بما يزوده ويكمله ، ويلائم به تطور الوقت وحاجة المجتمع ، ويحيط نظراً بالمناهج التى تخط وبالمعلومات التى تصح . وبالمقدار الذى ينبغى إفراغه منها فى أمخاخ الطلبة ، كل سن بالقدر الذى يطيق ، وكل فريق بالفن الذى يفيد ؛ حتى يكون مجمع الولاة هؤلاء هو منتدى التعليم ، وما يراه هو دستوره ، ونظره مطبق فى جميع

---

(١) من شواهد ما أقول فوق ما رويناه فى كتابنا ، ما جاء فى كتاب « الصيدنة فى الطب » لابى الريحان محمد البيرونى من حكماء القرن الرابع وهو كتاب خصصه للصيدنة وهى علم بحث الادوية وجمعها واختيار الاجود من أنواعها الخ . فانه يروى من عجائب علم الطب فى زمنه أن الاطباء عندهم بعد أن يستكملوا آلات الطب ويدرسوا فروعه كانوا يتخصصون فى جزء خاص من الفرع الواحد ، أى يدقون بالتخصص الى درجة بعيدة ويصرف الفرد منهم همته فى هذا الجزء بعد أن يكون محيطا بعموم الطب ، فيتخرج فى فنه ويتخصص بجزئه حتى كان عندهم أخصائيون فى الكحل ويسمى المتخصص فيه كحالا ، وفى الفصد ويسمى فصادا الخ قال (وكذلك يذكر فى كتب الهند أن فى طبقات أطبائهم طبقة يعرفون بالمداوين بالسموم) وقد ساق البيرونى قصة طبيب من هؤلاء عالج أحد أعيان أهل « كرديز » منى بعلة البواسير ولم يفلح فيه علاج ، فعالجه هذا المداوى بطريقته فانحسمت عنه ولم تعاوده الى آخر عمره وقد امتد طويلا .

الأنحاء : أنحاء العلوم والفنون والمعلمين والمتعلمين — إذاً بهذا يأمن البلد الشطط ، ويستقر التعليم فى قرار مكين ، ويضمن الإصلاح اطراده فى السير إلى نجعة الفائدة .

صرح العلم

٥٣٨ — أما الذى يجرى الآن فإنما هو محاولات يقوم بها بعض ذوى الهمم ، ونزعات ينزع إليها نفر من أرباب العزائم والفطن ، ولكنها تدور فى مدار القديم حول التصاليح والترقيع ، والفساد قد استشرى فى البيت كله ، بحيث أصبح لا يفيده تصاليح ولا يغنى به ترقيع .

والواجب على من قدر من مريدى الخير لمصر وما شاكلها ، أن يشيد صرح العلم على أساس واحد قوى يبعث فى النشء الساكنية روحا واحداً قوياً هو روح العمل من حيث هو عمل ، فإذا رفع فوق الأساس غرفا وحجرات وشرع له طنفا وشرفات ، فإن من يجيئها ليتعلم فيها علما خاصا لعمل خاص ، ينبغى أن يتخرج فيه بروحه الخاص غير تارك روحه الأول ، بل يجعله كالجذع لفرعه الثانى حتى إذا لم يغن الفرع بقى الأصل ، فالطبيب المتخرج فى ذلك الصرح إن لم يجد بعد إجازته من يعالجهم ، أو لم يسعفه ظرفه بالانتفاع بطبه فلا يوقعه حاله هذا فى ورطة ، بل ينبعث بروحه الأصيل إلى تطلب العمل فى جميع جهات العمل ، ليعيش وينفع وينتفع ، وهذه فضيلة العلم الحق ، يفتق الحياة وينير أمام طالبه كل وسيلة ، وهذه هى التربية الاستقلالية التى تجيش من الفرد جمعا ، وتقيم فى نفس الواحد أمة ، وتفتح أبواب الحياة كلها لقوى الحياة من أبنائها ، وشعب يتكون من مثل هذا الفرد ، يسود ويعز ، إذ هو يرتفع على كهول أفراده فيعلوا ، ولا يثقل بالعالة منهم فيهبط ، وهذه رسالة العلم فى

العالم ، إنه نور نزاع إلى العلاء ، شعاع بالضياء ، فكذلك من يمسسه يكنه ، نوراً يضيء ونجما يلمع ، أما ماعداه من حمم الطين ، فهو فحم لا علم ، هو وحامله وقود النار ، أو زبد السيل لا يلبث أن يذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال للناس .

والمثل عندنا طالب متخرج فى مدارسنا ، وهى كما قلنا إنما تعلم للتوظف ، أى أنها حددت النفع المطلق من العلم ، وهو غايته ، بهذا النفع الخاص ، فجعلت المتعلم المصرى نافعاً فى الوظيفة أو نافعا بالوظيفة ، وهى مع تأهيله لهذا النفع الخاص لم تزوده بمؤهلات النفع العام ، أى لم تودع فى نفسه الخميرة التى بمقتضاها إذ سد فى وجهه باب النفع الخاص ينتفع باستعداده وما أعد به فى أى عمل ومن أى جهة ، فهو لهذا إن لم يجد ما أعد له الإعداد الخاص ، تب وانكب ، وهوى وخار ، وهذه هى المصيبة العامة المنتشرة فى مصر ، جنتها من التعليم الفاسد الذى تضج منه ويريد المصلحون رفع فساده وتوجيهه للاصلاح ، ومثل هذا الطالب فى الواقع ، مثل من يروض نفسه على ركوب الدرجة الأولى ، فإن جاءه القطار يوما وليس به مركبتها ، أو لم يكن معه ثمن تذكرتها ، تقبضت نفسه وانحبست ، وترك القطار يفوته ، إذ ليس عنده الاستعداد لأصل الركوب وأن يكون تمييز الدرجات بعد الركوب خصوصية للراكب ، وإنما استعداده كله انحصر واقتصر على ركوب خاص في مركبة خاصة ، فمن أجل هذا فاته القطار والقطار هنا قطار الحياة يا أولى الألباب ! — أما مثل المتعلم الصحيح فى المدرسة الصحيحة ، فهأنذا أرويه عن التلغرافات الأخيرة فى

ترجمة الكولونيل لورنس ، والكولونيل لورنس ليس هو الوحيد فى تربيته وإنما هو ثمرة كبقية الثمار اللاتى جادت بها تربية القوم المتحضرين ونراها منتشرة فى بنيها ملء السمع والبصر ، نشرت التيمس للكبتن ليدج هاردر ، من أكبر النقاد الحربيين فى بريطانيا ، رسالة رثي فيها الكولونيل لورنس فنوه برحلاته الأولى فى مصر وبلدان الشرق الأدنى كسينا وفلسطين ، وخدمته بعد ذلك في إدارة مخابرات الجيش البريطانى وما أداه من الخدم لأمته ، وقال : حدث فى بعض رحلاته أن تخلف عن مواصلة السفر فلم يعجزه دلك ، وجمع فى أثناء تخلفه من المال ما مكنه من دفع أجرة السفر إلى انجلترا إذ قام بخدمات متنوعة كسوق الجمال ، والعمل فى الحصاد ونقل الفحم إلى البواخر ، فهذا الكولونيل راعي الجمال وناقل الفحم كان قد تلقى علومه فى جامعة « اكسفورد » ونال الدرجة الأولى فى التاريخ الحديث ، لما أعيق عن السفر بنفاد المال منه لم يقف مكتوفا يستدر علمه فى التاريخ ، أو يلعن جامعة اكسفورد التى خرجته ، ولكن استعان بالمدد المبثوث فى نفسه من تربيه العمل فأعانه حتى جمع ما دنعه فى تذكرة السفر ، وهكذا التربية الصحيحة اداة تفرج بها الكرب وتحل المشكلات ، بعكس التربية الفاسدة فانها تضيق الواسع وربما عقدت المحلولات(١) .

٥٣٩ — وأرى أن إصلاح التعليم فى مصر إنما يكون بضربه كله على سكة تشمل أبوابه وأقسامه وأنواعه ، بحيث يؤلف سفراً جامعا يكون دستوراً له يشمل الولد من سنه الأولى إلى سنه العالية ، تربية وتعليما وتنشيئا وتكوينا ، هذا العمل هو وحده أول واجب يعلق بعنق

---

(١) المقطم فى ١٩٣٥/٥/٢٠

كل ذى أمر ويجب عليه وجوبا عينيا ، وبهذا وحده تخط السكة السلطانية التى تصل بسالكها إلى سعادة الحياة ، فإذا تم هذا الدستور وجمع أحكام التربية والتعليم قام فى الأمة مقام المنار يهديها وتسترشد به ويعرف السائرون والمدلجون طريقهم على هدايته ، ويكون من التمكن فى النفوس والعلوق بالأرواح بحيث يعز على فرد واحد مهما أوتى من القوة أن يتعتعه أو يقلقله .

٥٤٠ — و « البرلمان » الذى ينشأ لهذا الدستور ليسير به ويسيره ، ويراعيه ويرعاه ، هو المجلس الذى قلنا عنه (نبذة ٥٣٧) وهو مجموع مجالس الأزهر ومجالس الجامعة ورجال الفن فى الوزارة ، فمن هؤلاء جميعاً يكون مجلس التعليم ، لا يبت بت فى التعليم إلا بقوله ، ولا يحاول ذو شأن محاولة فيه إلا بامضائه ، وهو المجلس الذى يتلقى أبناء الأمة أمانة عنده من ربهم ومن آبائهم ، يربيهم للخير وعلى الخير ، ويقومهم بالنفع وعلى النفع ، ويبنى منهم مستقبل البلاد أحسن بناء وأعز مستقبل . بهذا وحده ينال العلم دستوره وبرلمانه فيحيا بهما الحياة اللائقة بالعلم وبأهله وبطلبته ، ويحصل منه الخير الذى أراده الله من العلم وخلق العلم لأجله ، وبذلك يأمن الناس ألا يسطو مستبد . ولا تفشو فوضى ، ولا يعقم العلم هذا العقم الذى نراه فى مصر ، وبه يقطع دابر الفساد المنتشر .

٥٤١ — والخلاصة : (ا) أننا ننعى على العلم فى مصر أنه لم يؤد وظيفته على ما ينبغى ، فقد قصر بطلبته فلم يف لهم بالوعد الذى قصدوه من أجله ، ولا وسعتهم غايته التى سعوا فى تحصيله لبلوغها ، ومن قبل هذا شقق

الأمة فى منبتها ، ونفرع بالجيل من ومولده . فلا هو حصل السعادة للطالبين ، ولا هو أبقى الوحدة بين أبناء الأمة أجمعين .

(ب) وننعى عليه أنه ملأ نفوس الطلاب غروراً بقشوره ، ونقلهم من طبعهم الطيب الساذج ، إلى طبعه المتنمر المختلط ، وعلق بهم عاوق الجرب بالجلد وعلوق السل بالصدر ، لاهم يشفون من دائه فيعودوا إلى أصلهم ، ولا هو ينقلهم إلى بيئته فتطيب لهم ، وبقى بحامله فى منزلة « إنْ » المعلقة ، لاهى عاملة ، ولا هى قادرة على العمل ، وما هكذا يفعل العلم بالمتعلمين .

(ج) وجاء الأزهريين ، وهم طلبة الشرع ، بعلوم الفرع ، أناخت عليهم بكلكلها فثقلوا بها ، فلم يستوعبوها ، ولا تفرغوا لعلومهم ، فلم يرعوها ، وطلاب الجامعة ملأهم كلاماً ، وأوسعهم نظراً ، وسح عليهم من شآبيبه بما لا يفيد فى عمل الدنيا ، ولا خلا لهم وجه مصر حتى يفيدوا فى سوادها ، فهم نسخ من إخوانهم الأولين تكدست بالجميع مكتبة الوادى، والوادى صار يعوزه المصنع والمعمل، بعد أن غص بمجلدات المكتبة .

(د) وترى أثر هذا الذى يقال له علم ، وتنفق عليه الحكومة ملايين الجنيهات ، غير ما ينفقه الأهالى على الطلبة ، ترى أثره أسوأ الأثر فى نفوس حملته ، نفوس ملئت يأساً وسأماً ، ونفوس لم يعمرها الدين ولا صبغها الخلق ، ونفوس لم تخلق للعمل الحر ولا مرنت على حب العمل، فخرجت من هذا وهذا إلى حرية فى المظهر يبدو لك فى الشباب ، وهم على ما تقول إدارتهم « شباب العلم» . ولكن شباب العلم حليته فى الدرس

وتكميل النفس ، أما شبابنا فحليته فى الثوب فاخراً ، وفى اللسان متشدقاً ، وفى الفكر نافراً ، وفى الأمل طائراً ، يحسبون ما علموه نافعاً ، حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئاً ، ووجدوا الحق عنده فوفاهم حسابهم ، وهم حاسرون متحسرون .

(هـ) وزاد هذا الحال حتى كدنا ننكر أنفسنا إذا ما فتحنا مجلة من المجلات اللاتى تخصصت للكتابة فى المدارس ، سواء منها مدارس البنين أم مدارس البنات ، فمن يسع يخل ، ومن يتصفحها يخيل إليه أنها تكتب فى مجالس ومنتديات ومجامع عموميات ، وهى تصرح بأسماء الذكور وأسماء البنات ، وتروى عن هؤلاء الأغصان ما إن كان حقيقة لوجب أن تصفى إدارة التعليم فى مصر حسابها وتغلق أبوابها ، وإن كان كذباً واختلاقاً فاهمال الإدارة لها ، وترك هذه الفحشاء تشيع بين أبنائها إهمال أحق بالنقد ، وترك أولى بالتقريع والتأنيب .

(و) وننعى على التعليم فى مصر ، أنه لم يجعل التربية حكمته ، فالدين لا ريح له فى مدارسه ، والأخلاق إن ورد ذكرها ففى الكتاب رسمها ، أما فى الواقع وفى العمل فطلبة المدارس قد تركوا فى شأن دينهم ، وأهملوا فى تربية أخلاقهم ، والدين والخلق عمل وقدوة ، لا برنامج وكتاب . هذه الصلاة التى يؤمر بها الولد لسبع ويضرب عليها لعشر ، أين هى فى مدارسنا ؟ والعبادة إنما هى تعود وعادة ، وأعجب من هذا فى شهر الصيام يقدم الطعام لمن يحب من أبناء الإسلام ؟ ويقولون هى الحرية ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، فأمة لا دين لها ولا تربى على الدين ، لا بقاء لها ولا عز ولا سؤدد ، وعندنا مدارس الأمم الراقية تقرر الدين وترسمه

وتحمل طلبتها عليه ، وخريجوها لهذا أحسن وأفضل وأقــدر ، وأجول فى معترك الحياة وكسب سعادتها . فلا الدنيا حصلها علم اليوم ، ولا الآخرة ينيلها لطلبته ... ؟؟

(ز) هذا إلى ما نعينا من تفرق إداراته ، وطلب كل منها الاستقلال والانحياز — وضيق غايته وكثرة الوسائل المخرجة لطلاب هم أضعاف مايكفيها — وعجز خطته عن بث روح الحياة العملية فى نفوس مختطيها — وترك النظر فى الخطط والبرامج والمناهج لفرد واحد ، يقفها أو يقلبها ، ويعدلها أو يبدلها ، منه الأمر وإليه يصدر الأمر ويعود فى جيل بأكمله ، ومستقبل يشكله ، إن شاء للشقاء أو للسعود ، وشاهد الحال ما جرى فى السنين الأخيرة من محو وإثبات وتغيير وتبديل ، فى البرامج ، وفى الدروس ، وفى عدد السنين ، وفى مستوى الشهادات ، مما جعل المدارس وطلبتها حقولا للتجارب لا مغارس للفائدة ولا مجانى للثمر !؟

(ح) وانتقدنا عملهم الذى عمدوا نه إلى العلوم فجعلوا لها خلاخل ومناطق وأطواقا ، فتراهم يجيئون إلى طائفة من العلوم يعدون لكل علم منها خلخالا ، إذا استطاع الطالب أن يلبسه ساق العلم أعطوه شهادة يسمونها « الشهادة الابتدائية » فإن خنصره بنطاق أو قلد عنقه بطوق أجازوه بالشهادة الثانوية أو بالشهادة العالية . والإجازات لم تكن يوماً لأضغاث مختلسة من مغارسها ، إنما الإجازة فى العلم وضعت للعلم نفسه وتقسيمُ العلوم وضع من قديم للعلوم ذواتها ، لا لطاقات من فنونها ومدارس الفرنجة عندنا سارت على هذه السنة ، فهى تجرى بالعلم الواحد شوطاً واحداً ، وتدرسه للطالب فى طلق متسق ، ومن سيره طبعه فى علم منها ساروا به ، من

غير أن يعوقه تخلفه فى علم آخر عن نيل الأجازة فى العلم المضطلع به ، ووجه النقد فى طريقة التعليم عندنا ، أنها طريقة تضاد الفطرة الإنسانية ، فهى تكلف من لا يحسن الرياضة ويحسن العربية أن يحوزهما معاً ، فإن أبت فطرته الخلقية الانقياد للريضة وللسلس فيها ، أبوا عليه إحسانه فى العربية ومنعوه أن ينلطق فيما يحسنه(١) .

(ط) ومع أن الامتحان قد شجبه كثير من علماء التربية ، ومن أجازه منهم قال إنه ضرورة ملجئة ، ومع أن الضرورات بالإجماع إنما تقدر بقدرها ، مع هذا فعندنا قد ساروا فى هذه الضرورة على مادة الضرر ، فلا يهل الصيف من كل عام حتى كأن القيامة قد قامت ونفخ إسرافيل فى الصور ، فنصبت أسواقه بالمدائن والبنادر ، وحشد لها رجال المعارف حشداً يقطع هوله أنفاس كل داخل فيها ، ويزيد حذره ريب كل محشود ونصبت فيها الموازين مقلوبة ، فالصغير الذى يطلب الشهادة الابتدائية يمتحن فى علوم أربع سنين ، والحدث فوقه إذا طلب الكفاءة امتحن فى علوم ثلاث سنين ، والكبير الأشد منهما يمتحن لنيل « البكالوريا » فى علوم سنتين ! ! وهذا ترتيب مقلوب كمن يريد أن يقف القمع على قمته ؟ فإن العقل كلما اتسع حوزه صح أن يمتحن فى كثرة المحوز ، لا العكس ! وكذلك نرى إدارة التعليم تجلب بخيلها ورجلها فى أسواق هذه الشهادات

---

(١) يقول الشيخ السيوطى فى ترجمته لنفسه وقد ذكر ما حازه من العلوم والفنون ودرجات تحصيله فيها وأنه كملت بها آلات الاجتهاد عنده يقول : وأما علم الحساب فهو أعسر شىء على وأبعده عن ذهنى ، واذ نظرت فى مسألة تتعلق به فكأنى أحاول جبلا أنقله . أفترى هذا الشيخ وقد رزق التبحر فى خمسة عشر علما من الحديث الى التصريف الى الطب الخ لو تقدم لنيل شهادة عندنا فسقط فى امتحان الحساب ، ومثله كثير من فطاحل العلماء حملوا الجبال فى علوم وناءوا بحبات الرمال فى أخرى ، أفترى الادارة التعليم عندنا تسقطهم عندها وتبقى هى عالية !

الثلاث ، فإن امتحن التلميذ بعدها فى الأهم منها ، كفت يدها وتركته لمدرسته ، نعم فالنقل من السنة الأولى للسنة الثانية الثانوية أهم من امتحان السنة الرابعة الابتدائية ، ومن السنة الثالثة الثانوية أهم من امتحان الكفاءة ، وفى المدارس العليا أهم من البكالوريا ، ولكن أى هكذا خلقت — ثم تراكم العلوم فى حلبته على الطالب ركاما لا يسبق فى الخلاص منه إلا العقل الصناعى ، ولا يجوز به إلا (خالط اللبن بالسمك بالتمر الهندى) ، وفيه تضيق الحدود ويحجر واسعه ، ويوزن المرء بالدرجة ونصف الدرجة ، ويكون القول فى هذه الظروف المفتعلة ما قالت « حزام » لا نقض فيه ولا إبرام ، ولا عود ولا إعادة ! مما جعل النتيجة فى كل عام رسوب أكثر المتقدمين ، وتعويد هؤلاء الراسبين عادة الرسوب ، فيعاقون به عن التقدم ! والحياة كلها دفع وإقدام !

(ى) — وخلاصة الخلاصة فى نقدنا ونعينا ، ما صنعه التعليم فينا من قطع صلتنا بماضينا ، فأبناؤنا المتعلمون لا يتسلسلون من أجدادنا المتعلمين ، وإنما هم صنعة مبتدأة وخلقة جديدة ، إن مت فإلى الغرب ، أو نظرت فإلى أسلافها في علوم هذا التعليم ، والعلم المنتج إنما هو شجرة غرسها الأجداد وتعهدها الأحفاد فاستوت وأورقت وآتت أكلها فى كل طور بإذن ربها ، وأخذه الآخذون فانتفعوا منه بتجاربهم ، ونفعوها منها بما يلقحون ويسمدون ، فهو يمد ظلالها ويضرب بجذورها ، ويخرج لها شطأ يوازرها ويجعل لها وشيجة تنقل منها فسائلها ، ومغرساً يوشك أن يكون بعد حقبة حديقة يانعة . أما حال التعليم العصرى فعلى غير هذا ، بل حال من شأنه أن ينقل أبناءه إلى آبائه هو وأن يخرجهم من شرق

الأرض إلى مغربها غير ناظرين إلى تلك الكنوز التى خلفها آباء النسب لهم ولا منتفعين بما كان فيها من جواهرهم ، وقد جعلوا بينهم وبينها برزخا وحجزاً محجوراً ، وبهذه النقلة يخسرون تراثهم ، ولا يحصلون على ما عند القوم وقد سبقوهم بأجيال ، فإذا آن الأوان لأن يفهموا ، استعجموا ولات ساعة مندم . وأظهر ما ترى هذه الظاهرة فى طبقتى الأطباء ورجال القانون ، فأطباؤنا لا يعرفون أن العرب اشتغلوا بالطب ، وإن أتاهم نبأ اشتغالهم به جهلوا ما عرفوه وكيف اشتغلوا به فإن حدثتهم عنه لولوا وجوههم وزاغوا عنه . ورجال القانون غرقوا فى بحيرته المستحدثة من قرن أو قرنين ، فلا ينظرون البحار الزاخرة التى بحرها لهم الآباء من بضعة عشر قرناً ، وظل الأسلاف يوسعون فيها ، ويصفون من مائها ، ويبنون على شواطئها ، أو ينشئون فى جزائرها حتى لكأنها دنيا قائمة لا يعرفونها أو يسمعون بها ، فإن زلقت رجل أحدهم فنظر فرأى مثل ما يعلم أو أنبل مما يعلم وأحكم وأدق ، دهش ، ولا يأخذه الدهش إلى لومه على ما فرط فيها ، بل يملؤه بالعجب فيدهش كيف كان لآبائه عقول أدركت مثل ما يدرك ؟ وعرفت كما عرف أبناء هذه الحضارة المستحدثة ؟ وهذه أكبر جناية على قوميتنا جناها التعليم الحديث ، وبها افتلذت أمة بأسرها واقتلعت من تاريخها إلى حيث يشاء ناهجه ، على حين يبعث الله من أوربا من يستشرق فينقب فينشر مفتخراً على قومه بفخار قومنا وآيات ما بلغوا وأدركوا فى العلم والمدنية .

٥٤٢ — هذه نظرات عاجلة لمواطن النقد فى تعليمنا ومتعلمينا ، ونقر معها منصفين بأن فى مصر والحمد لله من تزهو بهم علما وتربية ، وبها افذاذ

بلغوا من السمو ما ضارعوا بهمن سما فى غيرها ، ولو آتاهم الله بالمدد لأتوها به ، ولكننا إنما تنعى على المجموع لاعلى الجميع ونكتب فى الطبقة من غير أن نجحد فضل الله جاد به على من شاء من أفرادها المخلصين ، وأكبر الظن أن فضلهم جاءهم من العهد الأول أو من ترتيبهم المنزلية ، وكما لم حصلوه مما زودوا به أنسهم خصوصية .

٥٤٣ — واقترحنا لهذا :

(ا) وضع دستور جامع ، يتلقى الولد من الصغر إلى الكبر ، وينقله فى أطوار حياته بين منازل العلم النافع ، صور العلم فيه كشجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، ذات أوراق وغصون ، وذات فروع وأفنان ، لكل فنن ثمره ، ولكل ورقة ظل ، ولكل فرع فيها فائدة ، فهى فى أصلها تعطى الظل والأكل ، وهى فى أفانينها تعطى الميزة والخصوصية ، وما بها قائم على أصل الفن ، ذاهب إلى غاية المنفعة — ويحوى هذا الدستور منهاج التعليم وبرنامجه محكم الوضع فى ترتيب أبوابه ، واتقان فصوله ، وإحاطته بكل مايحتاج إليه فى هذا الاعداد الحيوى ، بحيث يكون خميرة الحياة لبنى الحياة وغذاء الروح فيها ، وقوام النفس والجسد ، ولا يدع شاردة ولا واردة مما يفيد التعليم الصحيح وينتج التربية الحقة ، ويكون من الثبات فى النفوس ، والعلوق بأنواط القلوب ، بحيث لايقدر فرد مهما أوتى أن يتلعب به ، أو يمضى فيه استبداد رأيه ، إذ كان من العجب أن يوضع للقضاء لائحه نشرح إجراءاته وكتاب يحوى موضوعاته ، بحيث يعرف القضاة والمتقاضون مالهم وما عليهم ، ولا يغير من اللائحة بند ولا فى الكتاب موضوع إلا بجهد وإجماع رأى ، وكل هذا لخدمة العدل ومضاء القضاء به . ثم لا يصنع مثل هذا للعلم والتعليم وهو أبو العدل « ومنه وبأحكامه يسير .

(ب) ثم يكون لهذا الدستور منتدى يضم مجالس الأزهر والجامعة ورجال الفن فى المعارف ، جمعيـة بر وتعاون على الخـير والإفادة ، هم الذين يتولون أمر التعليم فى مصر بحكم هذا الدستور ، وهم الذين يرون فى الدستور رأيهم الصالح لصلاح البلد ، وهم وحـدهم الذين يتحدثون على التربية والتعليم ولا كلمة لغيرهم فيهما ، وكل من أراد بهما أمراً فإنه لا نفاذ له إلا برأيهم وبتصديقهم :

(ج) واقترحنا أن يوضع هذا الدستور على قاعدتى : الخلق والعمل ، وأن تنصب رايته على قمة النفع ، كأنه مثلث متساوى الزوايا ، رءوسه هذه العظائم — فإذا تم وضع هذا الدستور ، وقام بتنفيذه هذا المجلس ، إذاً فلتنتظر للأمة أن تنعم بنعمة العلم :

(د) ورأينا توحيد التعليم فى المرحلة الأولى منه ، وتعميمه ووضعه فى نفوس الجيل وضعاً صحيحاً ، يبث فيه حب العمل ، ويعده بعدة العمل معتصما بحبل الدين والخلق .

٥٤٤ — هذا ما رأينا أن نستدر به أخلاف العلم الصحيح والتربية الحقة ليكون ما يخرج منها غذاء للحياة ، ومدد البقاء فيها ، على أسعد حالاتها وأهنأ العيش بها ، وبه تحسم العلل الفاشية فى التعليم الحاضر ، الذاهبة بأبناء الجيل مذاهبهم التى عبناها ، وبها أخذنا على من قاموا بهذا الشأن فى مصر وما شاكلها من الأمصار .

٥٤٥ — وإنها لمقترحات مجملة يعيى هذا القلم بتفصيلها ، ويعوزه لشرحها العصبة أولو القوة ، فى مجال لا محل له اليوم من هذا الكتاب ، ثم أن تنفيذها يقتضى جهدا وبذلا ، ولكنه العلم ، وللعلم نحيا وبالعلم نفوز ؛ فكل ما صنع

له سهل فى جنب الفائدة منه ؛ وما بذل فيه رخيص فى ثمن جناه . قال الإمبراطور نابليون : إن الفوز الصحيح ، الفوز الحقيقى الذى لا تمل فيه للأسف ، هو الفوز على الجهل ،وإنها لكلمة حق أريد بها حق وتكادتكون الحق كله ، وقد صدقها صاحبها بفعاله، فهو الذى يروى عنه بعد أن انتصر فى معركة مارنغوا أنه جعل أول شروطه فى الصلح مع ملك «نابولى» إطلاق أسر العالم « دولوميه » الجيولوجى . وكان مقيما بمصر ، وفى عودته إلى فرنسا انكسرت سفينته فأسره ملك نابلى وسجنه .

نابليون هذا هو الذى سل من قلبه سخيمة الحقد وجعل محلها صفاء العلم حينما وضع جائزته السنوية لمن يكشف أنفع كشف فى الكهوباثيةالفلطائية وقد أعطاها للعالم الإنجليزى « دايفى » سنة ١٨٠٨ وقدرها ثلاثه آلاف فرنك ، لأنه كشف عنصرى الصوديوم والبوتاسيوم بالكهربائية ، وبذلك كسر حاجز مابينه وبين انجلترا من العداوة القائمة فى تلك الأيام . وكان نابليون بلغه أن « فولط » كشف العمود الكهربى المعروف «بالفلطاى» فأمر بعقد جلسة خاصة حضرها بنفسه ، وصنع للعالم المذكور وساماً من الذهب كتب عليه اسمه ، وجعله عضواً فى مجلس الشيوخ ، ووهبه لقب «كونت» ، وأعطاه مبلغاً طائلا من المال وسيفا رز به لإكرامه(١) . وهو نابليون رب السيف ورافعه حتى ليكاد يخرط به عنقود الثريا ، سطع فى يده شهـابا لمع فى آفاق السماء ، ثم لم يلبث أن صار رمادا فى معركة « واترلو » وحينذاك آوى إلى ركن شديد : ركن العلم الذى يبقى ويفنى ما عداه ، وقال كلمته الخالدة فى فضل القلم على السيف ، وتمجيد العلم وبيان قوته والاعتصام بعروته وأنها العروة المضمونة الباقية ، وكان قد وضع قانونه المشهور بقانون نابليون، قال وهو فى منفاه : « ليس

---

(١) مقطم ١٩/٥/١٩٣٥ .

مجدى وفخرى بانتصارى فى أربعين معركة ، فإن واترلو سوف تمحو ذكرى هذه الانتصارات . لكن الأثر الذى يبقى خالدا إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين هو قانونى المدنى »[1] .

٥٤٦ — وصنع هذا العاهل العظيم إنما هو نسج على منوال العظماء الذين سبقوه من رءوس العالم وحملة أثقاله ، فهم جاهدوا فى سبيل العلم وأدوا له من الخدمات ما يكاد يعرق القربة حتى نالوا الإربة . وأمامى تاريخ العلم الإسلامى لاتكاد تقلب صفحة من صحائفه حتى تطرف عينك عظيمة من عظائم الأجداد ، وتخال صحائفه مشاهد لمعامع تقوم فيها ناشبة بين الجهل والعلم ، ورجال العلم فيها شاكسوا السلاح باذلوا النفس والنفيس فى الانتصار على هذا العدو ، وقد انقسم معسكرهم إلى جناحين اتفقا على مهاجمته : جناح الأمراء وجناح العلماء .

٥٤٧ — ولقد لفت نظرى فى متابعة هذا التاريخ ظاهرة تلاحقه ولا تفارقه بدت فى هذين الجناحين بداء يلمسه القارىء ويتراءى للساهى فيسلمه ظاهرها ويبن له خافيها ، رأيت فى أكثر ما قرأته من تراجم العلماء أن أكثر ما تركوه من آثارهم العلمية وما قاموا به لخدمة العلم إنما صدر منهم فى أوقات شدتهم وعلى حين كانوا مبتلين فى أنفسهم بمصائب هذه الدنيا ، وقد مر بك فى هذا الكتاب مالاقاه العلماء من شظف العيش ، وما اهتصرته أنت من من شظفهم ذاك جنى يانعاً وثماراً ناضجة أبقوها للعالم غذاء لروحه ولجسده وقوة يعدو بها فى حياته ليستكمل بها أسباب الخير والسعادة . ففى « نبذة ٣٧٧ » أن « السرخسى » أملى كتابه المبسوط وهو فى قاع السجن وتلميذوه يحضرون ويسمعونه ، ومثله كثير جداً ، واقرأ

---

(١) كتاب قضاء المحاكم فى مسائل الاوقاف

إن شئت ترجم ابن سينا ، وابن رشد، وابن تيمية ، وابن القيم ؛ فقد كتبوا كثيراً مما كتبوا وهم فى السجون محبوسون ، فرسالة « حى بن يقظان » الشهيرة لابن سينا هى هى فيض من قلعة « فردجان » وكان قد حبس فيها كاتبها ، وبها ألف كتاب « القولنج » وكتاب « الهداية » أيضاً ، وكتابه « الشفاء » المشهور ألفه وهو متنقل فى البلاد . فإذا كان متواريا فى دار بهمذان كتب قسما منه ، ثم اشتغل بقسم آخر فى إصفهان ، وأتمه فى سنة أخرى أثناء طريقه إلى « سابور خوست » « ٢٧٤ ابن القفطى » وهكذا من أمثال هذه الأخبار ما يكاد يكون ظاهرة عامة فى العلماء والمؤلفين . أما ظاهرة الملوك معهم فهى ظاهرة تشرف الحكومة الإسلامية وتدل على مبلغ الروح القوى الذى تقمصته فبعثها إلى سوق العلم وإلى حداثه ، فأمراء الإسلام فوق ما بذلوه فى العلم وللعلماء مما لا تتسع له مجلدات ، كانوا إذا اختلفوا مع عالم لم يقعوا فى عقوبة خلافه على علمه ، بل يقصرونها على هيكل الجسد مع بقاء العلم حراً طليقاً بل مع تسهيل سبل انتشاره وألا تقف العقوبة الجسدية حائلا دونه . وإنه لمن الطبيعى أن يقع الخلاف بين الأمراء والعلماء ، ومن الطبيعى أيضاً أن يعمل الأمراء للمحافظة على ملكهم بصد مخالفيهم وحبسهم ولكنها طبيعة الكرم وفقوا بمقتضاها بين محافظتهم على أنفسهم وبين إكرامهم للعلم وإطلاقهم الحرية له ، فالعلماء الذين حبسوهم كانوا يدعونهم يؤلفون ويكتبون لا يحولون بينهم وبين طلاب العلم أنى شاءوا ، حتى روى أن أحمد بن طولون لما اختلف مع قاضيه بكار بن قتيبة على مسألة سياسة تتعلق بشأن ولاية العهد فى الخلافة وأراد حبسه ، استأجر له داراً حبسه فيها ، وكان فيها طاق يجلس يتحدث فيها ويكتب عنه وهو فى

السجن . قال فى كتاب رفع الأصر « ص ٥١٤ » : : « لما طال حبس بكار ، طلب أصحاب الحديث إلى ابن طولون أن يأذن فى السماع منه ، فأذن لهم فكانوا يحضرون ويحدثهم الخ — مما يدل على أن الجهود التى بذلتها الحكومات والعلماء فى خدمة العلم حتى وصلنا منه ما وصلنا ، تنادى بضآلة ما نراه فى عصرنا هذا الحاضر فى مصر ، فلا ريب كان ما ندعو إليه واجباً ليس بالكثير ولا هو فوق الطاقة ، بل يكاد لا يعد شيئاً مذكوراً إذا قيس بجهود الأولين ، أو بجهود الأمم الراقية حوالينا حتى بلغت ما بلغت مما هو نتيجة حتمية لاستثمار العلم وخدمته .

٥٤٨ — وأظهر من هذا ما بدا فى روح الإسلام عامة ، أن سما بوصف العلم على الفروق والميزات ، فإذ يذكر العلم ، لا نرى إلا وصف العالم ، وما عداه من مميزات فنسى منسى ، فالعلماء تسرد أسماؤهم وتذكر مجالسهم وتكتب تواريخهم ويحضرون ويغيبون ويتنقلون ويسمعون ويسمع عنهم ، وميزانهم فى هذه الأحوال كلها إنما هو ميزان العلم ، به يوفون حقوقهم ، وبه ينالون درجاتهم ، لا فرق بين مسلم وغيره ، بل لا فرق بين حر ورقيق ، وهذه ظاهرة يشرق بها تاريخ العلم الإسلامى إشراقاً لامعاً يطوى فى ضوئه كل ضوء آخر ، وبها استنار الإسلام وزخرت مكاتبه ، وضخمت علومه . وخلف تراثاً ليس كمثاله عند أمة من الأمم ، وكفى بهذه الظاهرة أعظم قربان قدمه المسلمون لرب العلم .

٥٤٩ — ولا يغتر القارىء بالقشور اللامعة فى هذا الوقت ، فقد وقفناه على حقيقتها ، ويكاد الوادى لا يخرج بها من الشبر الأول من أشبار الشعبى وقد سقنا كلمته « فى نبذة ٤٩٦ » . وهو الشبر الذى لا تريش فيه الأمة

ولا تبرى ، بل إنه ليخيل إلى رغم هذه البوارق أن مصر التى بدأت تجدد نهضتها العلمية من زمن « محمد على » قد رجعت فيها القهقرى ، أو على الأقل لم تواصل تلك البداءة الحسنة بما يزيدها حسناً وإجادة ، فأمامى سفر ضخم وضعه العالم الجليل الأمير عمر طوسون فى « البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد » أثبت فيه أسماء الأقمار الذين بعثهم هؤلاء الولاة الثلاثة إلى أوروبا ليتعلموا فيها ، وكانوا قد أوتوا من العلم هنا ما ازدادوا به هناك علماً ومعرفة ، فلما علموا عادوا فانتشروا فى البلاد أقماراً وشموساً بزغوا فى سمائها فأضاءوها ، ثم طواهم الردى فبقيت مطالعهم خالية لم يخلفوا فيها ، وكان الظن باطراد النهضة أن يزيد الخلف عن السلف ، وأن يتكشف أديم السماء فى كل صبح ومساء عن شمس جديدة وقمر جديد ، والأمل فى الحق قوى أن يصحح الظنون ، وأن تضطلع مصر بأعباء العلم والتعليم اضطلاعا يصحح لها دعوي زعامتها على الشرق ، وقيادتها لبنيه بالبرهان والدليل .

٥٥٠ — وكذلك أنا لا أنكر على الجوامع والجامعات ملابس طلبتها واستاذيها ، ولا أذم تخصص العلماء بما يعرفون به أو ينفردون ، ولكنى أكره ما يتعلق به بعض ذوي الظاهر بالمظاهر ، وجنوح بعض النفوس إلى وضعه فى مكان التقديس ، فإن هذه الشارات والإشارات إن هى إلا علامة إن لم يكن لها مدلول فرغت وإشارة مهما جلت فلا تصل إلى رتبة المشار إليه ، والمعول فى الحقيقة عليه وهو القصد الأجل ، وأمامى وأنا أكتب هذا ، مشهد تاريخى قام بأرض القادسية فى بدء الإسلام يوم التقى الفرس والعرب ، فخرج الأولون على العرب ، بزينتهم ، وطلع العرب لهم بميزتهم ،

فكانت الغلبة للنفوس على الطقوس ، وتم الظفر للحق الواقع بالزيف المبهرج .

٥٥١ — ومن أظرف رويته ما في الاغترار بالثوب يخطىء الدلالة على لابسه ما حكاه الأصمعى قال : كان الفرزدق الشاعر و « أبو شفقل » راويته فى المسجد ، فدخلت امرأة فسألت عن مسألة وتوسمت فرأت هيئة أبى شفقل فسألته عن مسألتها ، فقال الفرزذق :

أبو شفقل شيخ عن الحق جائر ببباب الهدى والرشد غير بصير

فقالت المرأة : سبحان الله، تقول هذا لمثل هذا الشيخ؟ فقال أبوشفقل: دعيه فهو أعلم بى(١) .

٥٥٢ — ونروى قصة داود الظاهرى إمام أهل الظاهر الذى قيل إنه كان يحضر مجلسه كل يوم أربعمائة صاحب طيلسان أخضر ، قال داود : حضر مجلسى يوما أبو يعقوب الشريطى وكان من أهل البصرة وعليه خرقتان ، فتصدر لنفسه من غير أن يرفعه أحد ، وجلس إلى جانبى ، وقال لى سل يا فتى عما بدا لك ، فكأنى غضبت منه ، فقلت له مستهزئاً أسألك عن الحجامة ، فبرك أبو يعقوب ، ثم روى طريق « أفطر الحاجم والمحجوم » ومن أرسله ، ومن أسنده ، ومن وقفه ، ومن ذهب إليه من الفقهاء ، وروي اختلاف طريق « احتجام رسول الله صلى الله عليه وسلم واعطاء الحجام أجره ، ولو كان حراما لم يعطه » ثم روى طرق « أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بقرن » وذكر أحاديث صحيحة فى الحجامة ثم ذكر الأحاديث المتوسطة مثل « ما مررت بملأ من الملائكة » ومثل « شفاء أمتى فى ثلاث » وما أشبه ذلك ، وذكر الأحاديث الضعيفة مثل

---

(١) ص ٣٦ ج ١٩ أغانى

قوله عليه السلام (لا تحتجموا يوم كذا ولا ساعة كذا) ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطب من الحجامة في كل زمان وما ذكروه فيها ، ثم ختم كلامه بأن قال : وأول ما حرجت الحجامة من إصبهان ، فقلت له : والله لا حقرت بعدك أحداً أبداً[1] .

والظاهر أن أبا يعقوب هذا هو « الشهيدى » قد عاصر داود ، وهو اسحاق بن ابراهيم بن حبيب الشهيدى كان من البصرة وتوفي سنة ٢٥٧ ووفاة داود سنة ٢٧٠ ، ولعل القاريء لحظ لذعة « الشهيدى » لداود فى كلمته الأخيرة : أول ما خرجت الحجامة من إصبهان ، فإن داود أصله من إصبهان ، والظاهر أن هذه اللذعة أثرت في نفس داود وقد استحقها باستهتاره ، فآلى ألا يحقر أحداً بعده ، وألا يكون الثوب عنده عنوان لابسه .

٥٥٣ — فالحاصل أن القصد من هذا كله إنما هو الاخلاص والعمل للوصول اليه والتحلى به والحصول على جوهره ، والاخلاص خلق وفى ، عطوف على مريده ، مرشد أمين لا يفارق طالبه حتي يهديه ، فهو ماثل أمامه فى كل عمل يعمله ، منصوب الراية واضح النهج ، يقرئه ويبين له ، ويسأله ويجيب عنه ، حتي ما ترى مخاصاً إلا كأنه مجموعة أحاسيس نافرة متحسسة فى كل صغيرة وكبيرة عن خلاصها من تبعة عملها لتخرج منها نقية صافية صفاء جوهر الاخلاص ، وإنه لأكسير الحياة ونور الوجود وقوت القلوب ، حتي فى الخير ليسأل المخلص لماذا لم أزد ؟ بل لماذا لم آت بالأفضل مما عملت ؟ بل قد يشككك فى الخير هل ينتج له الخير ؟ وهذا منتهي الغاية فى حب الاخلاص ، والحب إذا اشتد وصدق تسرب الظن

(١) ص ٢٢٠ ك

في الحبيب ألا يكون بلغ غاية المطلوب للحبيب ، روى عن الحسن مرسلا : ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ، ما أردت بها ؟ فكان مالك بن دينار إذا حدث بهذا بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عيني تقر بكلامي عليكم وأنا أعلم أن الله سائلي عنه يوم القيامة ، يقول ما أردت به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبي ، لو لم أعلم أنه أحب اليك لم أقرأ عل اثنين أبداً (١) . فهذا مالك بن دينار يبكي من عمل الخير ولا يقدم على إخلاصه إلا قلبه وشهادة ربه عليه ، والله خير شاهداً وهو أرحم الراحمين .

٥٥٤ — ولهذا ورد فى بعض الآثار منسوبا للنبي صلى الله عليه وسلم شهادة فى أبي بكر رضى الله عنه قال : « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر فى صدره » وقد كرر الغزالى الكلام فى هذا الأثر مرتين فى كتابه الإحياء (ج ١ ص ٢١ وص ٨٨) وقال : فليكن حرصك فى طلب ذلك السر ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كلهم علماء بالله أثنى عليهم رسول الله ولم يكن منهم أحد يحسن صنعة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد الا بضعة عشر رجلا ... ولما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى ، قال الغزالى أفترى أنه أراد صنعه الكلام والجدل ؟ فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذى مات

(١) ص ٢٧٨ ج ٣ الزواجر .

بموت عمر تسعة أعشاره وهو الذى سد باب الكلام والجدل وضرب « صبيغاً » بالدرة لما أورد عليه سؤالا فى تعارض آيتين فى كتاب الله وهجره وأمره الناس بهجره ... الخ .

٥٥٥ — وهذه الرتبة التى يبلغها العالم العامل المخلص وصفها « ابن القيم » وقد أظهرها فى أحد أبنائها وأعجبنى إحكامه فيها فأنا أنقله من كتاب أعلام الموقعين « ص ٣٠ ج » قال : أبو عبيد القاسم بن سلام : كان جبلا نفخ فيه الروح علما وجلالة ونبلا وأدبا ، وإنها لآثار كريمة تلتئم مع كرم المصدر ، وكذلك الاخلاص ، أثر ومؤثر والمخلص بينهما كريم الجوهر . ويظهر أن وصف القاسم بهذا الوصف قد سبق ابن القيم فيه ، أوتواطأ فى المعنى عليه فكذلك قال فيه الحافظ أبو بكر فى تاريخ بغداد : كان أبو عبيد كأنه جبل نفخ فيه الروح ، يتكلم فى كل صنف من العلم . ونريد أن نجلى هذا الجبل الروحانى مثلا للقارىء من أمثلة العالم العامل تتلمس به فى بلوغ العلم لصاحبه ، وهو عالم من غمار علماء الإسلام عرضته المصادفة لنا لنعرضه على قارئنا عرضا موجزاً وفيه كل بلاغة عن بيان ما يبلغ العلم بصاحبه ، فهو من رجال القرن الثالث توفى سنة ٢٢٤ عن سبع ستين سنة ، كان أبوه عبداً رومياً لرجل من أهل هراة يتولى قبيلة الأزد ، علم وعمل فكان معلماً ببغداد يؤدب الغلمان ، ثم اتصل بثابت بن نصر الخزاعى يؤدب له ولده ، فلما ولى ثابت « طرسوس » ولى القاسم قضاءها فبقيا بها ثمانية عشر عاما ، وكان طاهر بن الحسين نزل بمرو ، وهو ماض إلى خراسان فطلب رجلا يحدثه ، فقيل ماههنا إلا رجل مؤدب ، فأدخل عليه القاسم ابن سلام ، فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقة ، فقال

له : من المظالم تركك أنت بهذا البلد ، ودفع إليه ألف دينار وقال أنا متوجه إلى خراسان فى حرب ولست أحب استصحابك شفقة عليك ، فأنفق هذا حتى أعود ، فألف أبو عبيد كتابه « غريب الحديث » إلى أن عاد طاهر فحمله إلى « سرمن رأي » ومن ذلك الوقت ظل متصلا بآل طاهر بن الحسين .

هذا العالم ابن العبد الرومى مولى الأزديين بلغ به علمه أن كان أحد ثلاثة يقول فيهم إبراهيم الحربى : أدركت ثلاثة لن يرى مثلهم أبداً تعجز النساء أن يلدن مثلهم ، رأيت أبا عبيد القاسم بن سلام ما مثلته إلا بجبل نفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحارث فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلا ، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين من كل صنف يقول ما شاء ويمسك ما شاء . ويقول الهلال بن العلاء الرقي من الله على هذه الأمة بأربعة فى زمانهم ، بالشافعى تفقه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأحمد بن حنبل ثبت فى المحنة لولا ذلك كفر الناس . وبيحيى بن معين نفى الكذب عن حديث رسول الله ، وبأبى عبيد القاسم ابن سلام فسر الغريب من حديث رسول الله لولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ ، وقال ابن الأنبارى : كان أبو عبيدة يقسم الليل أثلاثا فيصلى ثلثه وينام ثلثه ويضع الكتب ثلثه ، وكتابه هذا «كتاب غريب الحديث» ظل فى تصنيفه أربعين سنة ويقول : ربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأضعها فى موضعها من الكتاب فأبيت ساهراً فرحا مني بتلك الفائدة . ثم يعقب القول فى هذا الجهاد بانتقاد من يريد أن يطير بالعلم أو يطير به العلم فيقول : وأحدكم يجيئنى فيقيم عندى أربعة أشهر أو خمسة أشهر ويقول قد أقمت الكثير . وهو كتاب شهر بأنه أول ما عمل فى هذ الفن « تفسير

غريب الحديث وشرح كلماته » ومع أنه قد سبق فى هذا ، إلا أنه جمع روايات من سبقوه فى كتابه ، وبوبه أبوابا فأحسن تأليفه ، ولما عرضه على عبد الله بن طاهر استحسنه ، وقال : إن عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يحوج إلى طلب المعاش ، وأجرى له فى كل شهر راتباً جيداً ، وقد اعتز القاسم بهذا الكتاب عزة العلم ، وبقي به فى بغداد مكرما . قيل إن طاهر بن عبد الله طمع فى سماعه من صاحبه ، وطمع أن يجيئه به فى منزله ، فأبى القاسم حتى كان هذا يجيئه ، بينما هو يحمله إلى العالمين على ابن المدينى ، وعباس العنبرى وكانا قد قدما بغداد وأرادا أن يسمعاه فكان يجيئهما به كل يوم إلى منزلهما فيحدثهما فيه . ومما يدل على عظمة هذا الرجل ما حدث به الفسطاطى قال : كان أبو عبيد مع ابن طاهر ، فوجه إليه « أبو دلف » يستهديه أبا عبيد مدة شهرين ، فأنفذ أبا عبيد إليه فأقام شهرين ، فلما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم ، فلم يقبلها وقال : أنا فى جنبة رجل ما يحوجني إلى صلة غيره ، ولا آخذ ما فيه على نقص ، فلما عاد إلى طاهر وصله بثلاثين ألف دينـــار بدل ما وصله أبو دلف . فقال له : أيها الأمير قد قبلتها ولكن قد أغنيتنى بمعروفك وبرك وكفايتك عنها ، وقد رأيت أن أشترى بها سلاحاً وخيلا ، وأتوجه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوفراً على الأمير ففعل » ومع إقبال الناس على كتاب القاسم ، وتمنى العلماء سماعه وأخذه عن صاحبه حتى قعد المأمون لقراءته عليه ، ومع توارد الشهادات لهذا العالم ، حتى ليقول الحنظلى فيه : أبو عبيد أوسعنا علماً ، وأكثرنا أدباً ، وأجمعنا جمعاً ، إنا نحتاج إلى أبى عبيد وأبو عبيد لا يحتاج إلينا ، مع هذا فإن القاسم وقد انصرف من الصلاة فر

بدار إسحاق الموصلي ، فقالوا له : يا أبا عبيد ، صاحب هذه الدار يقول : إن في كتابك غريب المصنف ألف حرف خطأ ، فقال أبو عبيد : كتاب فيه أكثر من مائة ألف يقع فيه ألف ليس بكثير ، ولعل إسحاق عنده رواية وعندنا رواية فلم يعلم فخطأنا والروايتان صواب ، ولعله أخطأنا في حروف فيبقى الخطأ شيئاً يسيراً . أقول إذا رجع القارىء إلى (نبذة ٣٩٠) عرف من هو إسحاق الموصلي ورسوخ قدمه في هذا العلم ، وعرف لهذا أدب العلماء في ترادهم ، وفي لطف تخلص القاسم بن سلام وأدبه وتوقيره لغيره مع التسليم للحق وقصد الحق . فهذا القاسم مثل من مصاديق قول الحق « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقد صدق لهذ العالم إخلاصه ، فإنه لما قضى حجه وعزم على الانصراف إلى العراق رأي في منامه ما يدل على الرغبة النبوية في بقائه بدار بعثته ، فلما أصبح ثنى عزمه وبقى بمكة حتى مات . وفي هذه السيرة المختصرة مثل من تحقيق أمانينا في الاستجابة إلى دعواة العلم ، فقد مثلها هذا العالم مزيجاً قائماً من عناصر هذه الدعوة إلى مزج العلم يالعمل بالخلق ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

٥٥٦ — وهذه المرتبة إنما يبلغها بالغها بالعلم النافع والعمل الصالح — وقد مر عليك في فاتحة الكتاب كثير مما يفيد ويستشهد به لهذا الباب ، كما يقول أبو الدرداء : مثل العلماء في الناس كمثل النجوم في السماء يهتدي بها ، فقد يهتدي بنور النجم والنجم في جرمه فحم ، ولذلك روى الطبراني عنه صلى الله عليه وسلم : « إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار ، فيقولون بماذا دخلتم النار فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما

تعلمنا منكم ؟ فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل » وفى حديث آخر رواه الطبرانى بسند حسن ، فى تشبيه هذا العالم الذى يقول ولا يفعل. قال صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يعلم الخير وينسى نفسه كمثل السراج ، ورواية البزاز أوضح ! مثل الفتيلة يضىء للناس ويحرق نفسه » .

٥٥٧ — وأسفل من هذا دركا فى نار جهنم ، العالم الذى يفعل ضد ما يقول ، وهو الذى خاف منه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الطبرانى والبزاز برجال محتج بهم فى الصحيح ، إذ يقول عليه السلام : « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللسان » وفى أخرى أنه عليه السلام لم يتخوف على أمته مثل خوفه منه في قوله : « إنى لا أتخوف على أمتى مؤمناً ولا مشركاً ، أما المؤمن فيحزه إيمانه وأما المشرك فيعمه كفرة ، ولكن أتخوف عليهم منافقاً عالم اللسان يقول ماتعرفون ويعمل ما تنكرون » .

٥٥٨ — وفى هذا العالم الفاجر ، ورد حديث الصحيحين عن أسامة ابن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتي بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه « تخرج أمعاؤه » فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه » .

وفى رواية لمسلم عن أسامة أيضاً يقول ، وإنى سمعته يعنى النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « مررة ليلة أسرى بى بأقوام نقرض شفاههم بمقاريض من

نار ، قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال خطباء أمتك الذين يقولون مالا يفعلون» وفي رواية ابن أبي الدنيا والبيهقي وابن حبان فى صحيحه واللفظ له ، قال : « خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » وزاد ابن أبي الدنيا فى رواية « كلما قرضت عادت » وفي أخرى للبيهقي « ويقرءون كتاب الله ولا يعملون به »(١).

٥٥٩ — فالعامل العالم كما رأيت ينفع نفسه وينفع الناس ، والذى يعلم ولا يعمل قد ينفع الناس ولا ينفع نفسه ، والعالم الفاجر شر الشرور ، ومنبع الآثام ، وبقي من تمام التقسيم العامل الجاهل ، وهذا قد استعاذ منه سفيان الثورى فى استعاذته من العالم الفاجر حيث يقول : نعوذ بالله من فتنة العابد الجاهل وفتنة العالم الفاجر فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

٥٦٠ — ومن أشبه الأمثال لهؤلاء ما نقله القرطبي فى مقدمة تفسيره قال : وروى مسلم عن أبي موسي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لايقرأ القرآن الكريم كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر » . وفى رواية : مثل الفاجر بدل المنافق .

٥٦١ — فالعالم محور العالم ، إذ العلم الذى به الخير قد يدار سكانه للشر . هذا الطب للبقاء ربما استعمل للفناء ؛ والفقه موضوع السعادة الآخرة قد تأكل الدنيا به سحتا ويؤجج بطن الفقيه ناراً ؛ والفلك والتنجيم وبقية العلوم كلها إن لم يحذر صاحبها هلك وأهلك ؛ ومما يروى عجبا فى

(١) ص ١٧٨ ج ٤ ابن حجر فى الزواجر

هذا الباب — وإن كان بوضعه لاعجب فيه — أن صاحب جائزة السلام فى هذه الأيام هو نوبل الأسوجى مخترع المفرقعـات اللاتى تخرق الركام وتمزق الأجسام إلخ إلخ — مما يطلب فيه عون القادر على كل شىء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥٦٢ — نقل الجاحظ : قيل يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ، ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله، وقيل له، أى الأصحاب أفضل ؟ فقال : الذى إذا ذكرت أعانك ، وإذا نسيت ذكرك . وقيل له، أى الناس شر ؟ قال العلماء إذا فسدوا(١) .

٥٦٣ — وفى ترجمة أبي حنيفة أنه رأى غلاما يستحم فى النهر فقال له: احذر يا غلام أن تسقط فقال له : احذر أنت أيها الإمام فإن فى سقطة العالِم سقوط العالَم .

(١) ص ١٦ جـ ١ البيان والتبيين .

الخاتمـــة

قال القاضي محمد بن سليمان : جمعتُ هذه النقول وأنا بدمياط لمعنى يجيش فى نفسى وأتصوره وأريد أهل العلم عليه ، ثم رأيت أقضى القضاة أبا الحسن الماوردى قد سبقنى إلى هذا الإحساس ، وزاد فأظهره شعراً ، وأجراه مثلا ، وكتبه على صفحة الدهر لأهل الذكر ، وصدق ، فنقله عن زميل ماجد سبق الناس فى الإحساس ، والكل يسقى بماء واحد .

قال رحمه الله فى كتابه «أدب الدنيا والدين»(١) : وأنشدنى بعض أهل الأدب لعلى بن عبد العزيز القاضى رحمه الله :

يقولون لى ، فيك انقباض، وإنما رأوا رجلا ، عن موقف الذل أحجما
أرى الناس ، من دارهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس ، أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان ، كلما بدا طمع صيرتُه لىَ سلما
وما كل برق لاح لى ، يستفزنى ولا كل من لاقيت ، أرضاه منعما
إذا قيل ، هذا منهل ، قلت، قدأرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
إنهها عن بعض مالا يشينها مخافة أقوال العدا ، فيم أو لما ؟
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيتُ ، لكن لأخدما
أأشقى به غرسا ، وأجنيه ذلة ؟ إذاً فاتباع الجهل ، قدكان أحزما
فإن قلت ، زند العلم كابٍ ، فإنما كبا ، حين لم نحرس حماه وأظلما
ولو أن أهل العلم صانوه ، صانهم ولو عظموه فى النفوس ، لعظما
ولكن أهانوه ، فهان ، ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

---

(١) ص ٥٠ .

مسك الختام

وقبل أن ندع القلم إلى راحته ، نضع بين يدى القارىء جونة من معاطر البخارى يتضوع الكتاب منها مسكا ، ويطيب القارىء بها نفسا ، ويسرى بشذا الأمل إلى قلوب المؤمنين - والإمام البخارى كما يقولون، علمه فى تراجمه ، قال رحمه الله فى صحيحه من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب : قول النبى صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسماعيل عن قيس عن المغيرة بن شعبة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون ، حدثنا إسماعيل حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب أخبرنى حميد قال سمعت معاوية بن أبى سفيان يخطب قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم ويعطى الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة ، أو حتى يأتى أمر الله .

(اه - وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

ساقة الكتاب

الخلق والعلم والعمل هذه العناصر الثلاثة هى قوام الخير وملاك السعادة الخلق الأب ، والعمل الابن ، والعلم الروح ، والعلم إن لم يتردد بينهما فالجهل خير منه ، فإن هو فارقهما فلا شر يعدله ، وقد يكون الخلق بلا علم ولكنه خلق عشرَم ، والعلم لابد له من قائم به ، فسعادة الحياة هى أن يتقمصه من ينفع به فيها ، وشقاؤها أن يلابس من لاينفعها ، ويؤذيها أما العمل فإمامه العلم ولا هادى له إلا هو ، به يظهر وبه يسعى ، فإن لابسه الخلق كان عملا كاملا ، وكان عملا مثمرا . وكتابنا هذا صفحة من صحائف العلم واكباً بركنيه ، ظاهرا بخيريه ، أطلعتُ فى طروسه كواكب من أهل العلم أشرفوا بنور العلم ، فهم ذوو خلق وهم أصحاب عمل "وأطلعته لبنى العصر أرائيهم بأسلافهم ، كانوا أولى قوة أوتوها من مدد العلم النافع . فبسطوا بها سلطانهم على الدنيا بسطة إسعاد وعلاء ، وبسطة مادة وأدب ، وقصدت فى هذا العصر المدلهم بقطع من فتن الحضارة الحديثة ، وظلم من ركام المادة الصالدة ، وانقطاع عن متصل التاريخ الإسلامى وعن إشراق الروح العربى قصدت أن أرى السادرين الصادين مطالع الفجر الصادق فى هذه الحياة ، والشمس المشرقة بالجانب الشرقى منها ، لعلهم أن يعودوا فيهتدوا بهدى الحق عوداً على بدء ووصلا لما انقطع من تاريخ تسلسل من نبع النبوة ووشيجة العلم أخذه السلف بقوة فتلقته الأجيال طبقة عن طبقة يتزودون به ويزيدون فيه ، ويعملون به ويعملون له ، ويجهدون ويجاهدون فى سبيله ، حتى اشمخر بنيانه فطاولت أعاليه متن السماء ، ورست قواعده على مركز الغبراء ،

وأصبح بنيانه صرحا يؤوي من آوى إليه ، ويهدى من اهتدي به ويجير من استجاره ، ومن دخله كان آمنا .

يتناول القارىء كتابي هذا من مكان قريب ، تناول الطاقة من يد الحبيب نضد زهرها ، وعبق ريحها ، وجاءته على شوق لها وحاجة منه إليها ، فهو فى التذاذه بمرآها وانتشائه بشذاها قد ينسي فضل زارعها وقاطفها ومنضدها ، فأود من صاحبي أن أذكره بصنعي وعنائى ، وبجهدى وبلائى فى تقدمة كتاب له خالصاً مخلصاً ، وهو يراه مرتبا منتقى صحيحا مهذبا ، فلا ينسى من يذكره ذكرى الفن لا ذكرى المن — نشأت شغفا بالقراءة لهجا بفنون من العلم ، فسلخت صدرى عمرى فى امتاع نفسى وإشباع نهمها ، فلما استوت سنى رأيت أنى أقع على كنوز وجواهر ، وأكشف دفينا وخبيئا فى معالمى اللاتي أوردها وأقضى حياتى فى ورودها وفى العصر الحاضر لهجات جدت ، ونعرات حدثت ، وقولات فشت ، وآراء انتفشت ، فمن قائل بغمط من غبر وفخر من حضر ، ومن داع إلى لي الوجه شطر الغرب وطى الكشح عن الشرق ، ومن مستظهر مبهور بزخارف ما يأخذ عينيه من طلعات العصر الحاضر ونفحات المدنية القائمة يدل علينا بما يسمع وقد أقعى وقبع لم يبحث فيما مضى ولا يرده من علم ، وللمدنية أطوار ، وللزمان نزعات ، ولكل وقت حكم ، وبى طبع ينزع إلى الأولين ، وعرق ينبض بمجد السابقين ، وعملى القضائى يطبعنى ألا أقول بغير علم ، ولا أدعى إلا ببرهان ، وفى كل يوم أسمع دعوي جديدة من مدعى الحاضر على الغابر ، وزعمه عقم السابق ونتاج اللاحق . ولما كان ميلى بالغريزة إلى المطالعة ، ونظرى لا ينفك يقع فى المكتبة العربية على كثير من مفاخرنا ، وكثير مما كان لنا ويظن الجاهلون أنه اقتصر على غيرنا ، فقد حملنى هذا

الطبع سوقا وحُداء إلى أن أتوفر على هذه المهمة ومعى آلاتها ، فالزمن منفسح والمكتبة مواتية ولا يعوزني إلا القيد والترتيب ، فبدأت من خمس وعشرين سنة أقوم بهذه المهمة ، إن قرأت فعني كناشة رسمت لها أبوابها اللاتى يرد القول فيها وجعلت لها عناوين أودعها ما أعلن به فاعلم وأفحم وأدعو فأجاب وأقول فأبرهن ، وظللت على هذه السُّنة القويمة حتى تجمعت لدى معلمة أخشى ينقضى العمر ولا أجد مسعفاً على نشرها وإظهارها ، وكنت كلما فكرت أو سمعت زدتها عنوانا ، وقيدت في بابه ما يلائمه ، فكان مما خطر لى منذ خمس عشرة سنة أن أقوم بتدوين ما يقع لى من « أخـــلاق العلماء » ، ورأيت في هذا العام أن المقام صلح لنشره ، فأردت نفسى على إظهاره ، وهنا بدأت الشقة ، وأحستني المسئولية عظم المشقة ، فهم يقولون : من ألف فقـــــد استهدف ، وأريد أن أقدم للناس كتابا على مسئوليتي ، فوجب أن أضطلع بأعباء هذه المسئولية ، والحمد لله لقد أعان على قدر الطاقة ، وفي سبيله ما بذلت من جهد الانتقاء وجهد الترتيب وجهد التصحيح ، وهنا أصرخ متأوها من تصحيف الكتب والاستهتار في طبعها .

الترتيب

كيف يرتب المؤلف كتابه وهو يريد أن يبتدع به ؟ أيرتب نبذ أبواب على تاريخ أصحاب النبذ أم على تناسب المعانى فيها وتشاكل الوقائع بهـا ؟ وما هذا الذى يطيب للقارىء حتى يقدم له هنيئ‌ا سائغاً ؟ لقد رتبت كتابى جهد ما اهتديت إليه في حسن التنسيق والتنضيد ، وهو جهد يحسه القارىء إذا عرف أن أمثال ما في هذا الكتاب متوارد ينثال على المؤلف انثيال المصادفة ، وقد يجيئه بهـــــا بعد تمام الترتيب ما كان حقه أن يدخل فى صلبه ويغيربه وضع غيره ، وقد يكون للنبذة أوجه تحير في اختيار الأنسب لنظمها في بابها .

الانتقاء

أما انتقاء ما يقدم ، فحسبي أن تهديني التجربة إلى حبس كثير مما انتقيت حبساً صدر به حكم الإحساس لا غير ، وقد يتغير الإحساس في النظر إلى الشيء بتغير الباعث النفسي ، ومن أجله شق الاختيار عن الإنشاء ، هـــذا من حيث الشكل ؛ أما من حيث الموضوع فكثيراً ما كنت أقرأ نبذاً مقتضبة ، وأسماء مفردة عارية عن تمـام التعريف ، ومن حق القارىء على المؤلف المفيد أن يسوق له النافع التام وهنا بيت القصيد ، فإني لما جئت أطبع الكتاب ، بدا لى هذا البداء ، فحملت من أجله عرق القربة ، كنت أعرض النبذة على مصادر عدة لعلى أكمل من أحدها نقص الآخر وأصحح من صحيحه تصحيف الثانى وأعود فأبحث في مصادر أخري أخرى آخذ منها تعاريف الأسماء وما يفيد في مسمياتها أو يدل على أصحابها ، وفي هذا التردد كشفت عوار المطبعة والذين يطبعون الكتب ويهملون في تصحيحها ، وهو عوار أعود فألفت نظر الحكومة إلى تلافيه ، وإلى القيام عليه قيامة خير للعلم ونفع للمتعلمين .

ولقد قضى على حب التحقيق أن أرجع إلى كتب التراجم أقرأ فيهـا أصحاب الأسماء الذين وردوا فى نبذ كتابى فخرجت منها بفوائد ضممتها إليها وأسقطت بها طائفة مما جمعته منها ، إذ تبين لى بعد التلاقي بين الذين كانوا متلاقين فيها بعد زمان أو بعد مكان ، أو كان التاريخ لا يساعد على صحة ما نسب إلى من بها ، فطويتها برغمي فقد كانت فى وصفها محكمة السبك واضحة القصد ، ولكني أقـدم قبل الرواية وسرد الواقعة حق التاريخ ، وأحافظ على شرف الحقيقة وأمانة القراء .

* * *

اسم الكتاب

سميت كتابي باسم مصدر بكلمة « من » التبعيضية وهي تسمية صادقة ، فما أحطت بأخلاق العلماء كلها وهي منفسح تتلاحق الكتب فيه ولا تقطعه ، وسميته باسم « أخلاق العلماء » لأن الخلق في العالم أول ما يطلب منه . ولما استتبع الكلام حديث العلم وحديث العمل استطردت في العلم والعمل وغلبني ميلي لإظهار حقيقة العلم والعمل إظهاراً يملأ عيون بنى العصر المطروفة بعلم العصر ، فعرضت « للتربية العلمية الإسلامية » وإذ أقول الإسلامية فإنى أعنى العربية ، فالإسلام والعربية صنوان عجنتهما النبوة المحمدية بماء نزل من السماء لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وهى بعينها التربية التى يسمونها اليوم بالتربية الاستقلالية وهى التربية التي تجعل من الفرد أمة قائمة بنفسها وتجعل الأمة كونا متحداً من هؤلاء الأفراد يحس كل فرد منها إحساسها ويعمل لخيرها ، وهى لهذا روح بينا تراه يملأ الفرد بقوته قد مزج المجموع بسره فلا حياة للفرد إلا بالمجموع ، وحياة المجموع هى حياته ، وهم المجموع هو همه ، والقوة الناتجة من المجموع واصلة بسرها إلى أفرادها كأنما هو كتلة ضاعت فيها الأفراد على حين قيام كل فرد في نفسه قيام الخلية في الجسد إن اشتكي منه عضو تداعت له سائر الأعضاء فهو يحس المجموع كله له ، إحساساً سرى فى جميع الأفراد فعملوا به جميعاً لمصلحة المجموع ، فظهر بهذا سر الحياة الراقية التى صعد العرب بها درج السماء وألقوا من قمته نظراتهم على محيط القضاء ، وقالوا للناس ولدولهم : ائتيا للعرب طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فعربوا الدنيا لعزهم ولم يستعجموا لها ، فأعربت هي عن انقيادها وامتثالها . فكان من ذلك مثلهم الذي يرويه المبرد فى الكامل : ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم ، وهو رجل رأيته راكباً أو سمعته يعرب أو شممت منه طيباً . وثلاثة

يحكم عليهم بالاستصغار حتى يدرى من هم ، أحدهم رجل سمعته في مصر عربي يتكلم بالفارسية ، وفى هذا يقول أبو الريحان البيرونى في مقدمة كتابه « الصيدنة » : « الهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية(١) » ،

(١) يجب أن يفهم القارىء أن فكرة تعريب الامم وترجمة الشعوب الى لغة القرآن انما هى فكرة أساسية لسيادة الاسلام وأصل الاصول فى حكمه وسلطانه ، وهى الفكرة التى يعبرون اليوم عنها بفكرة السيادة القومية ، وهى معنى لا يمكن لدولة تحترم نفسها وتروم حفظ كيانها وبقائها أن تتنازل عنها أو تتساهل فيها ، ولما كان الاسلام دينا وجنسية ، وقد رفع الحدود بين الامم اللاتى تدين به ، وكره أن يدعى فيها بدعوة الجاهلية ، وجعل أصحابها جميعا اخوانا يؤلف مجموعهم كتلة واحدة لا فضل فيها لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، لما كان ذلك كذلك ولا بد للمجاميع البشرية من رابطة تتعصب لها وتعتصم بعروتها ، فانه وهو دين التوحيد ودعوته للاتحاد كان لا بد للمسلمين من وحدة عامة وعصبية عامة ولسان عام ، وقد نبت الاسلام عربيا وبعث على لسان رسوله العربى ونزل قرآنه بلسان عربى مبين ، فصح لهذا أن يمتزج الفرع بأصله وأن يتحد الاسلام بالعربية وأن يكون لسانها لسان شعوبه قاطبة ، وقد نجحت هـذه النظرية أتم نجاح ، ومن اخلاص المؤمنين بها عمت ذلك المنبسط الاسيوى والافريقى الى حدود جبال البرنات فى أوروبا عموما يعجب به علماء الاجتماع الى الآن ، وأصبح لسان العرب لسان الاسلام تتكلم به شعوبه ويرضعه أبناؤها الناشئون فى عقيدته مع ألبان الفطام ، فشبوا أعرابا يعرفونه كما كان آباؤهم يعرفون العجمة من قبله ، وقد تقرأ فى كتب التاريخ كلمات « العرب والموالى » وتراهم يقولون : ان الاعجام قد خدموا لغة العرب وجمعوها وتعدوها ، وألفوا فى علوم الاسلام بلسان العرب حتى كادوا يبرعونهم فاعلم أن هذا كلام اصطلاحى ، والواقع أن المسلمين الذين أنطقهم القرآن بلسانه كانوا مسلمين عربا ، لا فرق بينهم فى مناشئهم ، ولا يحس سيبويه ونفطويه والحسن البصرى وابن سيرين وابن سلام والزمخشرى والفارابى والفيروزابادى وغيرهم وغيرهم ، لا يحس أحد من هؤلاء ولا يقول ولا يرضى أن يقول انه أعجمى يخدم العربية ، بل لا يدرى هذا الاصطلاح ولا يعجبه ، اذ الجميع متساوون كأسنان المشط قاموا بما يجب عليهم لدينهم ومن خدمته خدمة لغته وعلومه فعملوا ما عملوا على قدم المساواة وهم شاعرون بما أعزهم به ذلك السلطان الاسلامى والدين العربى ، عزة خرت أمامها عظمات الدول من قبله وقد محاها ومحا آثارها ورسومها وبقى وحده يقول بلسان القرآن « لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وانه ليكفينى فى هذا شهادة الزمخشرى من أعلام القرن السابع وهو من أجلائهم فانه يفتتح كتابه « المفصل » فى علوم العربية فيقول : (الحمد لله على أن جعلنى من علماء العربية وجبلنى على الغضب للعرب والعصبية وأبى لى أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوى الى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمنى من مذهبهم الذى لم يجد عليهم الا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بأسنة الطاعنين الخ) وأخذ يهجم على الشعوبية هجمات لو كان فى مكانه يعرب بن قحطان ما برعه فيها ، وينتصر للعربية انتصارات لو رآه معد بن عدنان لعده فى أهاليها ، ولا عجب فالامم التى قد دخلت الاسلام قد بذت العرب كثرة فيه وفائدة منه فلا ريب وتراثه للجميع أن يحمى له الجميع ويتواصى به الوارثون أبتعين أبصعين .

وهى التربية التى ترى آثارها فى هذا الكتاب فلا ترى إلا علماً وعملا وخلقا وروحا، بل انفردت العربية وحدها دون سائر اللغات بأن جعلت مادة العلم والعمل واحدة (ع ل م)، فلا علم عندهم إلا بالعمل، ولا عمل إلا بالخلق، فهم في هذا وهم المسلمون قد جعلوا الثلاثة واحداً، ومن هذا الواحد انتشر دين التوحيد وحقت كلمة صاحبه ليظهره على الدين كله.

على هذا مر اثنا عشر قرنا لم يفكر مسلم أن يترجم القرآن، وعلى أساس هذه الفكرة دخل رئيس وزارة بريطانيا مؤتمر الصلح العالمى عقب الحرب الكبرى، وهو مؤتزر بقوة دولته، فتجاهل امام المؤتمرين لغتهم وهى لغة فرنسا لغة السياسة العالمية، فما كان منهم الا أن استجابوا لعزة بريطانيا وقرروا لسانها لسانا وسميا يزاحم لسان السياسة العام، واصبحت الانكليزية من ذلك اليوم لسانا تعرفه السياسة وتتخاطب به فى سائر أنحاء الدنيا، وكذلك كان العرب الاقوياء، فرضوا بقوة سلطانهم لغة لسانهم فبلع بريقه لغات الشعوب والامم، الا بقايا أعجمية منها ظلت الهياكل والمعابد تترنم بها - وهذه خاصة سماوية جعلها الله للمسلمين، وحد دينهم وجنسيتهم ولغتهم فرطهم بعصم لانفكاك لها سموا بها الى السماك وغلبوا بقوتها الدنيا، حتى اذا جاء امر الله ونسى المسلمون الآخرون سر تقدم المسلمين الاولين عادت تلك الحروف الاعجمية تنبت وتظهر وعادت لها السنة الشعوب تتكلم بها وتتخاطب حتى حيت وانتشرت، وقطعت الوحدة العامة بين المسلمين، وكادت تفصم رابطة التفاهم الاسلامى، وزادت الحال فجرؤ من عمى قلبه على القول بترجمة القرآن وعبادة البارى بلسان لم تنزل به على رسوله الذى شرعها، والحمد لله لقد اعجزه الحق أن يظهر ترجمته ولو أظهرها لما كانته ولن تكون.

وهذه ظاهرة غير خافية على من له ادنى المام بسياسة الاجتماع، وعلى خلبها يجرى اليوم بعض المفتونين الخاطئين يقلدون على ضلال ووحيهم من سجين، يريدون أن ينفخوا فى أممهم نعرات تتميز بها وتقر فى ظنهم، فهم يعودون الى جلود الذئاب يقلبون شعورها عن كلمات ينطقونها ومصطلحات يضعونها يريدون تمام الانفصال وأن يرسوا قواعدهم على أرض تخصهم ولا شبر فيها لغيرهم، وكذلك دول الاستعمار تطلق ألسنتها فى الشعوب شباكا لصيدها وأحابيل لايقاعها، ولله در أبى الريحان البيرونى حيث يقول:

« ديننا والدولة عربيان توأمان، يرفرف على أحدهما القوة الالهية، وعلى الآخر اليد السماوية، وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة منهم الجيل والديلم فى الباس الدولة جلابيب العجمة، فلم ينفق لهم فى المراد سوق، وما دام الاذان يقرع آذانهم كل يوم خمسا، وتقام الصلوات بالقرآن العربى المبين خلف الائمة صفاصفا، ويخطب به لهم فى الجوامع بالاصلاح، كانوا لليدين وللفم، وحبل الاسلام غير منفصم، وحصنه غير منثلم ».

وقد رأى المسلمون عاقبة ما فرطوا فى جنب الاعتزاز بهذا التوحيد العام، تبلبلت ألسنتهم فتمزقت ألفتهم فذهب ريحهم، وكذلك متى زعزع الاساس زلزل البنيان، والله المستعان.

التربيه الاستقلالية

هى التربية الإستقلالية التى جعلت من الحجاج معلم الصبيان بالرغفان حاكما تسير بذكره الركبان — ومن حمامة المسجد عبد الملك بن مروان خايفة يخضع له الزمان — ومن حامل الحطب على رأسه معز الدولة بن بويه ركن دولة آل بويه — ومن الحسن بن محمد القائل وقد اشتدت عليه الضرورة وألح الفقر :

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش مالا خير فيه

خرج الوزير المهلبى الذى زان التاريخ بالإحسان ، وزميله ابن هبيرة لا يجد معه ما يعدى به دجلة فتعديه تربيته إلى رياسة الوزارة — ومن المهلب الأزدى ، وقتيبة الباهلى والقاسم الثقفى القواد الثلاثة الحقيقين لا فرسان اسكندر ديماس الخياليين — ومن الشعاب بالسيالة يخرج السيد الحميرى أحد الشعراء الثلاثة المجيدين فى الإسلام الذين لم يحص لهم ماقالوا لكثرته . وحامل زاملة المخنثين الخزاف ابن الحجام هو أبو العتاهية شاعرهم الثانى — ومن خادم الحائك بدمشق طلع أبو تمام رب البلاغة والكلام — ومن الكاتب بالجيش إلى أن يكون هو خالد الكاتب الذى لا نظير له بين أرباب الأقلام — ومن لص يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص فينقبون ليلة على رجل فإذا فيما أخذ من ماله جزء من شعر الأنصار يقرؤه فهو يستحليه فيطلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب ويكون حماد الراوية الذى تضرب به الأمثال — ومن قاطع الحجر بأبى قبيس يفنى على عمله فيجتمع له فتيان مكة ويقومون بوظيفته لقاء ما يغنيهم ، ويجيئه أميرها الحارث بن خالد فيشجعه ويخلع عليه فإذا به قد صار « الهذلى » المغنى ، ويصهر إلى ابن سريج ويكتبه التاريخ فى أوئل المغنين بالإسلام — وعبد مملوك لعاتكة بنت شهدة من مغنيات البصرة المحسنات ، جزا يبيع اللحم فى الأسواق وينادى عليه ولده الصغير

فإذا بان طيب صوت الولد أخذته مولاته فعلمته وبعث الخليفة الرشيد فاشتراه فهو « مخارق » رأس من رءوس الموسيقى المبرزين فى بغداد، وظاعن إلى الأندلس يتفرد فيها بالرياسة ويزيد العود وترا لايزال فى أوتاره الخمسة إلى هذه الأيام — وإسحاق الموصلى المغنى ، يؤهله علمه بالفقه لأن يتزيا بزى أهله ويدخل على الخليفة يده فى يد قاضى القضاة ، ويمكنه علمه بالعربية إلى أن يضع الأصمعى ويرفع أبا عبيدة ، ويجيئه ابن الأعرابى النادرة فيلزم داره وهو ينشد لمن يلقاه :

نحمل أشباحنا إلى ملك   نأكل من ماله ومن أدبه

وبعده طلع من المنى الملتحى أبو بكر الرازى رئيس الأطباء ببغداد — ومن ابن الشرطى الشرير يخرج عمرو بن عبيد عالم الخير الكبير — ومن مؤدب الغلام بشارع بشر وبشير فى بغداد ، ابن العبد الرومى في هراة ، يخرج القاسم بن سلام جبل النور والنبـــل الذى كرم الوزيرين الكريمين أبا دلف وابن الحسين فحمل ثلاثين ألف دينار يحارب بها فى الثغر ، فهو يعمل مؤدبا ويعمل محاربا ويعمل موظفا ويعمل مؤلفا ينعم الناس به ثمرة من ثمـــار تلك التربية التى أخرجت مثله ثمرات وثمرات أينعت فى الحقب الخاليات .

تربية النساء

وهى التربية التى تُطبع على غرارها نساؤها فيكون لبنت السبط صالون محجب يقصده أهل الأدب ويصدرون عنه بالعلم ونيل الرغب — ويدعو الخليفة هشام شيوخ بنى أمية أن يسمرو عنده إذ جاءته عائشة بنت طلحة فلا يذكرون شيئا من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ولا طاع نجم ولا غار إلا سمته ووسمته — وأبو مسلم الفراهيدى المحدث يكتب عن سبعين امرأة ، فالحرائر والإماء استبقن في ميدان هذه التربية

حتى كانت شهدة الكاتبة تقعد للحديث فى القرن السادس وهى صاحبة السماع العالى ، ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر ، بعد صيتها وسمع عليها الخلق الكثير — وبقى هذا الأثر فى نساء الإسلام حتى بدء القرن العاشر الهجرى فترى الشيخ السيوطى يختم كتابه « بغية الوعاء » بمسلسلات قرأ منها على الأصيلة الثقة الخيرة الفاضلة الكاتبة أم هانىء بنت الحسن الهورينى ، وعلى هاجر بنت محمد المصرية — وأخبرته الشيختان المسندتان أم هانىء وأم الفضل بنت محمد المقدسى — وقرأ على الأصيلة نشوان بنت عبد الله الكنانى — وأخبرته كمالية بنت محمد بن أبى بكر الجرجانى — وأنبأته أمة الخالق بنت عبد اللطيف العقبى — وأخبرته أمة العزيز بنت محمد الأمباسى — وفاطمة بنت على بن اليسير مشافهة بالفسطاط — وخديجة بنت أبى الحسن ابن الملقن الخ هذا السمط من الأقمار كانت تزدان به ديار الإسلام فى جميع الأقطار زينة قدر وزينة خدر مما كان لهذه التربية أثره الباقى إلى ذلك الزمان :

تربية الحريه

وهى تربية فى الحرية لا تكاد تكون لها حدود ، تعالت على أصل الأديان وعلى أصل الإنسان ، وشبت عن الطوق فهى مطلقة فى الشيخ وفى الطريقة وفى الرأى ، وفى المذهب والعقيدة ، وإذ نصل إلى هـذه النقطة فإنا نساجل جميع الأمم فى هذه الدنيا إن كان عندها مثل ما عندنا من حرية الرأى والمذهب ، حتى عزت المذاهب أن تحصى ، بوأحصيت الأقوال فى بعض المسائل فوصلت إلى سبعين ، وعد بعضهم فى بعضها أكثر وأقل ، وهذا كله أثر من آثار جودة هذه التربية ونماء زرعها فى تربة الإسلام الذى شجعها حتى نص الفقهاء أن الكلمة إذا خرجت من فم الرجل تحتمل تسعة وتسعين وجها للكفر ووجها واحداً للإسلام فإنه

لا يكفر بها ، ويغلبون الواحد على التسعة والتسعين تغليباً لسماحة هذا الدين – ولم يحجروا على عالم فى مذهب من مذاهبه إلا ما نصوا عليه من الحجر على « المفتى الماجن » وهو الذى يعلم الناس الحيل الباطلة ليخرج بها على شريعة المجتمع ، وهذا ليس حجراً على العلم ولكن حجر على إفساد الناس بفاسد العلم – وقلب ما شئت من صحائف كتاب التربية الاسلامية فإنك راء فيه آخر ما يتبجح باستنباطه علماء اليوم ، حتى الرحل وطريقة البحث والتحليل والمدرس المعيد و.. و..الخ هى طريقة التربية فى الإسلام .

وهى التربية العلمية التى كان صاحب هذا الدين قدوتها يتأسى به أهلها أسوة حسنة ، إذ نصب نفسه الشريفة فيها أحسن مثال لمن اتبعه بإحسان ، فهو وقلبه بحر من العلم المدنى . عامل بيده وبلسانه فى جميع مجالات العمل داخل داره وخارجها . في السلم وفى الحرب، وفى المنشط والمقعد والحاضرة والبادية ، لا يتميز على أصحابه ، ولا ترونه إلا كرجل منهم ، يده بأيديهم ، ورأسه بين الرءوس فى طليعة الصفوف ، ولو جئنا نضرب الأمثال الشريفة لهذا العمل الشريف لخرجنا عن موضوع الكتاب ، وإنما نحن هنا نشير إلى رءوس المسائل ، وحسبنا هذا المثل دليلا على ما حوته الكتب في هذا المقام ، فننقله من كتاب « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » .

التربية العمليه

« كان صلى الله عليه وسلم في سفر فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجل يارسول الله على ذبحها ، وقال آخر على سلخها ، وقال ثالث على طبخها ، فقال صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب ، فقالوا يا رسول الله نحن نكفيك ذلك ، فقال قد علمت ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، فإن

الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه ، وقام فجمع الحطب» .

ولقد اتبع المسلمون هذه السنة العملية ، فتعهدوا ملكات العمل فى بنيهم وصقلوها بتربية الاستقلال ، فنشأ الناشئون ينفعون بها ، ويصلحون لكل عمل يتولونه ، فترى طبيباً يتولى العمل فى المستشفى العسكرى الذى كان يحمل على أربعين بغلا فى القرن السادس ، ويتولى الفصادة به أيضاً ، فإذا هو قد صار قاضى القضاة في بغداد أيام المقتفي وهو القاضى ابن المرخم يحيى بن سعيد المشهور — وأبو على بن سيناء بينا هو يرأس الأطباء ، إذا به يناظر الفقهاء ، إذا به يؤلف فى الأدب واللغة ، ويحج الأدباء ، ومن بين هذا يتولى العمل فى إحدى الحكومات ثم يتقلد الوزارة ويعزل ويثور ويتولى وهكذا من أعمال الدنيا — وسفيان الثورى المحدث يسافر فى تجارته ، وأبو حنيفة المجتهد يقعد فى دكانه — وحمزة بن حبيب الذى يقرأ المسلمون إلى اليوم القرآن بقراءته ، قيل له « الزيات » لأنه كان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان ويجلب من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة — وأخبرنى صديقنا العالم الدكتور احمد بك عيسى أنه جمع تراجم لأكثر من ثلاثين طبيبا كانوا محدثين — وبينا ترى ابن المبارك متبنكا مع الملوك إذا به متزمل مع العلماء ، إذا به شاكى السلاح في صفوف القتال — وبُسر بن أرطاة المعدود من فطاحل العلماء هو معدود أيضاً من فطاحل الولاة — وأحمد بن حنبل يعمل بيدة ويخرج بالقدوم فيصلح منازل السكان ، وهكذا ظل العلماء يعملون بأيديهم لدولتهم ولأنفسهم ، فيحيي القرطبي العالم المشهور فى الشرق والغرب ، كان إذا فرغ من درسه جاءه رجل بشىء ملفوف، موضعه أمامه ويقوم الشيخ به ويتتبعه راوي الخبر فإذا به فرخة مسموطة يشتريها السوق للشيخ كل يوم وقد كلفه بها ،

فإذا خلا بداره طبخها بنفسه وهيأها . وقد بقيت هذة الشنشنة العملية معروفة فى العلماء ، فأخونا القاضى الفاضل محمد أحمد حافظ يروى لى أنه كان جارا للشيخ « الشربينى » يراه كل يوم يخرج القمامة من داره ، ويهيئ حماره بيده ويصلحه فيركبه إلى المسجد ، وكذلك حدثنى المرحوم يوسف بك المويلحى عن العالم المرحوم الشيخ « النجدى » أنه كان يقضى حوائج منزله بيده .

التربية الاخلاقيه

وهى التربية الأخلاقية التى سمينا كتابنا باسمها ، وصدرناه بآثارها ، إذ كانت الأخلاق هى لب لباب العلم وروحه وما يرجى منه ، وبالأخلاق تبنى الممالك ، وعلى أساسها يرتفع ذووها — وظاهرة الأخلاق فى التربية الإسلامية هى الظاهرة اللامعة من أقطارها ، وكفى بصاحب هذا الدين أن يحصر بعثته فى إتمام مكارم الأخلاق ، وأن يضع الحق تعالى على رأس شهادته لعبادة قوله (وإنك لعلى خلق عظيم) — والأخلاق على البقية الباقية لما يرجى من العلم ، والهدف العريض لبعثة الرسل والأنبياء ، والمحور الثابت لسير المجتمع إلى مستقر الصلاح ، وإنها لصفحة مشرقة تلمع بها التربية الإسلامية ، ويسير القلم فى أنحائها فيجد منها الغرر الواضحة والمثل العليا فى سلفنا الصالح ، زانوا بها نفوسهم فزينت بهم الدنيا ، وطلعوا بها شموسا أضاءت لهم كنوز « بصرى » وحووا بفضلها هذا الملك العريض الذى سرروه بسور حصين من أخلاق هذا الدين ، حتى إذا فتر فى صدر الخلف نبضه ، دخلت الأمم عليهم من أقطارهم وانتقصوا أطرافهم ، وأخذوا يحزمون المخلفين فيه حزم السلع ، ويخبطونهم خبط الورق تتحات من أغصانها وقد زبلت وتهشمت فهم فى أمر مريج .

ولقد يخيل إلى أن التربية الأخلاقية تمكنت من أسلافنا تمكنا ظننت أنهم قد غيروا الأحكام من أجلها ، فقد مر عليك فى (نبذة ٢٦٥) أن ابن أبى دؤاد جعل كفارة الحنث فى اليمين على الخليفة الواثق مائة ألف دينار ، ولما قيل له فى هذا ، أراهم مناط حكمه من عزة الخليفة فى خوف الله فأفرده بهذا الحكم المبتدع — جرى هذا فى الشرق ومثله جرى فى الغرب أيضاً مع محدث الأندلس وراويها يحيى بن يحيى الليثى ، ففى كتاب « نفح الطيب » أن أميرها عبد الرحمن بن الحكم ، جمع الفقهاء فى قصره ، وكان وقع على جارية من جواريه يحبها فى رمضان ، ثم ندم أشد ندم ، فسألهم عن التوبة والكفارة ، فقال يحيى : تكفر بصوم شهرين متتابعين ، فلما بادر يحيى بهذه الفتيا سكت الفقهاء حتى خرجوا فقال بعضهم له : لِم لمْ تفت بمذهب مالك بالتخيير ؟ فقال : لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود .

التربية الاسلامية

هذه هى التربية الإسلامية ، تراها قامت بالعلم والخلق والعمل على أساس الاستقلال الصحيح قيام خير للفرد ، وخير للمجموع ، فالفرد مستقل بها لنفع نفسه ونفع جنسه ، والمجموع مستقل بهذا الفرد على أنه عضو من جسده . إن اشتكى يوماً تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، ومن هذا المزج كان السر فى تقدم المسلمين الأولين ، وكما يقول علماء الكيمياء : إن قوة الاتحاد تقاس بكمية الحرارة الصاعدة منه ، فيظهر لى أن أعظم حرارة كونية لاتحاد حادث هى التى ظهرت من بضعة عشر قرناً فى بطحاء مكة ظهوراً انتشر فى الآماق ، وظهوراً ظل

يلمع ويضىء على مر القرون وكر الأيام - لما بدت هذه الظاهرة الكونية تعصف بمملكتى الروم والفرس ، وأخذ أبناء التربية الإسلامية يبسطون أيديهم ذات اليمين وذات الشمال وقد خرجوا من صحرائهم يهدمون فى هاتين المملكتين وهم بعدة الظفر والانتصار ، وتابعتهم الحوادث سراعا تجرى على أمونئهم ، وتكشف الأيام عن تحقيق آمالهم ، وريع الفرس وريع الروم ، وأخـــذ كل فريق يأرز إلى مركزه ، إذ ذاك رأى عاهل الروم وعاهل الفرس أن يبحثا السر فى هذا الإنقلاب الهجائى ، فأرسلوا جواسيسهم إلى المسلمين يتعرفونهم وينقلون إلى عاهلهم ، قال الرومى لهرقل وهو مدبر إلى القسطنطينية هربا « أحدثك كأنك تنظر إليهم ، فرسان بالنهار رهبان بالليل ، مايأكلون فى ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه ، فقال هرقل : لئن كنت صدقتنى ، ليرثن ماتحت قدمى هاتين ، وأما عين « رستم » الفارسى فقد انغمس فى المسلمين فى القادسية كبعض من ند منهم ، فرآهم يستاكون عند كل صلاة ثم يصلون فيفترقون إلى مواقفهم ، فرجع إليه فأخبره بخبرهم وسيرتهم ، حتى سأله ما طعامهم ؟ قال مكثت فيهم ليلة لا والله ما رأيت أحدا منهم يأكل شيئاً إلا أن يمصوا عيدانا لهم ، حين يمسون وحين ينامون وقبيل أن يصبحوا ، فلما سار . فنزل بين «الحصن والعتيق» وافقهم ، وقد أذن مؤذنهم الغداة ، فرآهم رستم يتحشحشون ، فنادى فى أهل فارس أن اركبوا ، فقيل له : ولم ؟ قال : أما ترون إلى عدوكم قد نودى فيه فتحشحشوا ؟ فقال جاسوسه : إنما تحشحشهم هذا للصلاة ؟ فقال بالفارسية وهذا تفسيره بالعربية : أتانى صوت عند الغداة ؟ وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل ؟ فلما عبروا وتوقفوا وأذن مؤذن

سعد بن أبي وقاص للصلاة فصلى سعد ؟ قال رستم : أكل عمر كبدى « ابن جرير » . وقد صدق رستم ، فإن التربية الإسلامية قد قامت على قواعدها الصحيحة ، أوتيت معلمين صحاحا ، وقادة مخلصين ، ومربين رأوها حقا فكانوا فيها مثال حقها أخذه عنهم من أحاط بهم ، وانتشر حقها فيهم ، فكانت البيئة كلها بيئة حق مدملجة صلبة لا ينفذ فيها الباطل ولا تهن ، ومثل هذه البيئة تنبت أكتالى أكباد المبطلين ، وشاربى دماء الضالين ، وهى وسط البيئـات الفاسـدة تخبطها وتهشمها وتذروها فى ريح عاصف ، وتسود أصحابها وتستولى على أمكنتهم ، وهذا سر واضح ، منه كانت الهبوة الأولى لانتشار الإسلام ، وقد ظل قائمـا بقواعده تلفّ جذوره على أنواط القلوب ، واستحوذت عقيدته على ثنايا النفوس ، فتناسلت الذرية وقد ولد المسلم مسلما ، حتى كانت القرون الوسطى وفيها أعيد امتحان هذه التربية مرة أخرى على أشد ما يكون امتحان وأصعبه . نسل التتار على المسلمين من كل حدب فى الشرق ، وخرج الفرنجة عليهم من كل مملكة فى الغرب ، وكان المسلمون إذ ذاك قد تمزقوا شيعا وتفرقوا دولا . ولكن المسلم بقى هو المسلم صاحب هذة التربية الاستقلالية ، وولى العقيدة الإسلامية التى تقيم من الفرد أمة يجب عليها أن تدفع بنفسها عن المجموع أيان كان صاحبها ، فهب الفرد المسلم هبة صارخة من أعماق كل قلب مسلم ، فكانت مظاهرة أخرى جشدت فيها التربية الإسلامية أبناءها ، فأخذوا يدفعون صدور أعدائها صدرا صدراً ، كأنما كانوا على ميعاد ، وكأنما وحدة الخلافة الأولى لم تنفصم عروتها ولا تعددت الريتها ، إذ كان داعى الدين قائما يصرخ فى قلب مؤمن ، فما هى إلا قرون ظل المسلمون وأعداؤهم يعتلجون

التربية الأخرى ، فلما وقعت الحرب الكبرى وتمت بالنصر للانكليز وحلفائهم كتبت أقول : إن النصر في هذه الحرب ، قبل أن يكون نصراً للسيف ، كان نصراً لقلم أدمون دى مولان صاحب النظر الصائب الذى اخترق الحجب قبل الحرب بسنين ، وعرف نتيجتها قبل أن تخطر لأحد .

نبذ الكتاب

ولقد جعلت كتابي هذا نبذاً منقولة من منثر الكتب ، حشدت فيه الشاهد والمثل على تربية الأمة الإسلامية وقداضطلع العلم بأعبائهاوقام بسقيفته على سواري الخلق والعمل ، فجعل منها ساباطا للتربية الاستقلالية ، يستظل به أبناؤها ويقتعده رجالها ، واختصصت من أبناء هذه التربية طائفة من العلماء في منتحاهم منها ، إذ كان العلما هم القوامين عليها ، فإن صدقوا فيها صدقوا في متعلميهم ، فكان الكتاب عرضا جلياً ينظر القارىء منه صور هذه التربية ووقائعها ، في حوادث وقعت ، وأمور تمت ، كما يشاهد الصور واضحة على شاشة الخيالة فتصل إلى مخه ، وترتسم على مخيلته ، بجلاء ووضوح يبقى أثره ، ويقع في القلب صدقه تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وقياما بما أخذ الله على أهل الكتاب أن يبينوه للناس ولا يكتمونه ، فهو صرخة إسلامية تتجمع أصواتها من شتيت النواحي في بوق هذا الكتاب لتقع فى أذن القارىء فلا حاجب لها عن القلب ولا حاجز دونها عن العمل .

دلالتها

وقـد قصدت بنزعها من وقائع التاريخ فوق ما ذكرت أن تؤدى معانيها وتقوم بدلالتها ، فتغني المؤلف عن سوق النصح وقرع الآذان إذ كان المؤلف لا يعلو عن القارىء في هذا المجال . وكما أن النفوس تتقزز من الوعظ ويزور أصحابها عن لافتيهم ، فقد جبلت أيضاً على الميل إلى

التقليد والرغبة فى صدور آثارها عنها كاملة كأنها قدوة فيها ومثل . وفيما ذكرنا من وقائع العلماء وما روينا من آثارهم إحثاث للنفوس على التأسى بهم والسير فى مناهجهم ، وقد رأينا أن ننقل عنهم كما وقع واتفق ، لم نتقص الأفذاذ والعباقرة ، وإنما جئنا بالأوساط ومن فوقهم ، وهم بشر مثلنا فلا ريب كان عملهم أدعى إلى غيرة القارىء أن يكون منهم وأن يعمل مثلهم وفي هذا بلاغ لقوم يعقلون ، فما تحبب الدنيا إلى العاقل إلا لتكميله ، وفى هذا يقول سيدنا عمر « لولا ثلاث فى الدنيا لما أحببت البقاء فيها ، لولا أن أحمل أو أجهز جيشاً فى سبيل الله ، ولولا مكابدة الليل ، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقي أطايب التمر ، لما أحببت البقاء » فهذه ثلاث سيدنا عمر « الخلق والعمل والعلم » هي التي حببت البقاء إليه فيها ، وهي ثلاث هذا الكتاب اللائي وضمناه لها ودعونا قراءه إلى حبها ، وأقمنا البرهان على فضها ، وجعلناها آية ومثلا للآخرين على عز وتقدم الأولين.

وابتدعته فى تركيبه محكما ، ذا نبذ مرقمة ، في أبواب منظمة ، على مناسبات ملتئمة ، ونسبت كل نبذة لمصدرها ، غير معمم بالنسبة ، ولا شاحط بالقاريء ، فوضعت رقم الصحيفة وعدد الجزء حتى تسهل المراجعة ويصدق النسب .

والكتاب وهو بهذا النقل ، ليس من جلب التجار يعمدون إلى المصادر المعروفة فيوسقون ويجلبون ، إنما هو من طرف السائحين ، وركاز الرائدين وانتقاء المتبصرين ، وآية المتوسمين ، نظمته نظما ، أنا به قمين ، وبنيتي الخالصة عليه أستعين ، وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين .

وتم طبعه يوم عيد المولد النبوى المبارك سنة ١٣٥٤ هـ .

الفهرس

الموضوع صفحة

دار
الشعب